



3.5.2016

الكسندر بوشكين

رحلة الى ارضروم

ترجمة: عبدالله حبه

فصل



الكسندر بوشكين

رحلة الى ارضروم
وقصص أخرى

ترجمة: عبدالله حبه



رحلة الى ارضروم
وقصص اخرى

Author: **Alexander Pushkin**
 Title: «**A journey to Arzrum**»
 Translator: **Abdulla Haba**
 cover designed by: **Majed Al Majedy**
 P.C.: **Al-Mada**
 First Edition: **2016**

المؤلف: الكسندر بوشكين
 عنوان الكتاب: رحلة الى ارزروم ..
 وقصص أخرى
 ترجمة: عبدالله حبه
 تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
 الناشر: دار المدى
 الطبعة الاولى: 2016

Copyright © Al-Mada

جميع الحقوق محفوظة



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 770 8080 800 + 964 (0) 790 1919 290	بغداد : حي ابو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141 Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141 www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 961 175 2616 + 961 175 2617	بيروت: الحمراء- شارع لبون- بناية منصور- الطابق الاول info@daralmada.com
+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275 + 963 11 232 2289	دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار al-madahouse@net.sy ص.ب: 8272

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدماً.

المقدمة.

إن الكتابة عن الكسندر سيرغيفيتش بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧) الملقب بأمرير شعراء روسيا ليست بالمهمة اليسيرة فقد كتبت عنه مئات المجلدات ولهذا آثرت لدى كتابة مقدمة ترجمة أعماله النثرية عدم تناول سيرته وابداعه بالتحليل، وبدلاً من ذلك قمت بترجمة مقالة صديقه نيقولاي غوغول عنه، التي تعطي صورة صادقة عن شخصية بوشكين كإنسان وشاعر ومواطن.

أما القصص المترجمة فتعكس عبقرية بوشكين، فهو مثل غيره من كبار الشعراء أبدع في النثر بقدر لا يقل عن إبداعه في الشعر. وقد اخترت من بين الأعمال النثرية تلك التي لم تترجم بدقة سابقاً وحيث سمح المترجمون لأنفسهم باطلاق العنان لأقلامهم في «التصرف» بأعمال بوشكين. كما أن بعض الأعمال النثرية قام بترجمتها من الروسية صديقاى المرحوم غائب طعمة فرمان وأبوبكر يوسف وراجعها مستعربون روس، فهي أصدق من غيرها من حيث المحتوى، ومنها «إبنة الضابط» ودوبروفسكي وقصص المرحوم ايفان بيلكين. ولهذا لم أترجمها مجدداً.

ولا بد لي من الإشارة الى أن الترجمة من لغات اخرى غير الروسية الى العربية كثيراً ما تتضمن أخطاء المترجم الأول إنجليزي أو الفرنسي وتضاف اليها أخطاء المترجم العربي. فمثلاً ان المترجمة الأمريكية

ميريان فيل ترجمت عنوان قصة انطون تشيخوف «كاشتانكا»، وهي قصة الكلبة ذات اللون الكستنائي، بـ«شجرة الكستناء». وجذب انتباهي لدى مراجعة أحد تراجم رواية «بيوض الشوم» (بيوض القدر) لميخائيل بولغاكوف أن المترجم كان يضيف من عنده بعض الأوصاف غير الموجودة في النص الأصلي أو يتصرف حسب هواه في التعامل مع التسميات الجغرافية والمناصب أو يحذف مقاطع بأكملها ربما بسبب عدم فهمه لمعانيها. ويلاحظ في العديد من التراجم الأخرى تحوير الأسماء الروسية فيصبح ليف «ليو» وبافل «بول» ويكاترينا «كاترين» ويلزافيتا «اليزابيث» وهلمجرا. إن الأسماء اللاتينية حين تطلق على شخصيات روسية تفقد هذه الشخصيات صورتها في جو القصة أو الرواية.

والقصص المنشورة في هذه المجموعة تعكس موقف بوشكين من أحداث عصره في «رحلة الى ارضروم..» يطرح موقفه من علاقة الروس بالشعوب الأخرى واحترامهم لتقاليدها وعاداتها وحتى لحكامها وقادتها الذين قاتلوهم. ويذكر الكاتب موقف الدراويش الأتراك منه كشاعر وترحيبهم به كأنه واحد منهم ويصف أحوال حريم الحاكم التركي. ويصف بوشكين في القصة طبيعة مناطق القوقاز الجبلية الوعرة وأنهاها الجاحمة وفرسانها الأبية، والتي تأثر بها كثيرا وانعكست صورها حتى في أشعاره.

وفي قصة «العربي ريبب بطرس الأكبر» يروي بوشكين قصة جده الأكبر إبراهيم الذي ارسله القيصر الى فرنسا لدراسة العلوم العسكرية وعودته الى روسيا بعد سلسلة من المغامرات في إسبانيا حيث حارب الى جانب الفرنسيين وعلاقته الغرامية في باريس مع كونتيسة فرنسية من النبلاء التي أنجبت منه صبيا تم إخفاؤه عن زوج الكونتيسة وبعيدا

عن باريس. ويتحدث بوشكين عن كيف قرر بطرس الأكبر تزويج إبراهيم من ابنة أحد النبلاء الروس بغية أن يوطد مركزه في مصاهرة أحدهم. والقصة كلها من بنات خيال بوشكين حيث أن جده الأكبر لم يتزوج ابنة نبيل روسي بل ابنة تاجر يوناني.

وفي قصة «كبير جالي» يصف الكاتب جسارة قاطع طريق انضم الى الحركة الثورية اليونانية ثم هرب الى الأراضي الروسية. ولكن السلطات سلمته الى الأتراك الذين حكموا عليه بالإعدام. لكنه أفلح في خداع حراسه وهرب لممارسة «مهنته» مجددا.

أما قصة «ليال مصرية» فهي مستوحاة من الأسطورة حول كليوباترا وعشاقها وترتبط بالموضة الشائعة في زمان الشاعر حول تناول المواضيع الرومانسية في الإبداع الأدبي. ونشرت بعد وفاة الشاعر فقط في مجلة «سوفريمينيك».

وقصة «ملكة البستوني» تظهر جانبا هاما من حياة الطبقة الأرستقراطية وطيشها ولعها بالقمار، بما يولده من مصائب وخراب أسر كاملة. ويصف بوشكين بأسلوب ساخر حياة المقامرین وجشعهم واستعدادهم لارتكاب أفعال لتحقيق أهدافهم. ومصير بطل القصة في مستشفى المجانين.

وفي قصة «روسلافليوف» يتناول الكاتب فترة غزو نابليون لروسيا في عام ١٨١٢ وأصداء تلك الأحداث في مجتمع الطبقة الأرستقراطية الروسية. وتعكس القصة لحد كبير الروح الوطنية التي كان يتمتع بها الشاعر.

ويتناول بوشكين في «تاريخ قرية غوريوخينو» في الواقع ما كان

يعانيه الفلاحون (الموجيك) الروس من الآم بسبب نظام القناة. وبوشكين مثل غيره من المثقفين الروس في زمانه أدان القناة، واعتبر ان نظام العبودية هذا يمثل عارا على المجتمع.

.



الدقة والإيجاز هما من أكبر فضائل النثر، إنهما يتطلبان طرح الأفكار والأفكار، وبدونهما لا تعني التعبيرات الإنشائية المنمقة أي شيء.

(بوشكين حول النثر)

عدة كلمات حول بوشكين

بقلم نيقولاي غوغول

عندما يذكر إسم بوشكين تنبجس على الفور الفكرة حول وجود الشاعر القومي الروسي. وفعلا لا يضاويه في هذا أي احد من شعرائنا ولا يمكن تسمية أحد غيره بالشاعر القومي: فهذا الحق يعود اليه حصرا. وتجسد فيه، كما لو كان معجماً لغوياً، كل غنى وقوة ومرونة لغتنا. فقد مضى أبعد من الجميع في توسيع حدودها وأظهر بقدر أكبر جميع أبعاد فضائها الواسع. إن بوشكين ظاهرة فذة، ولربما أنه الظاهرة الوحيدة المميزة للروح الروسية: فهو إنسان روسي في تطوره، وما سيكون عليه ربما بعد مائتي عام. وتتجلى فيه الطبيعة الروسية والروح الروسية واللغة الروسية والفطرة الروسية بكل الصفاء، وبكل الجمال الطاهر، الذي ينعكس فيه المنظر الطبيعي على سطح عدسة محدبة.

وحياته نفسها روسية تماماً. ففيها نزعة التمتع بالملذات وبالحرية، التي يصبو اليها الروسي أحياناً، في غفلة من النسيان، وتحظى دوماً بإعجاب الشباب الروسي الغض، وتتجسد فيه منذ الأعوام الأولى لظهوره في أوساط المجتمع. وألقت به الأقدار، كما لو كان ذلك عن قصد، الى حيث تكون حدود روسيا متميزة بحددة، وبخصوصية عظيمة، وحيث تنداح ربوع روسيا المترامية الأطراف لتلاقي الجبال التي تناطح السحب، ثم تمضي رواحاً نحو الجنوب. لقد بهره القوقاز الجبار المتلفح بالثلوج، والوديان الشديدة القيقظ. ويمكن القول أنه اثار

فيه قوة الروح، ومزق آخر السلاسل التي كانت تقيد أفكاره الحرة. ووقع بوشكين في أسر الحياة الشاعرية الطليقة لأبناء الجبال الجسورين، وعراكتهم، وهجماتهم الخاطفة والقحامة التي لا تقاوم، ومنذ ذلك الحين اكتسب قلمه ذلك الباع الواسع، وتلك السرعة والجرأة، التي أدهشت وأذهلت روسيا التي بدأت لتوه بممارسة المطالعة. وعندما وصف المعركة بين شيشاني وقوزاقي، كانت تعابيره كالبرق. وتألقت وصفه لها مثل السيوف اللامعة، وانطلق بوتيرة أسرع من المعركة ذاتها. إنه وحده لاغيره يعتبر منشد القوقاز: فقد عشقه بكل كيانه ومشاعره. وقد تشعب وتشرّب بأقاليمه الساحرة وبسماء الجنوب فيه وبوديان جورجيا الرائعة ولبليالي القرم وحدائقها الجميلة. ولربما أنه يبدو في إبداعه أكثر حماساً وحميةً حيثما تمس روحه الجنوب. فقد ضمنه بلا إرادة منه كل قواه، ولهذا فإن أعماله المترعة بأجواء القوقاز وبانطلاق الحياة الشركسية ولبليالي القرم، كانت تتسم بقوة عجيبة وسحرية: وقد أثارت إعجاب حتى الذين يفتقرون إلى الذوق والقدرات الروحية الرفيعة لكي يجدوا القوى لتفهمه. إن الجرأة متيسرة لديه بأكبر قدر، وتمس الروح بقوة أشد وعمدى أوسع، لاسيما لدى الشباب، الذي يتعطش إلى كل ماهو غير عادي. ولم يعرف أي شاعر آخر في روسيا مصيراً يحسد عليه مثل بوشكين. ولم ينتشر مجد أي أحد بسرعة مثل مجده. وصار الجميع في كل مناسبة وغير مناسبة يجدون أن من واجبهم إيراد، أو أحياناً حتى تحريف مقاطع ما متألقة من قصائده. وصار اسمه يكتسب شيئاً سحرياً كالشرارة، وحالماً يبدأ أحد مروجي الأقاويل العاطلين بإدراجه في عمله، حتى نراه ينتشر في كل مكان.

لقد كان منذ البداية وطنياً، لأن السمة الوطنية الحقيقية لا تكون

بوصف رداء (السارافان)^(١)، بل في وصف روح الشعب. وحتى قد يكون الشاعر وطنياً عندما يصف عالماً غريباً تماماً، لكنه ينظر إليه انطلاقاً من نزعته الوطنية، ويعيون شعبه، حين يشعر المبدع ويتحدث بشكل تجعل أبناء وطنه يعتقدون أنهم يشعرون ويتحدثون أنفسهم بلسانه. وإذا ما اردنا الحديث عن خصال بوشكين التي تميزه عن بقية الشعراء، فإنها تكمن في السرعة الخارقة في الوصف وفي القدرة الفنية غير العادية في تصوير الموضوع بعبارات مقتضبة. إن سرده يتميز بالدقة والجرأة بقدر تجعله بديلاً لمقطوعة وصفية كاملة. والمقطع الصغير لديه يكون دائماً وكأنه يعادل قصيدة كاملة. وهيئات ان يمكن القول عن شاعر آخر ان مقطوعة قصيرة لديه تتضمن مثل هذا القدر من الجلال والبساطة والقوة كما هو الحال لدى بوشكين.

لكن قصائده الأخيرة قد نظمها في الوقت الذي توارى بعيداً عن القوقاز بكل عظمته الرهيبه والسامق. معهاية وراء السحب، وانغمر الشاعر في قلب روسيا، وفي سهولها العادية، في الدراسة العميقة لحياة وعادات أبناء جلدته وأراد أن يصبح شاعراً قومياً حقاً، - ولم تعد قصائده تبهر الجميع بالتألق والجرأة الخارقة التي تبهر الأبصار، وهو ما ميز لديه كل ما يتعلق بذرى جبال البروس وأبناء الجبال والقرم وجورجيا.

وأعتقد انه ليس من الصعب التعامل مع هذه الظاهرة. فإن جميع القراء، من المتعلمين وغير المتعلمين، الذين بهرتهم جرأة يراعه وسحر صورته، كانوا يطالبون في صخب، بأن تكون المواضيع الوطنية والتاريخية مادة لشعره، متناسين أنه لا يمكن بالتلاوين التي توصف

١. الزري القومي للنساء الروسيات - المترجم

بها جبال القوقاز وساكنيها الأحرار، تصوير الحياة الروسية الأكثر دعة وهدوءاً والخالية بقدر أكبر من الإنفعالات والرغبات الجامحة. إن جمهرة الناس الذين يمثلون الأمة ذوو رغبات عجيبة فهم يصرخون: «صورنا كما نحن وبكل صدق، وصور أفعال أسلافنا كما كانت». ولكن حالما ينقاد الشاعر إلى إرادتهم ويصور كل شيء بصدق تام كما حدث، نجدهم قائلين: «هذا باهت، وضعيف، وغير جيد، ولا يشبه البتة ما جرى من أحداث». إن الدهماء في هذا الحال تشبه المرأة التي تطلب من الرسام أن يصورها بشكل يشبهها تماماً، ولكن الويل والثبور له إذا لم يخف جميع نقائصها في لوحة البورتريه! إن التاريخ الروسي يكتسب فقط منذ فترة اتجاهه الأخير في عهد الأباطرة حيوية متألقة، لكن طابع الشعب حتى ذلك الحين كان أغلبه باهتاً، ولم يعرف كثيراً تنوع الرغبات والشهوات. والذنب لا يقع على الشاعر، لكن يتوفر لدى الشعب أيضاً الشعور الشديد في طلب المغفرة، متمثلاً بالرغبة في إكساب أفعال أسلافه حجماً أكبر من الواقع. لذا تبقى وسيلتان هما: إما جرجرة المحسنات اللفظية إلى أرفع قدر ممكن، واكساب الضعف القوة، والتحدث بحماس عن أمور لا تتضمن نفسها الحماس، وعندئذ يكون حشد المعجبين وحشد الناس إلى جانبه، ومع النقود، وأما أن يخلص المرء لحقيقة واحدة هي أن يكون ربيعاً حيثما تتطلب الرفعة ذلك، وأن يكون حاداً وجريئاً حيثما تكون الحدة والجرأة حقيقية، وان يجنح إلى الطمأنينة والهدوء حيثما لا يكون الحدث ساخناً. ولكن في هذه الحالة نقول وداعاً لجمهور الدهماء! إذ لن يكون له وجود لديه. هذا الا عندما يكون الموضوع الذي يتناوله عظيماً وحاداً لدرجة بحيث يثير حتماً الحماس العام. ولم يقع اختيار الشاعر على الوسيلة الاولى، لأنه أراد ان يبقى شاعراً لأنه يتوفر فقط لدى كل من يتحسس لديه شرارة

الموهبة الفطرية المقدسة موقف دقيق لا يسمح له بضياغ موهبته بهذه الوسيلة. ولن يماري أحد بأن ابن الجبل المتوحش بزيه الحربي حر كالحرية، وهو بالنسبة لنفسه القاضي والسيد، يكون أكثر تألقاً من أي قاضٍ ما في المحكمة، وبالرغم من أنه يذبح عدوه، محتفياً في الوهدة، أو يضرم النار في قرية بأكملها، فإنه يثير الإعجاب لدينا أكثر، ويولد لدينا روح التعاطف بقدر أشد، من قاضينا الذي يرتدي الفراك البالي، الملوث بالتبغ الذي يحكم بلا براءة بالأدقاع على الكثير من مختلف الأقتان والأنفس الحرة، باستخدام المراجع والتعديلات القانونية. وهذا وذاك من الظواهر السائدة في عالمنا: ويجب ان يحصلنا على الحق في التمتع باهتمامنا، ولكن لسبب طبيعي جداً نرى ذلك بدرجة أقل، ويستثير خيالنا بقدر أشد دائماً، ونفضل غير العادي على العادي هو ليس إلا نتيجة عدم تبصر الشاعر - عدم التبصر حيال جمهوره الكبير العدد، وليس حيال نفسه. فهو لا يفقد شيئاً البتة من كرامته، وحتى ربما يكسب المزيد منها، لكن فقط في عيون الخبراء المتذوقين الحقيقيين. وأتذكر حادثة من أيام طفولتي. فقد كنت أتحمس دوماً رغبة صعبة صغيرة في ممارسة التصوير. وكنت أشغل فكري كثيراً في المنظر الطبيعي الذي أصوره، والذي تبدو في مقدمته شجرة يابسة. ويومذاك كنت أعيش في القرية، وكان الجيران القريبون بمثابة الخبراء والحكام على إبداعي. وقال لي أحدهم بعد أن تطلع الى اللوحة وهز رأسه: «رسام المناظر الطبيعية الجيد يختار الشجرة النامية والطيبة التي تكون فيها الأوراق يانعة، ونامية بصورة جيدة، وليست جافة». وفي طفولتي بدا لي محزناً سماع مثل هذا الحكم، لكن فيما بعد استخلصت منه الحكمة هي: معرفة ما يعجب الجمهور وما لا يعجبه. وأعمال بوشكين التي تنبض بأنفاس الطبيعة الروسية لديه، هي هادئة ووديدة كالطبيعة الروسية. ولا يمكن أن يتفهمها تماماً إلا من تتسم روحه

بالعناصر الروسية الخالصة، ومن روسيا وطنه، الذي انتظم ونما بركة في الأحاسيس، والقادرة على إدراك الاغاني الروسية والروح الروسية اللتين تبدوان غير متألفتين لأول وهلة.

لأنه كلما كانت المادة عادية تتطلب أن يكون الشاعر أكثر سموا ورفعة بغية أن يستنبط منها ماهو غير مألوف، ومن أجل ان يصبح الاعتيادي غير المألوف هذا، وبالمناسبة، يصور الحقيقة الكاملة. فهل جرى تقييم آخر لأشعاره بعدالة؟ وهل قيم وفهم أحدا ما مسرحية « بوريس جودونوف»، هذا العمل الرفيع والعميق، الذي أبدع بشاعرية داخلية منيعة، يرفض كل ماهو غليظ ومزوق، والذي يتطلع اليه الجمهور عادة؟ على أقل تقدير إن الصحافة لم تعط اي تقييم صائب لها، وبقيت حتى اليوم من دون التطرق اليها.

إن بوشكين يبدو في أعماله الصغيرة، وفي هذه الإثنولوجيا الرائعة، متعدد الأبعاد بصورة غير عادية، وهو أكثر سعة ورحابة من أشعاره. وتبهر الابصار بعض هذه الأعمال الصغيرة، ولا يستطيع أي فرد فهمها، وتبدو عادية بالنسبة الى الجمهور الواسع. وبغية أن يتيسر فهمها يجب ان يتسم المرء بحساسية شم دقيقة للغاية، وأن يتوفر لديه ذوق أسمى من ذلك الذي يستطيع فهم السمات الحادة والكبيرة فقط. ويجب أن يكون المرء بقدر ما شخصاً مترفاً غارقاً في الملذات شبع منذ وقت بعيد بالماكولات الفاخرة الغليظة والثقيلة، وأكل من لحم الطير بقدر لا يزيد عن حجم الكشتبان وتلذذ بتناول أكلة تبدو غير محددة المعالم وغريبة وبدون أية توابل، - فهو اعتاد إتهام الطعام الذي يعده الطباخ القن. إن مجموعة أشعاره القصيرة هي سرب من اللوحات التي تخطف الأبصار. إنه ذلك العالم النير الذي تنبجس فيه سمات عرفت لدى القدماء فقط، وحيث يجري

تصوير الطبيعة بحيوية، كما في مجرى غدير فضي ما، تنبثق فيه بسرعة وبشكل ساطع أكتاف تبهر البصر. أو أذرع بيض، أو رقبة جبسية بيضاء، ترفلت ليلاً بخصلات مجمدة قائمة، أو عناقيد عنب شفافة، أو أغصان الآس وظلال الأشجار، التي خلقت من أجل الحياة. ويتوفر هنا كل شيء: المتعة والبساطة وسمو الفكر اللحظي، الذي يترفل بغتة بالبرودة العذبة لإلهام القارئ. ولا يوجد هنا سيل من الألفاظ المزوقة، التي تلهي القارئ فقط بكثرة الألفاظ، وتوجد فيه كل عبارة فقط لأنها ترتبط بعبارات أخرى وتخدم سقوط الكتلة بأسرها، ولكن إذا ما فصلت عنها تصبح ضعيفة وواهنة. وهنا لا توجد الفصاحة اللفظية، بل يوجد هنا الشعر وحده: بلا أي تزويق شكلي، وكل ما فيه بسيط، ولائق، وكل شيء مترع بالألق الدفين، الذي لا ينكشف فجأة، وكل شيء مقتضب، وهو ما يتميز به الشعر الخالص دوماً. الكلمات قليلة لكنها دقيقة جداً مما يجعلها تجسد كل شيء. وفي كل كلمة لجة الفضاء، وكل كلمة واسعة الباع كالشاعر. ومن هنا يحدث أن تقرأ هذه الأعمال الصغيرة عدة مرات، في حين أن هذه الخصال مفقودة في الأعمال التي تتراءى فيها فكرة رئيسية فقط.

إنني كنت دوماً أستغرب لدى سماع التقييمات حولها من قبل الجهابذة والأدباء ذوي الصيت الذين كنت أثق بهم لحين سماعي أقوالهم بهذا الشأن. ويمكن اعتبار هذه الأعمال الصغيرة حجر الإختبار الذي يمكن بواسطته اختبار الذوق والحس الجمالي للنقاد حين يتناولها بالتقريظ. هذا أمر لا يدركه العقل! فقد بدا أنها لا يمكن ألا تكون مفهومة للجميع! فهي بسيطة ومتزنة وساطعة وملتهبة، وممتعة، وفي الوقت نفسه ذات نقاوة طفولية. فكيف لا يمكن فهمها! لكن، وأسفاه، ثمة حقيقة دامغة لا تقبل الجدل، هي أن الشاعر كلما

ازدادت شاعريته، وكلما صور بقدر أكبر المشاعر المعروفة للشاعر وحده، تتقلص بشكل ملموس دائرة جمهوره الملتف حوله، وفي نهاية المطاف تصبح ضيقة، بحيث يمكن ان يعد على الأصابع عدد متذوقيه الحقيقيين.

(كتب غوغول هذه المقدمة لأحد دواوين بوشكين الصادرة في روسيا بعد مصرعه الفاجع - المترجم)

رحلة الى ارضروم في زمن الحملة العسكرية لعام
١٨٢٩

مقدمة

منذ فترة قريبة وقع بين يدي كتاب نشر في باريس في عام ١٨٣٤ الماضي تحت عنوان-«رحلات إلى الشرق بتكليف من الحكومة الفرنسية»^(٢). وقد اختتم المؤلف حديثه لدى وصف الحملة العسكرية لعام ١٨٢٩ بالكلمات التالية:

أحد الشعراء ذو الخيال الباهر وجد في الأحداث المجيدة التي شهدتها موضوعاً ليس لقصيدة بل لقطوعة هجائية ساخرة (ساتيرا) (بالفرنسية)

لم أكن أعرف من بين الشعراء الذين شاركوا في الحملة العسكرية التركية سوى أ.س. خوميالكوف وأ.ن. مورافيوف. وكان الإثنان ضمن جيش الكونت ديبيتش. وقد نظم الأول آنذاك عدة قصائد ليريكية رائعة، بينما كتب الآخر تأملاته حول الرحلة إلى الأماكن المقدسة، والتي تركت لديه انطباعات قوية جداً. لكنني لم أقرأ أية ساتيرا عن الحملة العسكرية إلى ارضروم.

ولم أكن أعتقد البتة أن الحديث يدور عني في الكتاب الآنف الذكر لولا انني وجدت إسمي بين أسماء جنرالات لواء القوقاز المستقل.

برز بين القادة الذين تولوا قيادته (جيش الأمير باسكيفتشس) الجنرال مورافيوف... والأمير الجورجي جيغيفادزه.. والأمير الارمني بيبوتوف... والأمير بوتيومكين، والجنرال رايفسكي واخيراً السيد بوشكين.. الذي غادر العاصمة من أجل التغني بمآثر أبناء وطنه. (بالفرنسية)

2. *Voyages en Orient entrepris par ordre du Gouvernement Francais.*

ولابد من الإعراف بأن هذه السطور التي كتبها الرحالة الفرنسي، بالرغم من عبارات المديح قد أزعجتني أكثر من النقد الجارح لأعمالي في المجالات الروسية. إذ أنني كنت دائما أعتبر البحث عن الإلهام نزوة غريبة مضحكة وسخيفة: فالمرء لا يبحث عن الإلهام، بل يجب ان يأتي الى الشاعر بحد ذاته. والذهاب الى الحرب بغية التغني بالمآثر القادمة كان يعني بالنسبة إليّ، من جانب، تجسيدا للغرور المفرط، ومن جانب آخر أمرا غير لائق جدا. وأنا لا أتدخل في الامور العسكرية. فهذا ليس من عملي. ولربما أن الزحف الناجح عبر جبال ساغان-لو، والتحرك الذي قام فيه الكونت باسكيفتش بعزل القائد العام التركي عثمان-باشا، وإلحاق الهزيمة بلوائين للعدو خلال يوم واحد، وبالتقدم السريع نحو ارضورم، كان قد تم بنجاح تام. هذا كله ممكن أن يثير الضحك التام لدى العسكريين (وعلى سبيل المثال القنصل التجاري فونتانيه، مؤلف كتاب «رحلة الى الشرق»). لكنني كنت سأشعر بالخجل لو كتبت مقالات ساخرة عن قائد عسكري شهير، منحني عطفه بأيوائي تحت خيمته، ووجد الوقت وسط مشاغله الكثيرة للعناية الحانية بي. الرجل الذي لا يحتاج الى حماية الأقوياء، بينما يعتز بترحابهم وكرم ضيافتهم، لأنه لا يمكن أن يطلب منهم شيئا آخر. ولابد من الإعتراض على اتهامه بالجحود كما في النقد المتذلل أو الشتائم الأدبية. لهذا السبب قررت أن أنشر هذه المقدمة واقدم يوميات رحلتي، شأنها شأن جميع ما كتبته حول الحملة العسكرية لعام ١٨٢٩.

أ. بوشكين

الباب الاول

البراري. الخيمة الكالمكية. مياه القوقاز. طريق جورجيا العسكري. فلاديقوقاز. جنازة اوسيتية. تيريك. فج داريال. عبور الجبال الملقبة بالثلوج. أول نظرة على جورجيا. أنابيب المياه. خوزريف-ميرزا. عمدة دوشيت.

.. توجهت من موسكو الى كالوغا وبيليف واوربول، وبهذا قطعت مسافة تربو على ٢٠٠ فرست^(٣)، بيد أنني إلتقيت يرمولوف. فهو يقطن في اوربول حيث توجد قرينه قريباً منها. وصلت اليه في الساعة الثامنة صباحاً فلم أجده في البيت. وقال لي الحوذي سائق عربتي أن يرمولوف لا يزور أحداً بإستثناء والده، الشيخ الورع البسيط، وأنه يستقبل ليس موظفي المدينة فقط، بل كل من هب ودب. وبعد مضي ساعة عدت إليه مجدداً. وقد استقبلني يرمولوف بما عرف به من رحابة صدر. ومنذ النظرة الأولى لم أجده فيه أي شبه بلوحات البورتريه التي يبدو فيها بالبروفيل المعهود. فوجهه دائري وعيناه رماديتان، ناريتان، وشعره يخوطه الشيب ومنتصب. لديه رأس نمر فوق جسد هرقل. وابتسامته غير لطيفة لأنها مصطنعة. وعندما يستغرق في التأمل ويعبس يصبح وسيماً ويشبهه لحد كبير اللوحة الشعرية التي رسمها

٣. ملاحظة: الفرست مقياس روسي قديم للطول يعادل ١,٠٦٦٨ متر- المترجم

الفنان دوف. كان يرتدي قفطاناً شركسياً أخضر. وعلقت على جدران غرفة مكتبه السيوف والخناجر، وأشياء تذكارية تتعلق بفترة توليه مناصب السلطة في القوقاز. وأظن انه يشعر بنفاد صبر من حياته العاطلة عن العمل. وتحدث عدة مرات عن باسكفيتش بتهمك دائماً، وتحدث عن السهولة التي حقق فيها انتصاراته وشبهه بنافين، الذي كانت الأسوار تتساقط أمامه بفعل صوت النفير، وسمى كونت ايريفان بكونت اريحا.

وقال يرمولوف «وإذا قام بالهجوم على باشا غير ذكي، وغير متمرس وحاذق، لكنه عنيد فحسب، مثل الباشا الذي يقود العساكر في شوملا - فعندئذ سيضيع باسكفيتش». ونقلت الى يرمولوف قول الكونت تولستوي أن باسكفيتش أبلى بلاء حسناً جداً في الحملة الفارسية، بحيث أنه لا يتبقى للرجل الذكي سوى العمل بصورة أسوأ، بغية أن يختلف عنه. فضحك يرمولوف، لكنه لم يوافق على ذلك، وقال: «كان من الممكن ان يصون الأفراد ويقلل من الخسائر». وأعتقد أن يرمولوف يكتب أو يريد كتابة مذكراته. وهو غير راض عن «تاريخ» كارامزين. وكان يود أن يصور قلمه السيال انتقال الشعب الروسي من الضعة والذل الى المجد والجبروت. وتحدث عن مذكرات الأمير كوربسكيحماس. بينما انهال على الألمان بالتوبيخ. فقال «بعد ٥٠ عاماً سيعتقدون بأنه ساعد في هذه الحملة الجيش البروسي أو النمساوي بقيادة جنرالات ألمان ما». وأمضيت لديه قرابة ساعتين. وأبدي أسفه لأنه لم يتذكر إسمي الكامل. واعتذر بكيل المديح لي. ودار الحديث عدة مرات عن الأدب. وقال عن قصائدغريويدوف أنه يصاب بالصداع لدى قرائتها. ولم يذكر كلمة واحدة عن الحكومة او السياسة.

كان يجب علي مواصلة رحلتي بالمرور عبر كورسك وخاركوف، لكنني عرجت على طريق تفليس المباشر، وضحيث بغداد طيب في إحدى حانات كورسك (وهو أمر لا يخلو من لذة في رحلاتنا) ولم أتمتع بزيارة جامعة خاركوف التي لا تعادل زيارة المطاعم في كورسك.

كانت الطرق حتى مدينة ايلتسا فظيعة. وانغرتست عربتي عدة مرات في الأوحال الشبيهة بأوحال اوديسا. ولم أكن اقطع في اليوم مسافة تربو على الخمسين فرستا. وفي نهاية المطاف انداحت أمام ناظي براري فورونيج وانطلقت بحرية في السهول الخضراء. وفي نوفوتشير كاسك وجدت الكونت بوشكين الذي كان متوجها الى تفليس أيضا، واتفقنا على مواصلة الرحلة سوية.

إن الإنتقال من أوروبا الى آسيا يغدو محسوساً من ساعة الى أخرى: فاختفت الغابات، واستويت التلال، وأصبح العشب أكثر كثافة ويعتبر من النباتات الأكثر قوة. وظهرت طيور لا وجود لها في غاباتنا، وتربض العقبان فوق التتوات الصغيرة التي تشير الى الطريق الرئيسي، كما لو أنها تقوم بحراستها، وتتطلع بكبرياء نحو المسافر. وفي المراعي حيث الأعشاب الريانة تتجول الأفراس الجامحة في القطعان بإعتزاز وفخر.

يرابط الكالميكيون بالقرب من الاكواخ في المحطة. وترعى عند خيامهم جيادهم القبيحة الشعثاء، المعروفة لدى القارئ من رسومات اورلوفسكي الرائعة.

منذ أيام زرت إحدى الخيام الكالميكية (تتألف من هيكل أعواد مظفورة وفوقه غطاء من اللباد الأبيض). وكان قد اجتمع شمل كافة

أفراد الأسرة لتناول طعام الإفطار. وفي الوسط كان يغلي الطعام في قدر. وتساعد الدخان نحو فتحة في أعلى الخيمة. وانهمكت فتاة كالميكية مليحة في الخياطة وهي تدخن التبغ. فجلست الى جانبها. « ما إسمك؟ » - « » - « ما عمرك؟ » - « عشرة وثمانية ». - « ماذا تخططين؟ » - « سراويل ». - « لمن؟ » - « لنفسي ». - وأعطتني غليونها وبدأت بتناول الفطور. كان الشاي يغلي في القدر مع شحم الضأن والملح. وقدمت لي قدحها. ولم أرد ان أرفض واحتسيت ما فيه دفعة واحدة ساعياً الى عدم الإختناق. ولا أعتقد أن أي مطبخ شعبي يمكن أن يصنع وجبة ما مقرفة أكثر من هذه. وطلبت تقديم شيء ما أضيفه اليه. فأعطوني قطعة لحم حصان مقدد، وكنت مسرورا بذلك. وأثار التخنج الكالميكى خوفاً، فأسرت بمغادرة الخيمة وانصرفت مبتعداً عن تسيرتسيا الواقعة وسط السهوب.

وفي ستافروبل شاهدت في أطراف السماء سحباً كانت قد أذهلت بصري منذ تسعة أعوام بالضبط. وبدا كما لو أنها بقيت في مكانها هناك. إنها الذرى الثلجية لسلسلة جبال القوقاز.

توجهت من غيورغيفسك إلى غورياتشيه فودي (الينابيع الساخنة). وهناك وجدت تغيرات كبيرة. ففي زماني كانت الحمامات موجودة في خصص بنيت على عجل. علماً أن غالبية الينابيع بقيت في وضعها الأصلي، وتدفق منها المياه، ويتصاعد البخار، وتجري السحب من الجبال في مختلف الاتجاهات تاركة ورائها آثاراً بيضاء مشوبة بالحمر. وكنا نعرف الماء من قدح صنع من جذر شجرة أو قعر قنينة مكسورة. أما الآن فقد شيدت حمامات رائعة وبيوت. وينحدر البولفار الذي غرست فيه أشجار الزيزفون نحو ماشوكا. وبدت في كل مكان الطرق النظيفة، والأكشاك الخضراء، وجنائن

الزهور المستقيمة، والجسور والمتاجر. وتم فصل الينابيع ورصفت حولها الأحجار، وعلقت على الجدران تعليمات الشرطة، وساد في كل مكان النظام والنظافة والرونق...

ولا بد من الإعتراف بأن مياه القوقاز تتوفر فيها وسائل الراحة أكثر، ومع ذلك شعرت بالحنين الى وضعها البدائي الوحشي سابقا، وشعرت بالأسف لزوال الممرات الحجرية الشديدة الانحدار، والشجيرات والأخاديد من دون سياج والتي كنت أتدحرج فوقها أحيانا. وتركت المياه حزينا وعدت راجعا إلى غيورغيفسك. وسرعان ما خيمت على المكان عتمة الليل. وتألقت ملايين النجوم في المساء الصافية. كنت أمشي على ضفاف نهر بودكوميكا. وحدث هنا أن قضيت بعض الوقت مع أ. رايفسكي واصغيت إلى أنغام خرير المياه. وانجس أمامي بعيدا جبل بيشتو فيليتشافي الهائل، وصار يزداد سوادا أكثر فأكثر في الأفق البعيد، المحاط بالجبال، وبضياح الإقطاعيين، وفي نهاية المطاف اختفى وسط الظلام..

في اليوم التالي واصلنا السفر حتى بلغنا مدينة يكاترينوغراد، التي كانت سابقاً مقر حاكم الإقليم.

يبدأ من يكاترينوغراد طريق جورجيا العسكري، وينتهي الطريق البريدي. ووجب تبديل الخيل في فلاديقوقاز. ووفر لمرافقتنا حرس من القوقاز والمشاة ومدفع واحد. علماً أن البريد ينطلق مرتين في الأسبوع، وينظم إليه المسافرون ويسمى ذلك بـ «او كازيسي». لم نتظر طويلاً. فقد جاء البريد في اليوم التالي. وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم الثالث كنا مستعدين للسفر. وتحشدت في مكان التجمع القافلة كلها المؤلفة من خمسين شخصاً أو حوالي ذلك. وبدأ قرع

الطبول، فتحركنا. وفي المقدمة سار المدفع وحوله الجنود من المشاة. وانطلقت بعده عربات نقل الحمولات والعربات الخفيفة والعربات المغلقة لزوجات الجنود الذين يتنقلون من قلعة الى أخرى، ثم أعقبها عربات الحمل ذات العجلتين مطلق الصرير. بينما سارت على الجانبين أسراب الخيل وقطعان الثيران المخصية. وانطلق خبياً بالقرب منها المرشدون من قومية ناغاي وهم يرتدون عباءات من الوبر ويحملون الأوهاق (السياط). إن هذا كله قد أثار إعجابي في البداية لكن سرعان ما تولد لدي السأم. كان موكب المدفع يسير بخطى وثيدة ويتصاعد الدخان من فتيله، بينما كان الجنود يشعلون غلاينهم منه. وضاق صبري في نهاية الأمر من بطئ مسيرتنا (قطعنا في اليوم الأول مسافة خمسة عشر فرستا فقط)، وعانينا من الحر القائظ الذي لا يطاق، وعدم كفاية المؤونة، والتوقف للمبيت المترع بالقلق، وأخيراً هناك الصرير المتواصل لعربات الناغاي. إن التار يعتزون بهذا الصرير، ويقولون أنهم يسافرون كناس شرفاء، ولا يحتاجون إلى التخفي عن أحد. وبالنسبة لي كان سيسعدني أكثر لو أنني سافرت مع رهط غير هذا الرهط المحترم. وكان الطريق ذا مشاهد رتيبة: السهول وفي الجانبين التلال. وفي أطراف السماء تبدو ذرى القوقاز، التي صارت تعلق أكثر فأكثر يوماً بعد يوم. والقلاع كثيرة في هذه الأنحاء، وحولها خنادق كان يستطيع أي واحد منا في أيام زمان اجتيازها دونما حاجة الى القفز فوقها، وفيها مدافع علاها الصداً ولم تطلق منها النيران منذ أيام الكونت غودوفيتش، وحولها أيضاً سدود منهارة تجول فيها حامية من الدجاج والأوز. وتوجد في القلاع عدة مرايض يمكن الحصول منها بعسر على عشرات البيوض واللبن الحامض.

كانت قلعة «المنارة» أول مكان ممتاز. وبغية الإقتراب منها سارت

قافلتننا في طريق رائع وسط تلال تغطيها أشجار الزيزفون والدلب. وهناك مقابر الآف الموتى من المصابين بالطاعون. وتألقت فيها الزهور التي نبتت في التربة الملوثة بالوباء. ومن الجهة اليمنى تعالت جبال القوقاز المجللة بالثلوج، بينما انتصب أمامنا جبل هائل تغطيه الأشجار، وخلفه وجدت القلعة المنشودة. وبدت حوايلها آثار قرية طالها الخراب إسمها تثار-توب كانت في زمن ما أكبر قرية في منطقة جبال قبردا الكبرى. وتدل المنارة الرفيعة المنفردة على الحياة في القرية التي زالت من الوجود. إنها تنتصب برشاقة بين أكوام الحجارة على ضفة جدول جف ماؤه. وصعدت إليها حتى بلغت الطارمة التي لم يعد ينطلق منها صوت المؤذن. وعثرت هناك على عدة أسماء مجهولة كتبها رحالة باحثون عن الشهرة بالكتابة على الطوب.

أصبح طريقنا أكثر جمالاً وبهاء. وانداحت الجبال أمامنا. وكانت بالكاد ترى في قممها قطعان الأغنام التي تبدو كالحشرات. واستطعنا تمييز الراعي، ربما هوروسي، وقع في زمن ما في الأسر ودبت فيه الشيوخوخة وهو في الأسر. كما واجهتنا التلال وكذلك الخرائب. وعلى جانب الطريق رأينا اثنين أو ثلاثة من شواهد القبور. وعادة يدفن الشركس الموتى من فرسانهم هناك. وترك أحفادهم المتوحشون نقوشاً على الحجر تخليداً لذكرى أسلافهم المتوحشين منها كتابات باللغة التتارية ورسوم سيوف وعلامة تانجا.

إن الشركس يكرهوننا لأننا أبعدهم عن المراعي الفسيحة، وأنزلنا الخراب في قراهم، وأبيدت قبائل عن بكرة أبيها. إنهم يتوغلون ساعة بعد ساعة في الجبال ومن هناك يشنون هجماتهم. ولا أمل في كسب صداقة الشركس المسلمين فهم على استعداد دوماً لنصرة أبناء جلدتهم الجامحين. لكن روح فروسياتهم الوثابة قد انحسرت بشكل ملحوظ.

إنهم نادراً ما يهاجمون مجموعة قوزاق تماثلهم في العدد أو مجموعة من المشاة ويهربون حالما يرون المدفع. بيد أنهم لا يفوتون أبداً الفرصة للهجوم على فصيل ضعيف أو من يمضي بلا حماية. وفي هذه الأصقاع تتردد كثيراً الشائعات حول أفعالهم الشريرة. ولا توجد تقريباً وسيلة لترويضهم غير نزع سلاحهم، كما جرى نزع سلاح تثار القرم، وهو أمر يصعب تحقيقه، بسبب الشقاق الموروث بينهم، وروح طلب الثأر بإراقة الدم. والخنجر والسيف يعتبران من أعضاء أجسادهم، ويبدأ الطفل بإتقان استخدامهما قبل أن يتقن الكلام. والقتل لديهم مجرد حركة للجسد. إنهم يحتفظون بالأسرى أملاً في كسب الفدية، لكنهم يعاملونهم معاملة لا إنسانية فظيعة، ويجبرونهم على العمل فوق طاقتهم، ويطعمونهم العجين غير المشوي وينهالون عليهم بالضرب متى ما يحلو لهم، ويكلفون صبيانهم بحراستهم، ويمنحونهم حق طعنهم بسيوفهم الطفولية لأتفه الأسباب. ومنذ فترة قريبة ألقى القبض على شركسي مسالم أطلق النار على جندي. وقد برر ذلك بأن بندقيته كانت محشوة خلال فترة طويلة جداً. فما العمل مع مثل هؤلاء الناس؟ ولا بد لنا من الأمل في أننا بعد سيطرتنا على القسم الشرقي من البحر الأسود، وعزل الشركس عن التجارة مع تركيا، يمكن أن نرغمهم على التقارب معنا. إن تأثير حياة الترف يمكن أن يساعد على ترويضهم: والسماور قد يكون ابتكاراً جديداً هاماً. وهناك وسيلة أشد، وأكثر أخلاقية، وتلائم أكثر نزع التنوير في عصرنا هي « التبشير » بواسطة الإنجيل. إن الشركس اعتنقوا العقيدة المحمدية منذ فترة قريبة جداً. وقد سيطر عليهم التعصب الشديد لدعاة التبشير بالقرآن، وبرز من بينهم الشيخ منصور، الرجل غير العادي الذي أثار الفتن في القوقاز خلال فترة طويلة ضد السيطرة الروسية، وفي نهاية المطاف ألقينا القبض عليه وتوفي في دير سولوفكي. إن

القوقاز بانتظار المبشرين المسيحيين. لكن يبدو من الأيسر بالنسبة إلى كسلنا أن نعوض الكلمة الحية بالحروف الميتة وأن نرسل الكتب الخرساء إلى أناس لا يعرفون القراءة والكتابة.

بلغنا فلاديقوقاز، كابكاي سابقاً، الواقعة عند سفوح الجبال. أنها محاطة بالقرى الأوسيتينية، وقد زرت واحدة منها فوجدت نفسي في جنازة. وقد تحشد الناس بالقرب من بيت المتوفي. وفي الباحة وقفت عربية يجرها ثوران. وسار أقارب واصدقاء المتوفي من مختلف الأنحاء وهم يطلقون النحيب بصوت عال، ويلطمون جباههم بقبضات أيديهم. أما النساء فقد وقفن صامتات. وحمل المتوفي فوق عباءة من اللباد (بوركا)..

... like a warrior taking his rest

With his martial cloak around him⁽⁴⁾..

ووضعوا جثمانه على العربة. وتناول أحد الضيوف بندقية المتوفي، ونفخ منها البارود ثم وضعها بالقرب من الجثمان. إنطلق الثوران. وسار الضيوف خلف العربة. وكان الواجب أن يدفن الجثمان في الجبال في مكان يبعد قرابة ٣٠ فرستا عن القرية. وللأسف لم أجد من يفسر لي هذه الطقوس.

علماً أن الأوسيتيين من أفقر الشعوب القاطنة في القوقاز، ونساؤهم حسناوات، وكما تناهى إلى سمعي فإنهن يبدن اللطف إزاء المسافرين. وعند بوابة القلعة إلتقيت زوجة وابنة أحد السجناء الأوسيتيين. كانتا تحملان إليه الطعام. وتراءى لي أنهما هادئتان وجريئتان، لكنهما حالما

٤. كالمقاتل الراقد للراحة في وشاحه العسكري (بالانجليزية).

رأنا مقدمي أطرقنا برأسيهما وغطينا رأسيهما بالحجاب المؤلف من أسمال. ورأيت في القلعة الرهائن (الأمانات) الشركس، وهم فتيان يتسمون بالرشاقة والوسامة. وتجدهم في كل لحظة ينطلقون في العبث والجري الى خارج القلعة. ويجري احتجازهم في وضع بائس. وتراهم يرتدون الأسمال وهم شبه عرايا وتعلوهم الوساخة. ورأيت بعضهم مكبلين بقيود خشبية. ويبدو أن الرهائن الذين يطلق سراحهم فيما بعد لا يأسفون على فترة وجودهم في فلاديقواز.

تركنا المدفع ومضى في اتجاه آخر. وواصلنا المسيرة مع المشاة والقوزاق. واحتضننا القوقاز في معبده. وسمعنا ضجيجا خافتا ورأينا نهر تيريك الذي يجري في مختلف الاتجاهات.. وصرنا على ضفته اليسرى. إن امواجه الصاخبة تحرك دواليب الطواحين الأوسيتية المنخفضة التي تشبه زرائب الكلاب. وكلما تعمقنا في الجبال يغدو الفج أكثر ضيقا. ويقذف تيريك المحاصر أمواجه العكرة عبر الصخور، التي تقف حائلا في طريقه. ويغدو الفج متعرجاً على امتداد مجراه. وشحذت الأمواج السفوح الصخرية للجبال. وكنت أوصل المشي واتوقف بين الفينة والفينة وأنا أعجب لجمال الطبيعة الرائع القاتم. كان الجو غائما، وامتدت السحب ثقيلة فوق الذرى السود. وعندما تطلع الكونت بوشكين وشيرنغال الى تيريك عادت الى ذاكرتيهما المدينة الفنلندية ايماترا واعطيا التفوق الى النهر الصاخب في الشمال. لكنني لم أستطع مقارنة المشهد المائل أمامي بأي شيء.

وقبل أن نصل الى لارس تخلفت عن القافلة وأخذت أتطلع الى الصخور الهائلة التي يتدفق تيريك بينها بعنف يصعب تفسيره. وبغته هرع الى جندي صارخاً من بعيد: «لا تتوقف يا صاحب السعادة، سيقتلونك!». وبدا هذا التحذير لي غريبا للغاية بسبب عدم الإعتياد.

و بمجل القضية أن قطاع الطرق الأوسيتيين، الذين يشكلون خطراً في هذا المكان الضيق، يطلقون النار على المسافرين عبر تيريك. وقد هاجموا في العشية قبيل عبورنا الجزائر بيكوفيتش الذي انطلق وسط وابل رصاصهم. وترى فوق الصخرة خرائب قلعة ما، إنها ملاصقة لبيوت الأوسيتيين المسلمين التي تبدو مثل أعشاش السنونو.

توقفنا في لارس للمبيت. ووجدنا هناك رحالة فرنسياً أخافنا من الطريق القادم. ونصحنا بأن نترك العربات في كوبي وأن نواصل المسيرة ركوباً على الجياد. وشربنا معه لأول مرة نبيذ كاخيتي من قرية كرية الرائحة، ذكرتنا بمأدبة الإلياذة:

كان النبيذ، بهجتنا، في قرية من جلد الماعز !

و وجدت هناك المسودة المخربشة لقصيدة «أسير القوقاز»، واعترف بأنني قرأتها بسرور بالغ. علماً أن هذا كله عمل ضعيف وفتي ومبتسر، لكن أكثرته قد تم تخمينه، والتعبير عنه بشكل صائب.

في صباح اليوم التالي واصلنا الدرب. وكان الأسرى الأتراك يعملون بتعبيد الطريق. وقد اشتكوا من رداءة الطعام المقدم لهم. ولم يستطيعوا البتة اعتياد تناول الخبز الأسود الروسي. وقد أعاد هذا لي ذكرى ما قاله صديقي شيريميتيف لدى عودته من باريس: «الحياة، يا أخي، صعبة في باريس: فلا يوجد ما يؤكل: وحتى الخبز الأسود غير موجود هناك».

يوجد جسر درايال على بعد سبعة فرسات عن لارس. والفتج يحمل الإسم نفسه. وتنتصب الصخور شامخة من الجانبين. وكتب أحد الرحالة أن المكان هناك ضيق وضيق بحيث أن المرء يرى ليس فقط

ضيق المكان، بل ويتحسسه أيضا كما يبدو. وتظهر فوق رؤوسنا قطعة من السماء كالشريط. أما روافد الشلالات المتساقطة من أعالي الجبال بسيول صغيرة ومتطايرة فقد ذكرتني باختطاف غانيمادس، وبلوحة رمبراندت الغريسة. زد على ذلك أن إنارة الفج تتم وفق ذوقه تماما. وفي بعض الأماكن يغسل تيريك أسفل الصخور، وكذلك الأحجار المتراكمة بهيئة سد في طريقه. وأقيم بالقرب من نقطة الحراسة جسر فوق النهر بجسارة. وحين تقف فوقه يبدو كما لو كنت فوق طاحونة. إن الجسر يهتز كله، أما تيريك فيطلق ضجيجا شبيهاً بضجيج العجلات التي تدير فردتي حجر الطاحونة. وترى خرائب قلعة فوق صخرة شديد الانحدار مقابل داريال. وتحكي الأساطير أنه كانت تتخفى فيها قيصة إسمها داريا، ومنها أطلقت التسمية على الفج: إنها حكاية. إن كلمة داريال باللغة الفارسية القديمة تعني البوابة. وبشهادة بليوس فإن بوابة القوقاز، التي تسمى خطأ بوابة قزوين، كانت توجد هنا. ويغلق الفج بواسطة بوابة حقيقية، خشبية، ومؤطرة بسيور حديدية. وكتب بليوس أنه يجري تحتها نهر ديريو دوريس. وأقيمت القلعة هناك من أجل التصدي الى هجمات القبائل المتوحشة، وهلمجرا. (راجع رحلة الكونت ا. بوتوتسكي الذي تعتبر طروحاته العلمية ذات قيمة كبيرة مثل الروايات الإسبانية).

توجهنا من داريال الى كازبيك. فشهدنا بوابة الثالوث الأقدس) إنه قوس تولد من تفجير البارود في صخرة) - كان يمضي الطريق تحتها في وقت ما، أما الآن فيجري هناك نهر تيريك الذي يغير مجراه باستمرار.

بالقرب من قرية كازبيك عبرنا بيشينايا بالكا (العتبة المسعورة)، وهي وهدة، تتحول في أثناء تساقط الأمطار الغزيرة الى سيل عرمرم.

لكنها كانت في هذا الوقت جافة تماماً واسمها فقط ينم عن سمعتها الصارخة.

تقع قرية كازبيك عند سفح جبل كازبيكو يمتلكها الأمير كازبيك. والأمير رجل في الأربعين من العمر وقامته أطول من قامه ضابط في فرقة بريابورجينسكي. ووجدنا في «الدخان»، (تطلق هذه التسمية على الحانات الجورجية الأكثر فقراً والأقل نظافة من الحانات الروسية). ووضعت عند المدخل قرية من جلد الجاموس تنتصب منها سيقانها الأربع. ومد الرجل العملاق يده في القرية واغترف منها نيذ (تشبخير) وطرح عليّ عدة أسئلة أجبت عنها بإحترام يتناسب مع مقامه وطول قامته. واقتربنا كصديقين حميمين كبيرين.

وسرعان ما زالت الإنطباعات وخدمت. فحالما مضى يوم واحد لم يعد يجذب اهتمامي هدير تيريك وشلالاته الشنيعة، وكذلك المنحدرات والوهاد. وتملكتني حصرا الرغبة بصبر نافذ في بلوغ تقليس. ومضيت منطلقاً بلا مبالاة بمحاذاة جبل كازبيك كما مضيت من قبل بمحاذاة تشاتيرداغ. حقاً أن الجو الممطر والضباب حالاً دون رؤيتي لذروته المغطاة بالثلوج، وكما قال الشاعر، التي تناطح السماء.

إنتظرنا مجيء الأمير الفارسي. فقد التقينا بالقرب من كازبيك عدة عربات سدت الطريق الضيق. وفيما كانت العربات تمر عبره أوضح لنا الضابط المرافق أنه يرافق شاعر البلاط الفارسي وقدمه لي بإسم فاضل - خان. وقابلته بمعونة المترجم بالترحيب في عبارات فخمة على عادة أهل الشرق، لكن لدهشتي وخجلي رد فاضل - خان على كلامي المنمق بعبارات بسيطة وذكية لإنسان محترم! وأعرب عن أمله في أن يلتقاني في بطرسبورغ، وعن رغبته في أن يتواصل التعارف بيننا

وهلمجرا. وقد اضطررت لئجلني الى تغيير لهجة التبجيل الهزلية والانتقال الى العبارات الأوروبية العادية. وهذا يمثل درسا يجعلنا نحن الروس أضحوكة للآخرين. وفي المستقبل لن أصدر حكمي على الإنسان انطلاقاً من قبته المصنوعة من فرو الضأن (باباخا)، بل من أظافره المطلية.

توجد نقطة الحراسة كوبي عند سفح جبل كريستوفايا الذي وجب علينا اجتيازه. فتوقفنا للمبيت هناك واخذنا نفكر بالكيفية التي نبحر بها متأثرنا الرهيب: هل نترك العربات ونمتطي جياد القوزاق أم نستدعي الثيران المخصية الأوسيتية؟ على أي حال أنني كتبت طلباً رسمياً بإسم القافلة كلها الى السيد تشيليايف المسؤول في تلك المنطقة، ورددنا للنوم بانتظار القرار.

في اليوم التالي وفي حوالي الساعة الثانية عشرة سمعنا ضجيجاً وصراخاً ورأينا مشهداً عجبياً: فقد كان ١٨ زوجاً من الثيران النحيفة والقصيرة، يسوقها رهط من الأوسيتيين الشبه عراة، تجر عنوة عربة خفيفة من طراز «فيينا» تابعة لصديقي «و». وقد أزال هذا المشهد فوراً جميع شكوكي. وقررت أن أعيد عربتي البطرسبورغية الثقيلة إلى فلاديقواز وأواصل الرحلة على صهوة الجواد الى تفليس. لكن الكونت بوشكين لم يرغب في الإقتداء بي. وفضل أن يربط قطعاً كاملاً من الثيران بعربته المحملة بشتى أصناف المؤونة، وأن يعبر معها ظافراً سلسلة الجبال المكسوة بالثلوج. فافترقنا وتوجهت مع العقيد اوغاريوف لمشاهدة طرق المنطقة.

كان الطريق يمتد عبر انهيلات الصخور التي حدثت فيونيو عام ١٨٢٧. وتحدث مثل هذه الأمور عادة مرة في كل ٧ أعوام. فقد

انهارت صخرة ضخمة، وغطت الوهدة لمسافة فرست كامل وسدت مجرى تيريك. وسمع رجال الحرس الواقفون في الأسفل قعقة رهيبة ورأوا كيف نقصت مياه النهر بسرعة وبعد مضي ربع ساعة توقف جريانها فيه ونضبت كلياً. ولم يشق تيريك مجراه عبر الإنهيال إلا بعد مضي ساعتين. إن ما حدث كان شيئاً رهيباً!

كنا نصعد المنحدرات الشديدة أعلى فأعلى. وكانت جيادنا تغوص في الثلوج الرخوة التي كان يسمع تحتها خرير الجداول. وطفقت اتطلع بعجب الى الطريق ولم أدر كيف يمكن السفر بالعربات.

ولحظتئذ سمعت قرقة مكتومة. وقال لي السيد اوغاريف: «أنه انهيال». وأتفت فرأيت جانباً أكوام الثلج المتساقطة والمنهالة ببطئ من المرتفع. إن الإنهيلات الصغيرة غالباً ما تقع هناك. وفي العام الماضي كان حوذي روسي يسير فوق جبل كريستوفايا، وانهالت كتلة ثلجية ضخمة رهيبة فوق عربته فابتلعته مع الحصان والحوذي الموجيه، ثم عبرت الطريق وانحدرت نحو الهاوية مع فريستها.

بلغنا قمة الجبل. وقد نصب هناك صليب من الجرانيت، وهو نصب قديم قام يرمولوف بتجديده.

وعادة يترجل المسافرون هنا من عرباتهم ويواصلون السير مشياً على الأقدام. ومنذ فترة قريبة كان يسافر هنا قنصل أجنبي ما: وكان من الضعف بحيث طلب أن تعصب عيناه، وأن يقاد من يديه، وعندما رفعت العصا به ركع وشكر الرب وهلمجراً، الأمر الذي اثار عجب مرافقيه كثيراً.

إن العبور الخاطف لجبال القوقاز الرهيبة والتوجه نحو جورجيا

الجميلة أمر يبعث على الإعجاب. فقد أخذ هواء الجنوب يغمر المسافر بدفنه فجأة. وبدا من ذروة جبلغوت - غورا وادي كاشاؤور ببيوته المأهولة وبساتين هوبنهر اراغفي المتألق الذي يمتد مثل شريط فضي، - وهذا كله يبدو بهيئة مصغرة على عمق هوة ارتفاعها ثلاثة فرسات، ويمر فيها الطريق الخطر.

هبطنا الى الوادي. وظهر في السماء الصافية هلال رفيع. وكان الهواء في المساء هادئاً ودافئاً. وأمضيت الليل على ضفة نهر اراغفي، في بيت السيد تشيليايف. وفي اليوم التالي افترقت عن صاحب البيت الطيب القلب وواصلت طريقي.

هنا تبدأ جورجيا. وديان مضيئة يرويها نهر اراغفي المرح بدلاً من الفجوج القائمة وتيريك المزجر. وبدلاً من الصخور العارية رأيت حولي الجبال المكسوة بالخضرة والأشجار المثمرة. وأثبت وجود أنابيب الماء هناك وجود التمدن. وقد أدهشني أحدها بكمال الخداع البصري: إذ يتراءى كما لو أن الماء فيه يصعد في الجبال من تحت إلى أعلى.

توقفت في بيساناور لغرض تبديل الخيول. وهناك إتقيت الضابط الروسي الذي كان يرافق الأمير الفارسي. وسرعان ما سمعت رنين الأجراس وانطلق في الطريق سرب من البغال المربوطة ببعضها البعض بالطريقة الآسيوية. وسرت مشياً على الأقدام من دون انتظار الجياد. فالتقيت خوزريف - ميرزا عند منعطف الطريق وعلى بعد نصف فرست من انانور. كانت عرباته واقفة هناك. بينما تطلع إلي من عربته وحياني بإيمانه من رأسه. وبعد مضي عدة ساعات من لقائنا هاجم أهل الجبل الأمير. وعندما سمع الأمير أصوات الرصاص خرج من عربته

وامتطى سهوة حصان وانطلق مبتعداً. وقد أثارته جرأته عجب الروس المرافقين له. ومجمل القضية أن الأسوي الشاب الذي لم يألف الجلوس في العربة اعتبرها في أغلب الظن مصيدة أكثر من ملاذ له.

وصلت إلى انانور دون أن اشعر بالتعب. ولم تصل جيادي إلى هناك بعد. وقيل لي أن المسافة إلى مدينة دوشيت لا تتجاوز عشرة فرسات، فتوجهت مرة أخرى في الطريق مشياً على الأقدام. لكنني لم أعرف أن الطريق يقود إلى الجبل. واصبحت العشر فرسات هذه تعادل عشرين فرساً.

حل المساء وأنا أمضي قدماً إلى الأمام صاعداً الجبل أكثر فأكثر. علماً أن المرء لا يمكن أن يضيع في هذا الطريق. ولكن وجدت في بعض الأماكن أوحالا طينية تصل حتى الركبتين. ومملكني الإرهاق تماماً. واشتدت العتمة. وسمعت صوت عواء ونباح كلاب، فابتهجت لاعتقادي أن المدينة باتت قريبة. لكنني أخطأت: فقد نبحت كلاب الرعاة الجورجين، بينما عوت الضباع، وهي من الوحوش المألوفة في ذلك المكان. ولعنت قلة صبري، لكن لم يكن في اليد حيلة. وأخيراً رأيت الأنوار وبحلول منتصف الليل بلغت البيوت التي تظللها الأشجار. واقتادني أول شخص ألقاه إلى العمدة وطلب مقابل ذلك إكرامية (اباز).

أثار ظهوري عند العمدة، وهو ضابط قديم من جورجيا، ردود فعل كبيرة. وقد طلبت، أولاً، غرفة حيث يمكن أن أخلع ملابسي، وثانياً، قدح نبيذ وثالثاً منح الإكرامية (اباز) إلى مرافقي. لكن الضابط لم يكن يعرف كيف يستقبلني، وصار يتطلع إلي بحيرة. وعندما رأيت أنه لا يسارع في تلبية طلباتي، بدأت أمامه بخلع ملابسي معتذراً

بالقول ^(٥) *de la liberte grand*. ولحسن الحظ وجدت في جيبي بطاقة تؤكد أنني مسافر مسالم ولست رينالدو-رينالديني^(٦). وتركت الورقة المباركة فوراً تأثيرها: فقد وفرت لي الغرفة وجلب لي قدح النبيذ ودفعت الإكرامية (الاباز) إلى مرافقي مع التعنيف الأبوي لجشعه الذي يشكل إهانة إلى كرم الضيافة الجورجي. فاستلقيت على الديوان أملاً في أن استغرق في النوم كالجبارة بعد ما أثرتي التي اجترحتها: لكن حدث أمر لم يكن في الحسبان! فإن البراغيث الأشد خطراً من الضباع هاجمتني طوال الليل ولم تتركني وشأني. وفي الصباح جاء إلي الخادم وأبلغني أن الكونت بوشكين عبر بالبالغ الجبال المغطاة بالثلوج بسلام ووصل إلى دوشيت. فما الذي دعاني إلى العجلة! وزارني الكونت بوشكين وشيريفال وعرضوا علي السفر معهما مجدداً. وغادرت دوشيت وراودتني فكرة طيبة بأنني سأمضي الليل في تفليس.

كان الطريق ظريفاً وجميلاً ولو أننا نادراً ما كنا نلقى آثار سكنى البشر. وعبرنا نهر كورو في موضع يبعد عدة فرسات عن غارتسيسكالا فوق جسر قديم، هو من آثار غزوات الرومان، ووصلنا إلى تفليس ماضين خيباً سريعاً، وأحياناً بالتقافز، حين بلغت الساعة الحادية عشرة من دون أن نلاحظ ذلك.

٥. لرفع الكلفة (بالفرنسية) - المترجم

٦. قاطع طريق ذاع صيته في القرن التاسع عشر بعد نشر رواية بهذا الاسم بقلم الكاتب الألماني كريستيان فولبيوس - (المترجم)

الباب الثاني

تفليس. الحمامات الشعبية. غسان الأجدع الأنف. العادات الجورجية. الأغاني. نبيذ كاخيتيا. أسباب الحر. الغلاء. وصف المدينة. مغادرة تفليس. ليلة جورجية. منظر ارمينيا. عبور مزدوج. قرية ارمينية. قلعة غير غيري. غريبويدوف. بيزوبدال. ينبوع المياه المعدنية. عاصفة في الجبال. المبيت في غومري. آارات. الحدود. كرم الضيافة التركي. كارس. اسرة ارمينية. مغادرة كارس. معسكر الكونت باسكيفتش.

توقفت للمبيت في نزل، وفي اليوم التالي توجهت إلى حمامات تفليس الذائعة الصيت. وبدأ لي أن المدينة مزدحمة بالناس. وذكرني البيوت الآسيوية الطراز والسوق بمدينة كيشينوف. وكانت سير في الشوارع الضيقة والمتوية الحمير وفوقها السلال، والعربات التي تجرها الثيران. وتحشد الأرمن والجورجيون والشركس والفرس في ميدان غير منتظم الشكل. بينما كان الموظفون الشباب الروس يتجولون بينهم على جياد قره باغية. وجلس عند مدخل الحمامات صاحبها وهو شيخ فارسي. وفتح لي الباب، فدخلت إلى غرفة واسعة فماذا رأيت؟ كان هناك ما يربو على خمسين امرأة، شابات وعجائز، شبه عرايا أو بهيئة (ربي كما خلقتني)، يقفن أو يجلسن وهن ينزعن الملابس

أو يرتدينها فوق مصطبات عند الجدار. فتوقفت. وقال لي صاحب الحمامات: «هيا، هيا، اليوم الثلاثاء، يوم النساء. لا بأس، فما هي بمصيبة». فاجبته: «طبعاً، إنها ليست مصيبة، بل بالعكس». ولم يترك ظهور رجل اي انطباع لدى النساء. فقد واصلن الضحك وتبادل الأحاديث. ولم تهرع أية واحدة منهن لتغطية نفسها بالحجاب، ولم تكف أية واحدة عن نزع ملابسها. وبدا كما لو أنني دخلت كرجل خفي. وكانت الكثيرات حسناوات حقا وبررن خيال توماس مور».

a lovely Georgian mail,

With all the bloom the freshen'd glow

Of her own country maiden's looks,

When warm they rise from Teflis' brooks.^(٧)

Lalla Rookh

يبد أنني لم أجد شيئاً أكثر بشاعة من العجائز الجيورجيات: فهن قبيحات وشريرات. إقتادني الفارسي إلى الحمامات: ثمة ينبوع من الماء الساخن الحديدي-الكبريتي يتدفق في حوض عميق حفر وسط صخرة. وأنا لم أر في روسيا أو في تركيا حمامات أكثر فخامة من حمامات تفليس. وسأتحدث عنها بإسهاب.

تركني الفارسي تحت وصاية الحماجي التتري. ولا بد من القول أنه كان بلا أنف، لكن هذا لم يقف حائلاً دون اتقانه لمهنته. وبدأ غسان (كان هذا إسم التتري الأجدع الأنف) بأن ألقاني فوق الأرض

٧. الحسنة الفتية الجورجية ذات الحمرة الساطعة وتورد الخدين... وهو ما يميز الفتيات في بلادهن، حين يخرجن حاميات من غدران تفليس (باللغة الإنجليزية) - المترجم

الحجرية الدافئة، وبعد ذلك صار يحطم أعضائي، ويجر جر جسدي ، ويضربني بقبضته بعنف، لكنني لم أشعر بأي ألم، بل بارتياح عجيب.) يتتهج الحمائية الأسيويون أحياناً ، فيتقافزون فوق كتفيك، وينزلقون براحة أقدامهم فوق الفخذين ويتراقصون فوق الظهر ، بشكل *e sempre bene*^(٨). وبعد هذا كله أخذ يدلكني فترة طويلة بقفاز صوفي، ويسكب على جسمي الماء الساخن بوفرة، ثم أخذ يغسلني بمنشفة كروية بها رغوة الصابون. ويصعب وصف شعوري عندئذ: إن الصابون الساخن يغمري كالهواء! ملاحظة: يجب أن يستخدم في الحمام الروسي حتماً القفاز الصوفي والمنشفة الكروية: وسيكون المتضرعون بالمهنة شاكرين لإستخدام هذا الإبتكار الجديد.

بعد المنشفة الكروية أنزلني غسان في الحوض، وبهذا انتهت المراسم.

كنت آمل ان ألتقي رايفسكي في تفليس. وعندما علمت أن كتيبه قد بدأت الزحف قررت أن أطلب من الكونت باسكيفتش السماح لي بمرافقة الجيش.

أمضيت في تفليس فترة أسبوعين تعرفت خلالها على المجتمع هناك. وروى لي سانكوفسكي رئيس تحرير صحيفة « أخبار تفليس» أشياء ظريفة كثيرة عن هذا البلد، وعن الأمير تسيتسيانوف، وعن أ.ب. يرمولوف وغير ذلك. وسانكوفسكي يحب جورجيا ويتنبأ لها بمستقبل باهر.

أصبحت جورجيا تحت حماية روسيا في عام ١٧٨٣، لكن هذا

٨. بشكل طيب دائما (بالفرنسية) - المترجم

لم يقف عائقاً أمام أغا- محمد من دون الإستيلاء على تفليس وانزال الخراب فيها واقتياد ٢٠ ألفاً من سكانها كأسرى (في عام ١٧٩٥). وأصبحت جورجيا تابعة لتاج الإمبراطور ألكسندر في عام ١٨٠٢ . والجورجيون شعب مقاتل . وقد أبدى هذا الشعب بسالته في القتال تحت راياتنا . وتنتظر قدراتهم الذهنية الحصول على معارف أكثر . وعموماً فإنهم ميالون إلى المرح والمعاشرة الطيبة . وفي أيام الأعياد يسكر الرجال ويتجولون في الشوارع . بينما يردد الصبيان ذو العيون السود الأغاني ويتقافزون ويقومون بألعاب بهلوانية ، أما النساء فيؤدين رقصة ليزجينكا .

إن الأغاني الجورجية ذات إيقاع جميل . وقد ترجمت لي كلماتها لفظة لفظة ، وأعتقد أنها نظمت في العصر الحديث ، لكنها تتضمن شيئاً من السخافة الشرقية الخالية من المعنى ، بيد أنها ذات قيمة شعرية . وإليكم شيئاً منها :

«الروح، ولدت مؤخرًا في الجنة! الروح خلقت من أجل سعادتي!

وانا أنتظر حياتي منك، أيتها الخالدة.

انا أنتظر الحياة منك، أنت الربيع الزاهر، وأنت القمر ذو الأسبوعين، وملاكي الحارس.

وجهك صبح، وعرح بابتسامة. أنا لا أريد امتلاك الدنيا بل أريد نظرة منك. وانتظر منك الحياة!

أيتها الزهرة الجبلية، المبللة بقطرات الطل! يا حبيبة الطبيعة الأثيرة! أيها الكنز الخفي الهادئ! انا أنتظر منك الحياة.»

والجورجيون يعاقرون الخمر - لكن ليس مثلنا، وهم أقوياء بشكل عجيب. ولا يمكن نقل نبيذهم لأنه يفسد بسرعة، لكنه رائع في بلدهم. وأصناف النبيذ الكاخيتي والقره باغي تعادل بعض أصناف نبيذ بورغون. ويحفظ النبيذ في مارانات (دنان خزفية كبيرة) تدفن تحت الأرض. ويتم فتحها بمراسم احتفالية. ومنذ فترة قريبة فتح فارس من كتبية دراغون روسية أحد هذه الأوعية سراً، وسقط فيه وغرق في النبيذ الكاخيتي، مثل كلارنس التيس^(٩) في دن نبيذ ملقاً.

تقع تفليس على ضفاف كورا، في واد تحف به الجبال الصخرية. إنها تقيه من الرياح من كافة الجهات، وعندما تتلظى تحت الشمس فإنها لا تسخن بل يصل فيها الهواء الساكن الى درجة الغليان. وهذا هو سبب الحر الذي لا يطاق السائد في تفليس بالرغم من أن المدينة تقع أيضاً فقط على الدرجة ٤١ من خطوط العرض. وتسمية المدينة نفسها (تبليس-كالار) تعني المدينة الحارة.

إن القسم الأكبر من المدينة شيد على الطراز الآسيوي: فالبيوت منخفضة، والسطوح مستوية. وفي القسم الشمالي تنتصب بيوت شيدت بأسلوب العمارة الأوروبي، وحولها بدأت بالنشوء الميادين المتساوية الأبعاد. وينقسم السوق إلى عدة صفوف للباعة: الدكاكين ممتلئة بالسلع التركية والفارسية، الرخيصة جداً، إذا ما أخذنا في الاعتبار الغلاء العام. وسلاح تفليس غالي الثمن في الشرق بأسره. واختبر الكونت سامويلوف و«ف»، اللذان يعتبران هنا من الجبابرة، اختبرا هنا سيوفهما الجديدة بقطع خروف إلى قسمين أو بتر رأس ثور بقطعة واحدة.

٩. الدوق كلارنس الانجليزي الذي اغرقه اخوه الملك ادوارد الرابع في برمبل من النبيذ (المترجم).

يشكل الأرمن غالبية السكان في تفليس : في عام ١٨٢٥ وصل عددهم إلى ٢٥٠٠ أسرة. وفي فترة الحروب الراهنة تضاعف عددها أكثر. بينما يبلغ عدد الأسر الجورجية ١٥٠٠. أما الروس فلا يعتبرون أنفسهم من الأهالي المحليين. والعسكريون المطيعون للواجب، يعيشون في جورجيا بحكم الأوامر الصادرة إليهم. أما المستشارون الشباب من الأعيان فيأتون إلى هناك بغية الحصول على لقب «اسيسور» أي النقيب المأمول كثيرا. وأولئك وهؤلاء ينظرون إلى جورجيا بصفتها المنفى.

ويقال أن الطقس في تفليس غير صحي. والإصابات بالحمى هناك فظيعة، وتجري معالجتها بالزئبق، الذي لا يسبب استخدامه الضرر بسبب الحرارة. ويعطيه الأطباء مرضاهم بلا أي تأنيب ضمير. ويقال أن الجنرال سيبياغين قد توفي لأن طبيب الأسرة الذي رافقه من بطرسبورغ قد خشي العلاج الذي اقترحه الأطباء ولم يعط الدواء المذكور. إن إصابات الحمى هناك تشبه الحمى في القرم ومولدافيا وتعالج بنفس الطريقة.

يشرب الأهالي ماء نهر كورا العكر لكن الطيب المذاق. علماً أن مذاق الكبريت يتحسس بشدة في مياه جميع الينابيع والآبار. والجميع يحتسون النبيذ عموماً هناك ولهذا لا تلاحظ شحة المياه.

لقد أثار دهشتي في تفليس أن النقود لا قيمة لها. فوجب علي أن أدفع للحوذي روبلين فضيين لدى التنقل في شارعين والانتظار لمدة نصف ساعة لينصرف بعدها. وفي البداية فكرت بأنه ربما أراد استغلال كوني مسافراً عابراً لا يعرف المكان، لكن قيل لي أن هذا هو السعر فعلاً. وجميع الخدمات والأمور الأخرى غالية لدى المقارنة.

ذهبنا الى المستوطنة الألمانية وتناولنا الغداء هناك. واحتسبنا هناك البيرة المصنوعة محلياً، ومذاقها غير طيب البتة، ودفعنا ثمناً غالياً جداً لقاء غداء سيء جداً. وفي نزلي أطعموني أيضاً بثمرن غال. وحدث مرة أن استدعاني الجنرال ستريكالوف، المعروف بكونه ذواقة في الطعام، لتناول الغداء معه. ولسوء الحظ فإن الطعام لديه كان يقدم حسب المناصب، وكان يجلس وراء المائدة ضباط إنجليز يحملون شارات جنرال. وقد أبدى الخدم همّة في إطعامي لدرجة أنني قمت من المائدة جوعان. ليأخذ الشيطان الذواقة من تفليس!

بقيت أنتظر بفارغ الصبر تقرير مصيري. وفي نهاية المطاف تلقيت رسالة من رايفسكي يطلب فيها أن أعجل بالسفر الى كارس، لأنه بعد عدة أيام ستواصل القوات التحرك. فسافرت في اليوم التالي.

توجهت على صهوة جواد، وكنت أغيره في نقاط الحراسة التي يربط فيها القوزاق. وكانت الأرض حولي شديدة السخونة. وبدت لي القرى الجورجية من بعيد وكأنها بساتين رائعة، لكنني كنت لدى الإقتراب منها أجد عدة أكواخ فقيرة، تظللها أشجار الحور المغيرة. ومالت الشمس الى المغيب لكن الهواء بقي خانقاً:

ليال قانطة!

ونجوم غريبة!..

تألق القمر، وساد الهدوء في كل مكان: ولم يكن يسمع في سكون الليل سوى وقع حوافر جوادي. وسرت فترة طويلة دون أن ألقى علائم السكن. وأخيراً شاهدت كوخاً منفرداً. وطرقت الباب. وخرج رب البيت. وفي البداية رجوته بالروسية ومن ثم بالتركية أن

يعطيني ماءً. لم يفهم كلامي. إنها لامبالاة غريبة! فعلى مسافة ثلاثين فرستا من تفليس، في الطريق إلى فارس وتركيا، أجد رجلاً لا يعرف كلمة بالروسية أو التتية.

قضيت ليلتي في نقطة الحراسة القوزاقية، وعند الفجر واصلت طريقي. وكان الطريق يمتد عبر الجبال والغابات. والتقيت مسافرين من التتر، وكانت بينهم عدة نساء، كن يمتطين الجياد ويلتفنن بالحجاب، ولم يكن يرى منهن سوى العينين وكعوب الأحذية.

بدأت بتسلق بيزوبدال، الجبل الذي يفصل جورجيا عن أرمينيا القديمة. الطريق واسع وتظله الأشجار، ويمتد ملتويًا حول الجبل. ولدى صعودي إلى ذروة جبل بيزوبدال مررت عبر فح صغير أظن أن اسمه «بوابة الذئب»، وأصبحت عند الحدود الطبيعية لجورجيا. وظهرت أمامي جبال جديدة، وأفق جديد، وانداحت تحتي حقول الغلال الخضراء. وتطلعت مرة أخرى إلى جورجيا الرمضاء ثم بدأت بالهبوط من الجبل القليل الانحدار إلى سهول أرمينيا النظرة. وشعرت وقد تملكني الإرتياح البالغ أن القيظ قد خف فجأة. وتغير الطقس.

تخلف عني خادمي مع خيول الحمل. وانطلقت وحدي في البرية الزاهرة، المحاطة بالجبال البعيدة. وبسبب غفلي مررت بمحاذاة نقطة الحراسة حيث وجب أن أبدأ الخيول دون التوقف فيها. ومضت فترة تربو على ست ساعات، واخذت أعجب لكون مسافة العبور طويلة. ورأيت جانباً أكوام أحجار تشبه الأكواخ، فتوجهت نحوها. وتبين في الواقع أنني جئت إلى قرية أرمينية. وكانت عدة نساء يرتدين الأسمال الصارخة الألوان يجلسن على السطح المستوي لكوخ بني تحت الأرض. وشرحت لهن حالي بشكل ما. وولجت إحداهن

المسكن وجلبت لي الجبن والحليب. وبعد فترة إستراحة استغرقت عدة دقائق واصلت المسيرة وشاهدت من الضفة العالية للنهر أمامي قلعة غير غيري. فعبرت النهر. وكان إثنان من الثيران المربوطان إلى عربة يصعدان في الطريق الشديد الإنحدار. وثمة عدة جورجين يرافقون العربة. فسألتهم: «من أين انتم قادمون؟». «من طهران» - «ومن تنقلون؟» - «جربويدوف» - «كان هناك جثمان جربويدوف القتل الذي رافقه الى تفليس.

لم أكن افكر بأنني سألتقي شاعرنا جربويدوف! إنني افترقت عنه في العام الماضي، في بطرسبورغ، قبيل سفره الى بلاد فارس. وكان حزينا وغلبه شعور داخلي غريب. وعندما أردت أن أطمأنه قال لي:

« *Vous ne connaissez pas ces gens-la: vous verrez qu'il faudra jouer des couteaux* »^(١٠)

وكان يعتقد أن سبب إراقة الدماء سيكون وفاة الشاه والصراع بين أولاده السبعين. لكن الشاه العجوز ما زال حيا يرزق، بينما تحققت تنبؤات جربويدوف. فقد اغتيل الشاعر بخناجر الدهماء من الفرس، وراح ضحية الجهل والغدر. ولم يتم التعرف على جثمانه المشوه، بعد أن كان جثمانه ألغوبة بيد الدهماء في طهران خلال ثلاثة أيام، إلا من أثر في يده المصابة في وقت ما برصاصة مسدس.

لقد تعرفت على جربويدوف في عام ١٨١٧. وكان كل شيء فيه يتسم بالجاذبية، طبعه السوداوي الميال الى الكآبة، وعقله المستشري

١٠. انت لا تعرف بعد هؤلاء البشر، وسترى ان المسألة ستصل الى حد الطعن بالسكاكين(بالفرنسية)-المترجم.

غضباً، وطيبته، وهي من أكثر الصفات ضعفاً وغيباً التي تلازم البشرية، لكن مع هذا فإن كل شيء فيه يتسم بجاذبية غير عادية. لقد ولد بشعور من عزة النفس يعادل موهبته، وكان خلال فترة طويلة أسير شباك سفاسف الأمور، وغير معروف. أما قدراته كرجل دولة فلم تتحقق، ولم يعترف بموهبته كشاعر، وحتى شجاعته المقحامة غير المبالية والرائعة بقيت على مدى فترة طويلة موضع ريبه وشك. وعرف بعض الأصدقاء قيمته، وكانوا يرون إبتسامة عدم الثقة، تلك الإبتسامة السخيفة والثقيلة الوطأة على الوجوه، حين يدور الحديث عنه كرجل فذ غير عادي. فالتناس يصدقون فقط ذبوع الصيت والمجد ولا يدركون بأنه يمكن أن يوجد بينهم نابليون ما لم يتول قيادة أية سرية جبلية، أو ديكارت ما لم ينشر أي سطر في صحيفة «موسكوفسكي تلجراف». علماً أن احترامنا للشهرة ربما ينبثق من الغرور وحب الذات: إذ أن صوتنا أيضاً يوجد في صنع الشهرة والمجد.

لقد عكرت حياة جريويدوف عدة سحب قائمة: بحكم جموح العواطف والظروف الجبارة. وكان يشعر بضرورة التخلص مرة وإلى الأبد من نزوات فترة الشباب، وتغيير نمط حياته تغييراً تاماً. فغادر بطرسبورغ شارداً الذهن عاطلاً، وسافر إلى جورجيا، حيث عاش طوال ثمانية أعوام متوحداً منعزلاً، ومتشدداً حيال نفسه لدى ممارسة أعمال ما بلا توقف. وكانت عودته إلى موسكو في عام ١٨٢٤ نقطة انعطاف في مصيره وبداية نجاحات متواصلة. فقد تركت مخطوطة مسرحيته الكوميديّة «ذو العقل يشقى بعقله» انطباعاً شديداً يفوق الوصف وبغته وضع في مصاف شعرائنا الكبار. وبعد فترة من الوقت فتحت مجالاً جديداً للعمل معرفته الكاملة بالبلاد التي بدأت فيها الحرب آنذاك، فعين مبعوثاً للدولة. وجاء إلى جورجيا وتزوج الفتاة

التي أحبها.. وأنا لا أعرف شيئاً عن حياته العاصفة التي يحسد عليها في الأعوام الأخيرة. أما الموت نفسه في معركة غير متكافئة تجلت فيها بسالته فلم يكن فيه أي شيء فظيع وثقيل الوطأة بالنسبة إلى جريويدوف نفسه. فقد عاجله الموت في لحظة خاطفة وبشكل رائع.

وكم آسف لأن جريويدوف لم يترك خلفه أية مذكرات. ووجب أن يكتب أصدقاؤه سيرة حياته. لكن الرجال البارزين يختفون عندنا من دون أن يتركوا أثراً. فنحن كسالى وغير تواقين إلى المعرفة...

إلتقيت بوتورلين في غير غيري الذي كان مثلي يتوجه إلى الجيش. وكان بوتورلين يسافر مصحوباً بمختلف أصناف اللوازم. وتغديت معه كما لو كنت في بطرسبورغ. واتفقنا على السفر سوية. لكن غلبني مرة أخرى شيطان عدم الصبر. ورجاني خادمي أن أسمح له بأخذ قسط من الراحة. فمضيت بمفردي حتى بدون مرشد يرافقني. فالطريق واحد وآمن تماماً.

عبرت الجبل ونزلت إلى الوادي الوارف الظلال، فرأيت ينبوعاً يجري مأؤه عبر الطريق. وهناك إلتقيت قساً أرمنياً كان متوجهاً من اخالتسيك إلى يريفاني. فسألته: «ما الجديد في يريفاني؟» فأجابني قائلاً: «في يريفاني طاعون»، - «وماذا يحدث في اخالتسيك؟». فأجاب قائلاً «في اخالتسيك طاعون». وبعد أن تبادلنا هذه الأخبار السارة افرقنا.

كنت أسير عبر المزارع المثمرة والمراعي المزهرة. وكانت المحاصيل قد نضجت وانتظرت المناجل. واخذت أمتع نظري بالأراضي التي أصبحت خصوبتها مضرب المثل في بلدان الشرق. وبحلول المساء وصلت إلى بيرنيك.

توجد هناك نقطة حراسة للقوزاق. وغطت السحب السماء، وكنت آمل في أن تشتد الرياح في المساء وتبددها. لكن السحاب ألفت أرواقها وبدأ تساقط رذاذ المطر ثم اشتد شيئاً فشيئاً وازداد عنفاً. تبلغ المسافة من بيرنيكا إلى غومري قرابة ٢٧ فرستا. فأحكمت ربط حزام عبائتي الوبرية، وألقيت القلنسوة فوق قبعتي وأسلمت أمري إلى العناية الإلهية.

مضت فترة تربو على الساعتين. ولم يتوقف المطر. وكان الماء يسيل مدراراً من عبائتي الثقيلة والقلنسوة. وفي نهاية المطاف بلغ سيل الماء البارد وراء ربطة العنق وسرعان ما أصاب البلل جسدي كله. إحلولكت ظلمة الليلة، وسار في المقدمة قوزاقي يدلني على الطريق. وبدأنا بتسلق الجبال. وتوقف المطر وتبددت السحب. وبقيت أمامنا مسافة عشر فرستات لبلوغ غومري. وكانت الرياح العاصفة من الشدة بحيث أنها جففت ملابسي في غضون ربع ساعة. وأخذت أفكر في تقادي الإصابة بالحمى. وأخيراً وصلنا إلى غومري عند منتصف الليل تقريباً. فقادني القوزاقي إلى نقطة الحراسة مباشرة. وتوقفنا بالقرب من خيمة سارعت إلى دخولها. فوجدت هناك إثني عشر قوزاقياً، راقدين أحدهم إلى جانب الآخر. وافسحوا المجال لي، وركدت على العباءة، ولم أشعر بشيء من التعب. ففي هذا اليوم قطعت مسافة ٧٥ فرستا. وغفوت كالميت.

أيقظني القوزاق عند الفجر. وكان أول ما جال في فكري هل أنا أرقد مصاباً بالحمى. ولكنني شعرت والحمد لله أنني رائق المزاج فياض العافية، ولم يكن هناك أي اثر للمرض وكذلك للتعب. وخرجت من الخيمة إلى هواء الصباح المنعش. وقد أشرقت الشمس. وتألقت في السماء الصافية جبل ذو ذروتين تغطيه الثلوج. وسألت وأنا التمطي «ما

هذا الجبل؟»، فجاء الجواب: «أنه ارارات». ما أشد تأثير الأصوات! وصرت أتطلع بإمعان وشغف إلى الجبل الذي ورد ذكره في الكتاب المقدس. وترائت لي سفينة نوح التي ترقد فوق ذروته أملاً في التجدد والحياة - والغراب والحمامة وهما الطائران اللذان يرمزان إلى الموت والمصالحة^(١١)..

كان حصاني جاهزاً. وسافرت برفقة الدليل. بدا الصباح رائعاً. والشمس ساطعة. وسرنا في مرعى فسيح الأرجاء يغطيه العشب الأخضر الكثيف الذي يرويه الطل وقطرات مطر الأمس. وتلاً أمامنا غدير وجب علينا اجتيازه. وقال لي القوزاقي: «هوذا ارابتشاي!». ارابتشاي! إنها حدودنا! إنها حظيرة ارارات! واندفعت نحو النهر وقد تملكني شعور مبهم لا يمكن تأويله. إنني لم أر من قبل أبداً أرضاً أجنبية. وكانت الحدود بالنسبة لي شيئاً غامضاً، ومنذ طفولتي كان السفر في رحلات حلمي المحبوب. وجبت فيما بعد في حياتي الكثير من الأصقاع، وسافرت جنوباً تارةً وشمالاً تارةً أخرى، لكنني لم أنطلق بعد أبداً خارج حدود روسيا المترامية الأطراف. وولجت مياه النهر المأمول وحملني جوادي الطيب إلى الضفة التركية. لكن كانت هذه الضفة عندئذ قد احتلت: أي أنني مازلت في روسيا.

بقيت مسافة ٧٥ فرستا حتى بلوغ كارس. وكنت آمل أن أرى معسكرنا بحلول المساء. ولم أتوقف في أي مكان. وفي منتصف الطريق، وفي قرية أرمنية شيدت على ضفة النهر في الجبل، تناولت التشورك اللعين، وهو الخبز الأرمني الذي يصنع بهيئة أرغفة نصفها من الرماد، إنها الأرغفة التي كان الأسرى الأتراك في وادي داريال

١١. بوشكين يستعيد أسطورة سفر التكوين في الكتاب المقدس - الاصحاح الثامن، لكن لا يعرف لماذا اعتمد الطائرين المذكورين كرموز - المترجم.

يتلعونها بجهد. إنني كنت سأدفع ثمناً غالياً لقاء قطعة من الخبز الأسود الروسي الذي نفر الأسرى منه. ورافقني شاب تركي ثرثار مزعج للغاية. وكان طوال الطريق يثرثر دون أن يهتم فيما إذا كنت أفهم شيئاً مما يقول أم لا. وكنت أركز انتباهي وأسعى إلى أن اخمن مغزى أقواله. وبدا أنه شتم الروس الذين اعتاد رؤيتهم في البزات العسكرية، وعندما نظر إلى ملابسي اعتبرني أجنبياً. والتقينا في الطريق ضابطاً روسياً. وكان قادماً من معسكرنا فأبلغني أن جيشنا قد غادر كارس. ولا أستطيع وصف خيبة ألمي: فالتفكير بأنني يجب أن أعود إلى تفتليس، بعد ما عانيته عبثاً من عذاب في أرمينيا القاحلة، جعلني أشعر بالإحباط التام. وانطلق الضابط في طريقه، بينما بدأ التركي مونولوجه مجدداً، ولكنني لم أعد أهتم به. فاستبدلت الحصان بجواد سريع كبير ووصلت في المساء إلى قرية تركية تبعد مسافة ٢٠ فرستا عن كارس.

وبعد أن ترجلت من الجواد أردت دخول أول بيت هناك فأوقفني في الباب صاحبه ودفعني وهو يطلق الشتائم. ورددت على تحيته هذه بضربة السوط. وصرخ التركي وتجمهر الناس. وأظن أن مرافقي قد دافع عني. وأشاروا إلى نزل هناك، فدخلت بيتاً كبيراً (ساكلا) يشبه زريبة، ولم أجد مكاناً أضع فيه العباءة اللبادية (بوركا). فطلبت جواداً. وجاء إلي رئيس عرفاء تركي. فأجبت عن جميع أقواله غير المفهومة بعبارة واحدة: فيربانا آت (أعطني جواداً). ولم يوافق الأتراك. وفي نهاية المطاف حدثت بأن من الواجب أن أريهم النقود (وهذا ما كان يجب علي فعله منذ البداية). فاقتيدي إلى الجواد فوراً، وأعطوني مرافقاً أيضاً.

مضيت على صهوة جوادي في واد واسع تحيط به الجبال.

وسرعان ما رأيت كارس، بإيضاضها فوق أحد الجبال. وأشار التركي اليها وكرر قائلاً: كارس، كارس! وانطلق بجواده وتبعته، وطفح قلبي بعذاب القلق: فكان يجب أن يتقرر مصيري في كارس. ووجب ان أعرف هناك أين يوجد معسكرنا وهل ستوفر لدي الفرصة للحاق بجيشنا. وفي هذه الأثناء تلبدت السحب في السماء وانهمر المطر مجدداً. لكنني لم ألق بالأله.

بلغنا كارس. وعندما اقتربنا من البوابة في السور سمعت صوت قرع الطبل الروسي مؤذنا بالإصطفاف عند الفجر. إستلم الحارس مني بطاقتي وتوجه الى الكومندان. ووقفت تحت المطر حوالي نصف ساعة. وأخيراً سمحوا لي بالمرور. وأمرت مرافقي بأن يقودني فوراً إلى الحمام. فسرنا في شوارع ملتوية وشديدة الإنحدار. وكان الحصانان ينزلقان فوق الأرضية الترية السيئة. وتوقفنا عند أحد المباني ذي المظهر البائس جداً. كان هناك الحمام. وترجل التركي من الحصان وأخذ يطرق الباب. فلم يجب أحد. وانهمر المطر علي مدراراً. وأخيراً خرج من المبنى المجاور شاب أرمني، وبعد ان تبادل الحديث مع مرافقي دعاني إلى بيته، وكان يتحدث بلغة روسية سليمة جداً. واقتادني في زقاق ضيق إلى جناح آخر من مسكنه. وجلست في الغرفة المزينة بأرائك منخفضة وسجاجيد متهترئة امرأة عجوز هي أمه. فدننت مني وقبلت يدي. وأمرها الابن بأن توقد النار وتعد لي العشاء. فخلعت ملابسي وجلست قبالة النار. فدخل الشقيق الأصغر لصاحب البيت، وهو صبي في السابعة عشرة عاماً تقريباً. وكان الشقيقان قد عاشا في تفليس عدة أشهر. وأبلغاني بأن قواتنا قد انطلقت من المدينة في العشية وأن معسكرنا يربط في مكان يبعد ٢٤ فرستا عن كارس. فغمرني الإطمئنان تماماً.

ورقدنا جميعاً في غرفة واحدة، ونزعت ملابسي أمام الموقد الذي تخبو النار فيه، وغفوت وراودني الأمل البهيج في أن أرى معسكر الكونت باسكيفيتش في اليوم التالي.

في الصباح خرجت لمشاهدة المدينة. وتولى الشقيق الأصغر مهمة أن يكون دليلي (تشيرتشيرون). ولدى مشاهدة التحصينات والقلعة المنتصبة فوق صخرة منيعة، لم أفهم كيف استطعنا الإستيلاء على كارس. وشرح الأرمني لي حسب استطاعته العمليات العسكرية التي شهدتها. وعندما لاحظت اهتمامه بالحرب عرضت عليه أن يرافقني إلى الجيش. فوافق على الفور. وارسلته لجلب جوادين. وجاء إلي برفقة ضابط طلب مني إبراز الأمر التحريري للمرور. وعندما شاهدت سمات وجهه الأسيوية قررت أنه لا حاجة لكي أنبش في أوراقه وأخرجت من جيبي أول ورقة وقعت في يدي. فنظر الضابط إليها بوقار، وأمر على الفور باقتياد جواد «سعادته» حسب ما جاء في الأمر. وأعاد إلي الورقة: وكانت رسالة إلى كالميكية خربشتها في إحدى محطات القوقاز. بعد نصف ساعة غادرت كارس، ومضى ارتيمي (هذا هو إسم صاحبي الأرمني) خيباً إلى جانبي فوق صهوة فرس تركية ويده رمح كورتينيمرن، وثمة خنجر في حزامه، وصار يطنب في الكلام عن الأتراك والمعارك.

كنت أسير في أرض بذرت فيها الحبوب في كل مكان، وكنت أرى حوالي القرى، لكنها كانت خالية فقد هرب ساكنوها في مختلف الأنحاء. وكان الطريق رائعاً وأقيمت جسور حجرية في أماكن المستنقعات وعبر الأنهار. وصارت الأرض تميل إلى الارتفاع بشكل ملحوظ - حيث بدأت بالظهور التلال الأمامية لسلسلة

جبال ساغان - لو (تافرا القديمة). وانصرمت قرابة ساعتين، وبلغنا
هضبة منحدره قليلاً، فرأيت معسكرنا الواقع على ضفة نهر كارس
- تشايا. وبعد مضي عدة دقائق كنت في خيمة رايفسكي.

الباب الثالث

الزحف عبر ساغان-لو. تراشق بالنيران. حياة المعسكر. الأيزيديون. المعركة مع سراسكير ارضروم. المبنى المنفجر.

لقد جئت في الوقت المناسب. ففي ذلك اليوم (١٣ يونيو) تلقت القوات الأمر بالزحف الى الأمام. وبينما كنت أتناول الغداء عند رايفسكي سمعت الجنرالات الشبان يتحدثون عن التحرك المقرر لهم. وقد اتخذ الجنرال بورتسوف موقعه من الجهة اليسرى لطريق ارضروم الكبير قبالة المعسكر التركي مباشرة، بينما وجب ان تمضي بقية القوات جميعاً في الجهة اليمنى للقيام بحركة إلتفاف حول العدو.

في الساعة الخامسة بدأت القوات زحفها. فسرت مع كتيبة فرسان (دراغون) نيجني نوفغورود وأنا أتبادل الأحاديث مع رايفسكي الذي لم ألتق به منذ عدة أعوام. ثم حلت دجنة الليل، وتوقفنا حيث وجدت جميع القوات المكان للتوقف. وعندئذٍ أتيح لي شرف تقديمي إلى الكونت باسكيفتش.

وجدت الكونت في بيت يقع قبالة النار المستعرة في المعسكر، وحوله ضباط الأركان. وكان مرحاً مهلهل الأسارى واستقبلني

بترحاب ومودة. ورغم أنني كنت أجهل فنون الحرب فلم تخالجنني الشكوك في أن مصير الحملة العسكرية يتقرر في تلك اللحظة. ورأيت هناك صاحبنا فولخوفسكي وقد علاه الغبار من قمة الرأس وحتى أخمص القدمين، وأطلق شعر لحيته، واستبدت به المشاغل والهموم. ومع ذلك وجد الفرصة للتحدث معي كرفيق قديم. كما رأيت هناك ميخائيل بوشين الذي أصيب بجروح في العام الماضي. إنه يحظى بالمحبة والإحترام كرفيق طيب وجندي شجاع. وأحاطني العديد من رفاقي القدامى. ما أكثر ما طرأ عليهم من تغيير. وكيف يمضي الزمن بسرعة!

Heu! fugaces, Postume, Postume,

Labuntur anni... (12)

عدت إلى رايفسكي وأمضيت الليل في خيمته. وفي منتصف الليل أيقظني صراخ رهيب: وجمال في خاطري أن العدو قام بهجوم مباغت. فأرسل رايفسكي رجاله لمعرفة سبب الضجة: وقد تبين أن عدة خيول تربية، قطعت أربطتها، وانطلقت في أرجاء المعسكر، بينما أخذ المسلمون (تطلق هذه التسمية على التتر الذين يخدمون في قواتنا) يطاردونها ويقبضون عليها.

عندما أسفر نور الفجر بدأت القوات بالزحف إلى الأمام. واقتربنا من جبال تكسوها الغابات. وولجنا وادياً ضيقاً. وكان الفرسان (الدراغون) يتبادلون الأحاديث فيما بينهم: «خذ بالك، يا أخ: إنهم سيمطروننا بالذات بوابل من الخراطيش». فعلاً إن المكان كان مناسباً

١٢. اوه، بوستوم، بوستوم.. ما اسرع ما تمضي الايام.

لنصب الكمائن، لكن الأتراك الذين ألهاهم تحرك الجنرال في الجهة الأخرى، لم يتتهزوا هذه الفرصة المواتية لهم. وعبرنا بسلام الوادي الخطر، وبلغنا ذرى ساغان - لوعلى بعد عشرة فرسات من معسكر العدو.

كانت الطبيعة حولنا متجهمة. وكان الهواء بارداً، والجبال مغطاة بأشجار الصنوبر الكثيرة. بينما غمرت الثلوج الواديان الضيقة.

...nec Armeniis in oris,

Amice Valqi, stat glacies iners

Menses per omnes... (13)

وحالما أخذنا قسطاً من الراحة وتناولنا الغداء سمعنا هزيم المدافع. وبعث رايفسكي رجاله لمعرفة جلية الأمر. وقد أبلغوه أن الأتراك بدأوا بإطلاق النار على مواقعنا الأمامية. وتوجهت راكباً مع سيميتشيف لرؤية مشهد جديد بالنسبة إلي. وإتقينا قوزاقياً جريحاً: كان يجلس على سرج حصانه مترنحا وهو شاحب الوجه والدماء تنزف منه. وأسنده إثنان من القوزاق. وسأل سيميتشيف: «هل هناك كثير من الأتراك؟». فأجابه أحدهما: «إنهم يمحطروننا بوابل من الرصاص يا صاحب السعادة». وبعد أن عبرنا الوادي شاهدنا في منحدر الجبل المقابل حوالي ٢٠٠ قوزاقي متحصنين في فجوة، وفوقهم حوالي ٥٠٠ تركي. وكان القوزاق يتراجعون ببطء، أما الأتراك فكانوا يقتحمون بجسارة كبيرة، ويطلقون النار من مسافة ٢٠ خطوة. كانوا يطلقون

١٣. ان أرض ارمينيا، يا صديقي فالجيوس، لا يغطيها الجليد الساطع طوال العام (باللاتينية)، وجاي فالجيوس روفوس كاتب روماني لا تيني قديم (الترجم).

النار، ثم يتراجعون القهقري. وكانت عمائمهم العالية وسترات الفرسان الجميلة والعدة الزاهية لجيادهم تتناقض تماماً مع البزات الزرق والعدة البسيطة لجياد القوزاق. وأرسل المقدم باسوف في طلب المعونة. وفي هذه الأثناء جرح نفسه في ساقه. وأراد القوزاق التدخل. لكن باسوف إمتطى مجددا صهوة جواده وبقي مع رجاله. وهرعت الى المكان قوات الدعم. وعندما شاهدها الأتراك اختفوا على الفور، مخلفين ورائهم جثة عارية لقوزاقي مقطوع الرأس ومزقته طعنات السيوف. وعادة يرسل الأتراك الرؤوس المقطوعة إلى القسطنطينية، أما الأيدي فتلوث بالدم وتطبع بصماتها على راياتهم. خمد إطلاق النار. وحلقت في الجو فوق الجبال النسور التي ترافق القوات بحثاً عن فريسة لها. وفي هذه اللحظة جاء حشد من الجزرالات والضباط: جاء الكونت باسكيفتش وانطلق في الجبل الذي اختفى ورائه الأتراك. وكان يدعمهم ٤٠٠٠ فارس يختبأون في الوهدة والوديان الضيقة. وبدأ أمامنا من قمة الجبل معسكر الأتراك الذي تفصله عنا الوهاد والمرتفعات. ورجعنا في وقت متأخر. ولدى السير نحو معسكرنا شاهدنا جرحانا الذين توفي خمسة منهم في تلك الليلة، وفي اليوم التالي. وفي المساء زرت الشاب الجريح اوستن - ساكين الذي جرح في اليوم ذاته في معركة في مكان آخر.

لقد أعجبتني كثيرا الحياة في المعسكر. وأيقظنا هزيم المدافع عند الفجر. إن النوم في الخيمة صحي بشكل عجيب. وتناولنا في الغداء المشويات الأسوية والبيرة الإنجليزية والشمبانيا التي بردت في ثلوج تافريسا. وكان مجتمعنا متنوعاً. واجتمع في خيمة رايفسكي بيكوات (قادة) الكتائب الإسلامية، وكان الحديث يجري عبر مترجم. كما وجد ضمن قواتنا أبناء شعوب أقاليمنا فيما وراء القوقاز وأبناء أهالي الأراضي التي تم الإستيلاء عليها مؤخراً. وتطلعت بفضول

من بينهم إلى الإيزيديين الذين ذاع صيتهم في الشرق بكونهم من عباد الشيطان. وتعيش عند سفوح ارارات قرابة ٣٠٠ اسرة منهم. وقد أبدوا الولاء إلى القيصر. وزعيمهم رجل فارغ الطول قبيح الوجه يرتدي وشاحاً أحمر وقبعة سوداء، وكان يأتي أحياناً لإبداء ولاء الطاعة إلى الجنرال رايفسكي قائد جميع الفرسان. وأردت أن أعرف من الإيزيديين الحقيقة عن دينهم. وأجاب الزعيم عن أسئلتني بالقول أن الإشاعات الزاعمة بأن الإيزيديين يعبدون الشيطان محض هراء، وإنهم يؤمنون بالرب الأوحد. وحسب قانونهم فإن توجيه اللعنة إلى الشيطان تعتبر، حقاً، شيئاً غير لائق وشائن، لأنه الآن غير سعيد، وبمرور الزمن يمكن أن تغفر له جريرته، لأن الله غفور رحيم بلا حدود. وقد بعث هذا التفسير الإطمئنان في قلبي. وكنت مسروراً جداً لمعرفتي أن الأيزيديين لا يعبدون الشيطان، وبدأت لي ضلالتهم جديرة أكثر بالعمى عنهم.

جاء مرافقي إلى المعسكر بعدي بثلاثة أيام. وقد وصل مع قافلة عربات الدعم والمؤونة التي وصلت إلى الجيش بسلام في ظروف وجود العدو. ملاحظة: خلال فترة الحملة العسكرية كلها لم يستحوذ العدو على أية واحدة من الطوابير الكثيرة لتموين الجيش. ويعتج على الإعجاب حقاً الأسلوب الذي تتحرك فيه القوافل وراء صفوف القوات.

في صباح يوم ١٧ يونيو سمعت مجدداً أصوات الإشتباكات وبعد مضي ساعتين شاهدنا كتيبة قره باغ عائدة حاملة ثمان رايات تركية: لقد قارع العقيد فريديركس العدو المتخندق وراء انهيارات الصخور وضيق عليه الخناق وأرغمه على الخروج وطارده. أما عثمان باشا قائد الفرسان فبالكاد أفلح في النجاة بنفسه.

في ١٨ يونيو إنتقل معسكرنا إلى مكان آخر. وفي ١٩ منه دبت الحركة في المعسكر كله حالما أيقظنا المدفع. وانطلق الجنرالات إلى مواقعهم. وانتظمت صفوف الكتائب، ووقف الضباط أمام سراياهم. وبقيت وحدي وأنا لا أعرف الجهة التي أمضي إليها، فتركت جوادى يمضي الهويينا طبقاً لإرادة الرب. فالتقيت الجنرال بورتسوف الذي دعاني إلى الجناح الأيسر. فما هو الجناح الأيسر؟ - جال ذلك في خاطري وواصلت طريقي. ورأيت الجنرال مورافيوف المنهمك في نصب المدافع. وسرعان ما ظهر الفرسان الأتراك (ديلي باشي) وصاروا يدورون في الوادي، وتتنظم صفوفهم إزاء رجالنا من القوزاق. وفي الوقت نفسه زحف في الوادي جحفل كثيف من مشاتهم. فأمر الجنرال مورافيوف بإطلاق النار. وانهالت القذائف وسط الجحفل. ورأيت الكونت باسكيفتش محاطاً بهيئة أركانه. وقام الأتراك بحركة إتفاق حول قواتنا التي تفصلها عنهم وهدة عميقة. وأرسل الكونت الضابط بوشين لتفقد الوهدة. وظن الأتراك أنه أحد الفرسان واطلقوا نحوه زخة من الطلقات. فضحك الجميع. وأمر الكونت بنصب المدافع وتلقيمها. وانتشر العدو في الجبل والوهدة. وفي الجناح الأيسر الذي دعاني إليه بورتسوف كانت الأوضاع ساخنة. فقد انطلق نحونا (قبالة الوسط) الفرسان الأتراك. فوجه الكونت ضدهم الجنرال رايفسكي الذي أصدر أمره الى كتيبته من نيجنى نوفغورود بالهجوم. واختفى الأتراك عن الأنظار. وطوق رجالنا من التتر جر حاهم ونزعوا ملابسهم وتركوهم عرايا وسط ميدان المعركة. ووقف الجنرال رايفسكي في طرف الوادي الضيق. وانزلت سريتان من كتيبته وتوغلتا بعيدا في مطاردة العدو، فأغاثهما العقيد سيمونيتش.

خمد وطيس المعركة. وصار الأتراك يحفرون الأرض وينقلون

الصخور أمام سمعنا وبصرنا بغية إقامة التحصينات كعادتهم. وتركوا لشأنهم. فترجلنا من جيادنا وأخذنا نتناول الغداء بما وهبنا الرب. وفي هذه الأثناء اقتيد إلى الكونت عدة اسرى. وكان أحدهم جريحاً واصابته خطيرة. وجرى استجوابهم. وفي حوالي الساعة السادسة صدر الأمر إلى القوات مجدداً بشن الهجوم على العدو. ودبت الحركة في صفوف الأتراك وراء تحصيناتهم من أكوام الصخور، واستقبلونا بوابل من قذائف المدفعية وسرعان ما أخذوا بالإنسحاب. وكان فرساننا في المقدمة. وبدأنا بالنزول إلى الوادي، وصارت التربة تتطاير وتتناثر تحت قوائم الخيل. وفي كل دقيقة كان جوادي يكاد أن يسقط، وعندئذ كانت كتيبة فرسان (اولان) الموحدة ستمر فوقي. لكن الرب ستر. وما كدنا نصل إلى الطريق الواسع المؤدي إلى الجبال انطلق فرساننا بأقصى سرعة. فهرب الأتراك. وقرن القوزاق بواسطة السياط (ناغايكا) المدافع المتروكة في الطريق، وانطلقوا بمحاذاته. أما الأتراك فاندفعوا راکضين إلى الوديان المنخفضة على جانبي الطريق، ولم يطلقوا النار، وعلى أي حال لم تصفر أية رصاصة عابرة قرب أذني. وكانت تصدر المطاردة كتائبنا الترية التي تتميز جياها بالسرعة والقوة. علماً أن جوادي الذي عض على الزمام بنواجذه لم يتخلف عنها. وكنت أجد صعوبة في كبح جماحه. وتوقف عند جثة شاب تركي ملقاة على قارعة الطريق. وبدا في سن ١٨ عاماً. واحتفظ وجهه الشاحب الأنثوي بوسامته ولم يصبه التشوه. وكانت عمامته مرمية في التراب. وقد أصابت رصاصة قذاله الحليق. وانطلقت بجوادي خيباً. وسرعان ما لحق بي رايفسكي. وكتب بقلم الرصاص على قصاصة ورق رسالة إلى الكونت باسكيفتش يبلغه فيها بهزيمة العدو التامة وواصل السير في طريقه. بينما كنت اتبعه عن بعد. لقد أصاب جوادي التعب وتخلف في السير وأخذ يتعثّر في كل خطوة. وأمر الكونت

باسكيفتش بعدم التوقف عن المطاردة وتولى قيادتها بنفسه. ومرت بي فصائلنا من الفرسان ورأيت العقيد بولياكوف قائد مدفعية القوزاق التي مارست في ذلك اليوم دوراً هاماً في المعركة، ووصلت معه إلى بلدة مهجورة نزل فيها الكونت باسكيفتش، الذي أوقف المطاردة بسبب حلول الليل.

وجدنا الكونت أمام النار فوق سطح بيت كالقبو. وجرى اقتياد الأسرى إليه. وكان يستجوبهم. كما اجتمع هناك جميع القادة تقريباً. وأمسك القوزاق بأعنة جيادهم. وأضائت النار مشهداً جديراً بسلفادور - روزا، بينما سمع خرير ماء جدول في الظلام. وفي تلك اللحظة أبلغوا الكونت بأنه أخفي في القرية احتياطي البارود ويجب التزام الحذر من احتمال وقوع انفجار. فترك الكونت البيت سوية مع حاشيته. وتوجهنا إلى معسكرنا الذي اقيم في مكان يبعد ٣٠ فرستا عن الموضع الذي بتنا فيه. وكان الطريق مزدحماً بفصائل الفرسان. وحالما وصلنا الى المكان أضيئت السماء بغثة بنور ساطع كالشهاب، وسمعنا صوت انفجار مكتوم. وتطايرت في عنان المساء أجزاء البيت الذي خلفناه ورائنا قبل ربع ساعة. وكان فيه احتياطي البارود. واصابت الحجارة المتطايرة عدة قوزاقيين.

هذا كل ما استطعت مشاهدته في ذلك الوقت. وفي المساء علمت بأنه تم في تلك المعركة إلحاق الهزيمة بالقائد العسكري (سيراكسير) لأضروم الذي توجه للإنضمام إلى حقي - باشا على رأس قوات تتألف من ٣٠٠٠٠ مقاتل. وهرب القائد العسكري إلى ارضروم. أما قواته التي انسحبت إلى ما وراء ساغان-لو فقد تبعثت وتم الاستيلاء على المدافع بينما بقي حقي باشا وحده في قبضتنا. ولم يمنحه الكونت باسكيفتش الفرصة لإعطاء الأوامر.

الباب الرابع

المعركة مع حقي باشا. مصرع بيك تتري. الخنثى. الباشا الأسير. اراكس. جسر الراعي. قلعة غسان. الينوع الحار. الزحف على ارضروم. المفاوضات. الإستيلاء على ارضروم. الأسرى الأتراك. الدراويش.

في اليوم التالي إستيقظ المعسكر عند الساعة الخامسة وصدر الأمر بالزحف. عندما خرجت من الخيمة التقيت الكونت باسكيفتش الذي نهض من رقاده قبل الجميع. فرآني. وقال بالفرنسية: «ألم تتعب بعد ما جرى يوم أمس؟- قليلاً، أيها السيد الكونت. - إنني أحزن من أجلك، إذ يتوجب القيام بزحف آخر، بغية اللحاق بالباشا، وبعد ذلك يجب مطاردة العدو مسافة ثلاثين فرستا أخرى».

انطلقنا في الزحف ولدى حلول الساعة الثامنة بلغنا مرتفعاً يرى منه معسكر حقي باشا كما في راحة اليد. وأطلق الأتراك نيران المدفعية كلها من دون إيقاع إصابات. في الوقت نفسه لوحظت تحركات كبيرة في معسكرهم. وأرغم التعب وسخونة الصباح الكثير منا على الترجل من الجياد والإضطجاع على العشب الندي. ولففت العنان على يدي واستغرقت في غفوة حلوة في انتظار صدور الأمر بالسير إلى الأمام. وبعد مضي ربع ساعة أيقظوني. وسادت الحركة في كل

مكان. من جانب كانت الطواير تزحف نحو المعسكر التركي، ومن جانب آخر إستعدت فصائل الفرسان لملاحقة العدو. وكنت أود مرافقة كتيبة فرسان نيحني نوفغورود لكن جوادي كان يعرج. فتخلفت عن الركب. وانطلقت بمحاذاة كتيبة الفرسان (اولان). ثم مضى مسرعاً فوألخوفسكي مع ثلاثة مدافع. ولقيني فارس (دراغون) وأبلغني أن الغابة مليئة بالأعداء. فقفلت راجعاً. ولقيت الجنرال مورافيوف مع كتيبة المشاة. فوجه سرية إلى الغابة من أجل تطهيرها. وعندما اقتربت من الوهدة رأيت مشهداً غير عادي. فقد رقد تحت شجرة أحد البيكوات التتر من رجالنا الذي أصيب بجرح قاتل. وكان ينتحب إلى جواره رفيقه المحبوب. بينما كان الملا راكعاً ويتلو الصلوات. أما البيك الذي نازع سكرات الموت فقد بدا هادئاً للغاية وتطلع بلا حراك إلى صديقه الشاب. وتجمع في الوادي الضيق ٥٠٠ أسير. وصار بعض الأتراك الجرحى يطلبون مني بالإشارات بالمجيء إليهم، ربما اعتقدوا أنني طيب وطلبوا تقديم الإسعاف لهم وهو ما لم أكن أستطيع تقديمه. وخرج من الغابة تركي يضغط على جرحه بخزقة مدماة. واقترب منه الجنود بغية طعنه بالحرا، ربما رفقا به كإنسان. ولكن هذا أثار غضبي للغاية، ودافعت عن التركي المسكين واقتدته عنوة، وقد أصابه الإنهاك والدم يتدفق منه، إلى شلة من رفاقه. وجلس في وسطهم العقيد انريب. وكان يدخن بمودة من غلايينهم بالرغم من الشائعات حول انتشار الطاعون في المعسكر التركي. جلس الأسرى وهم يتبادلون الحديث بصوت خافت فيما بينهم. لقد كانوا جميعاً في ريعان الشباب. وبعد فترة استراحة واصلنا السير. وطوال الطريق شاهدنا الجثث ملقاة هناك. وجدت على مسافة ١٥ فرستا كتيبة فرسان نيحني نوفغورود، التي توقفت على ضفة النهر وسط الصخور. واستمرت الملاحقات عدة ساعات أخرى. وبحلول المساء

وصلنا إلى واد تحيط به الغابات الكثيفة، واستطعت في نهاية المطاف النوم كما يحلو لي، بعد أن قطعت خلال اليومين الماضيين مسافة تربو على ثمانين فرستا.

في اليوم التالي تلقت القوات التي تطارد العدو أمراً بالعودة إلى المعسكر. وهناك عرفنا بأنه يوجد بين الأسرى شخص خنثى. وأمر رايفسكي تلبية لطلبي بإقتياده إلينا. فرأيت رجلاً فارغ الطول ضخماً الجثة له وجه فنلندي وافطس الأنف، وفحصناه بحضور الطبيب.

*Erat vir mammosus ut femina habebat t. non
evolutos p. que parvum et puerilem. Quaerebamus sit ne
exsectus?—Deus respondit castravit me^(١٤)*

وهذا الداء الذي عرفه هيو قراط غالباً ما يلاحظ، بشهادة الرحالة، لدى التتر الرحل والأتراك. والخصي هي التسمية التركية لمثل هؤلاء الخنثى.

كانت قواتنا ترابط في المعسكر التركي الذي سيطرنا عليه في العشية. وكانت خيمة الكونت باسكيفتش قد نصبت بالقرب من الخيمة الخضراء للباشا حقي الذي أسره رجالنا القوقاز. فذهبت إليه ووجدته محاطاً بضباطنا. كان جالساً ضاماً ساقيه وهو يدخن الغليون. وبدأ الباشا في سن الأربعين تقريباً. وظهرت على وجهه الوسيم سمات الوقار والهدوء العميق. وعندما وقع في الأسر طلب تقديم قدح قهوة له وعدم إزعاجه بالأسئلة.

١٤.. كان رجلاً له ثدي امرأة وعضو تناسلي ضامر وطفولي. وسألناه فيما إذا أخصي، فأجاب ان الرب اخصاني. (باللاتينية)

كنا نرابط في الوادي. وأصبحت جبال ساغان-لو المغطاة بالثلوج والغابات خلفنا. وزحفنا قدماً إلى الأمام من دون أن نلقى العدو في أي مكان. وكانت البلدات خالية من السكان. وجانب الأرياف بائس. وشاهدنا نهر اراكس الذي يجري بسرعة عند ضفافه الصخرية. ويوجد جسر على بعد ١٥ فرستا عن قلعة غسان شيد بشكل رائع وبجسارة فوق سبعة قناطر غير متساوية الأبعاد. وتروي الأساطير أن بانيه كان راعياً كسب الثروة، وتوفي منعزلاً موحشاً فوق ذروة التل حيث يشار حتى اليوم إلى قبره الذي تظلمه شجرتا صنوبر منعزلتان. ويأتي إليه سكان القرى المجاورة للزيارة باعتباره مكاناً مقدساً. ويسمى الجسر تشابان - كبري (جسر الراعي). ويمر عبره الطريق إلى تبريز.

وزرت على بعد عدة خطوات من الجسر الأطلال المعتمة لمسافر خانة. ولم أجد فيها أحداً سوى حماراً مريضاً، ربما تركه هناك النزلاء الوافدون إليه.

في صباح يوم ٢٤ يونيو توجهنا إلى قلعة غسان، القلعة القديمة، التي سيطر عليها في العشية الأمير بيكوفيتش. وكانت تبعد مسافة ١٥ فرستا عن المكان الذي بتنا فيه. وقد أتعبني السفر الطويل. وكنت آمل في أخذ قسط من الراحة. ولكن حدث ما بعث الخيبة في نفسي.

فقبيل زحف قوات الفرسان جاء إلى معسكرنا الأرمن القاطنون في الجبال مطالبين بحمايتهم من الأتراك الذين سرقوا ماشيتهم قبل ثلاثة أيام. وتصور العقيد انريب الذي لم يفهم جيداً مطالبهم أن فصيلة تركية توجد في الجبال فانطلق مع سرية من كتيبة فرسان (اولان)، وأبلغ رايفسكي بان هناك ٣٠٠٠ تركي في الجبال. وتبعه رايفسكي من

أجل اسناده في حالة الخطر. ووجدت نفسي أيضا في وضع الذهاب في مأمورية لتنفيذ مهمة مع كتيبة فرسان نييجني نوفغورود وانطلقت ببالغ الأسف إلى هناك من أجل تحرير الأرمن. وبعد ان قطعنا مسافة ٢٠ فرستا وصلنا إلى قرية وجدنا فيها بعض فرسان (اولان) يطاردون شاهرين سيوفهم عدة دجاجات. وشرح أحد أبناء القرية لرايفسكي أن المقصود بالأمر ٣٠٠٠ ثور ساقها الأتراك قبل ثلاثة أيام ويمكن بسهولة جداً اللحاق بهم بعد يومين. وأمر رايفسكي فرسان (اولان) بالتوقف عن مطاردة الدجاج وبعث إلى انريب أمراً بالعودة. وقفنا راجعين، وبعد عبور الجبال، وصلنا إلى أطراف قلعة غسان. وبهذا قمنا بحركة التفاف لمسافة ٤٠ فرستا من أجل إنقاذ حياة عدة دجاجات أرمنية، وهو ما بدا لي أمرا غير مسل البتة.

تعتبر قلعة غسان مفتاح ارضروم. وقد شيدت المدينة في أسفل صخرة تتوجها القلعة. وكان يقطن فيها حوالي مائة أسرة أرمنية. ونصب معسكرنا في أرض منبسطة واسعة تنداح أمام القلعة. وهناك زرت المبنى الحجري الدائري الذي يوجد فيه نبع الكبريت الأصفر الساخن.

يبلغ قطر الحوض الدائري حوالي ثلاث ساجينات (الساجين يعادل ٦ اقدم). وسبحت عبره مرتين وفجأة شعرت بدوار في الرأس وغثيان، وبعد جهد استجمعت قواي للخروج إلى الطرف الحجري للنبع. إن هذه المياه تشتهر في الشرق لكن الأهالي الذين لا يوجد لهم أطباء محترمون يستخدمونها كيفما اتفق، وفي أغلب الظن، من دون تحقيق نجاح كبير.

يجري عند أسوار قلعة غسان نهر مورتس. وتغمر ضفافه مياه

الينابيع الحديدية التي تتدفق من تحت الصخور وتصب في النهر. ومذاق الماء فيها غير طيب مثل مياه نازران القوقازية، وتفوح منها رائحة النحاس.

في ٢٥ يونيو، في يوم عيد مولد جلاله الإمبراطور، أدت الأفواج الصلوات في معسكرنا تحت أسوار القلعة. وفي فترة الغداء عند الكونت باسكيفتش حيث رفعت الأنخاب في صحة صاحب الجلالة أعلن الكونت بدء الزحف على أرضروم. وفي الساعة الخامسة مساءً تحركت القوات.

في ٢٦ يونيو وقفنا في الجبال على مسافة خمسة فرسات عن أرضروم. وتطلق على هذه الجبال تسمية آق-داغ (الجبال البيض)، وهي من الحجر الجيري. ووخز عيوننا الغبار الأبيض اللامع، وكان منظرها الحزين يبعث على السأم. لكن بعث الطمأنينة في نفوسنا قرب أرضروم واليقين بانهتاء الحملة العسكرية.

في المساء ذهب باسكيفتش لتفقد المواقع. وأخذ الفرسان الأتراك، الذين كانوا يحومون حول مواقعنا طوال النهار، يطلقون النيران. وهددهم الكونت مراراً بسوطه، دون أن يكف عن محادثة الجنرال مورافيوف. ولم يرد أحد على إطلاق رصاصهم.

بينما ساد الإضطراب الشديد في أرضروم. وروج القائد العسكري التركي الذي جاء الى المدينة بعد هزيمته إشاعات عن القضاء على الروس تماماً. وفي أعقابه نقل الاسرى الذين اطلق سراحهم نداء الكونت باسكيفتش إليهم. واتهم الهاربون السيراكسير التركي بالكذب. وسرعان ما علموا باقتراب الروس عاجلاً. وأخذ الناس يتحدثون عن الإستسلام. أما السيراكسير التركي وأفراد قواته فكانوا

يفكرون في الدفاع. وحدث تمرد. وقتل الحشد الغوغائي الغاضب عدة أفراد من «الفرنجية»^(١٥).

وجاء إلى معسكرنا (صباح ٢٦ يونيو) نواب الشعب والسيراسكير، وجرت مفاوضات طوال اليوم، وفي الساعة الخامسة مساءً توجه النواب إلى أرضروم ومعهم الأمير بيكوفيتش الذي يعرف جيداً اللغات والعادات الأسيوية.

وفي صباح اليوم التالي زحفت قواتنا إلى الأمام. وكانت بطارية مدفعية تركية ترابط فوق ذروة توب-داغ من الجهة الشرقية لأرضروم. وزحفت الأفواج نحوها وردت على إطلاق النار من جانب الأتراك بقرع الطبول وعزف الموسيقى. فهرب الأتراك وتم الاستيلاء على توب-داغ. وقد ذهبت إلى هناك برفقة الشاعر يوسفوفيتش. فوجدنا في موقع البطارية التي انسحب منها الأتراك الكونت باسكفيتش مع حاشيته. وبدت في الوادي من أعالي الجبل أرضروم بقلعتها ومنايرها وحقولها الخضراء المتراسة الواحد فوق الآخر. وكان الكونت فوق صهوة جواده. فيما جلس على الأرض النواب الأتراك الذين جاءوا بمفاتيح المدينة. ولكن لوحظ الإضطراب في أرضروم. وفجأة برقت النار فوق السد الترابي للمدينة، وتعالى عامود دخان، وانطلقت القذائف نحو توب-داغ. ومرق بعضها فوق رأس الكونت باسكفيتش. فقال لي بالفرنسية:

Voyez les Turcs, on ne peut gfmais se fier à eux^(١٦).

١٥. ربما المقصود الفرنسيون الذين كانوا ضمن القوات (المترجم).

١٦. انظر الى هؤلاء الأتراك.. لا يمكن الوثوق بهم ابداً (المترجم).

وفي تلك اللحظة جاء الى توب- داغ على صهوة جواده الأمير بيكوفيتش، الذي كان في ارضروم منذ يوم أمس لإجراء المفاوضات. فأعلن أن السيراسكير (القائد التركي) والناس وافقوا على الإستسلام منذ وقت طويل، لكن بعض أفراد الأرنأووط العصاة بقيادة طوبجي - باشا استولوا على البطاريات في المدينة ومردوا. وجاء الجنرالات إلى الكونت راجيا السماح لهم بإرغام بطاريات المدافع التركية على السكوت. وكرر الرجاء نفسه وجهاء ارضروم الجالسون تحت نيران مدافعهم. ولم يجب الكونت برهة من الزمن، وفي نهاية المطاف أعطى الأمر قائلاً: «كفى عبثاً». وعلى الفور جلبت المدافع وبدأ القصف وخدمت نيران مدفعية العدو شيئاً فشيئاً. ودخلت أفواج قواتنا إلى ارضروم، وفي ٢٧ يونيو رفعت الراية الروسية فوق قلعة ارضروم.

توجه رايفسكي إلى المدينة، فرافقته. ودخلنا المدينة، وانبجس أمامنا مشهد عجيب. كان الأتراك يتطلعون إلينا بعبوس من سطوح منازلهم المستوية. بينما احتشد الأرمن في الأزقة الضيقة وسط الضجيج. وكان أطفالهم يركضون أمام خيولنا وهم يرسمون علامة الصليب ويكررون: مسيحيون! مسيحيون! واقتربنا من القلعة التي دخلت إليها مدفيعتنا، ولدهشتي البالغة وجدت هناك صديقي ارتيمي، يتجول في المدينة، بالرغم من الأمر الحازم الصادر بعدم الخروج من القلعة من دون رخصة خاصة.

شوارع المدينة ضيقة وملتوية. والمباني عالية جداً. والناس كثيرون، - والدكاكين مغلقة. وأمضينا في المدينة حوالي ساعتين ثم رجعنا إلى المعسكر. وكان هناك السيراسكير مع أربعة من الباشاوات الذين وقعوا في الأسر. وتحذث مع جنرالنا بحيوية أحد الباشاوات، وهو شيخ نحيف البنية، وجم النشاط بإفراط. وعندما رأني بالفراك سأل

من أكون. فأعطاني بوشين لقب شاعر. فوضع الباشا راحة يده على صدره وانحنى لي، وقال عبر المترجم: «تباركت الساعة التي التقيت فيها الشاعر. الشاعر أخ الدرويش. ولا يوجد له وطن، ولا خيرات الدنيا. وفيما نحن، التعساء، نهتم بالمجد والسلطة والكنوز، يقف هو على قدم المساواة مع أصحاب الأمر والنهي في الأرض ويسجد الناس له».

إن هذه التحية الشرقية للباشا أثارت فضولنا جميعاً. وتوجهت لإلقاء نظرة على السيراسكير. وعندما ولجت خيمته رأيت غلامه المحبوب، وهو صبي أسود العينين في الرابعة عشرة من العمر، يرتدي زي الأرنأووظ الثمين. وجلس السيراسكير، وهو شيخ وخط الشيب شعر رأسه، ومظهره اعتيادي جداً، في حالة كآبة شديدة. وكان معه حشد من ضباطنا. وعندما غادرت خيمته رأيت شاباً نصف عار يضع على رأسه قلنسوة من فرو الضأن ويحمل هراوة بيده وعلى كتفيه عباءة فرو. وهو يصرخ بأعلى صوته. وقيل لي أنه أخي، الدرويش، جاء لتحية المنتصرين. وجرى إبعاده عنوة.

الباب الخامس

ارضروم. الترف الأسيوي. الطقس. المقبرة. قصائد ساخرة. قصر السراسكر.
حريم الباشا التركي. الطاعون. مصرع بورتسوف. مغادرة ارضروم. في طريق
العودة. المجلة الروسية.

تأسست ارضروم (وتسمى خطأ ارضيروم وايرضروم وارضرون)
في حوالي عام ٤١٥ في زمن ثيودوسيوس الثاني وسميت ثيودوسيبول.
لكن تسميتها لا تبعث أية ذاكرة تاريخية. وعرفت فقط عنها، حسب
رواية حاجي - بابا، بأنه جلب هنا إلى المبعوث الفارسي، كدية مقابل
إساءة ما، أذنا عجل بدلا من أذني إنسان.

وتعتبر ارضروم المدينة الرئيسية في القسم الأسيوي من تركيا.
وكان يقطن فيها حتى ١٠٠٠٠٠ نسمة، لكنني أعتقد أن هذا الرقم
مبالغ فيه جداً، والمباني فيها حجرية وسطوحها مكسية بالعشب، مما
يمنح المدينة منظرًا غريباً جداً لدى النظر إليه من مكان عال.

ويعبر ارضروم طريق التجارة البري الرئيسي بين أوروبا والشرق.
لكن السلع التي تباع فيها قليلة. فهنا لا يعرضونها للبيع، وهذا ما
لاحظه الرحالة تورنفور حيث كتب يقول أن المريض في ارضروم

يمكن أن يموت بسبب عدم حصوله على ملعقة من عقار الراوند، بينما تتوفر منه أكياس كثيرة في المدينة.

إنني لا أعرف عبارة أسخف من عبارة: الترف الشرقي. وفي أغلب الظن أن هذه العبارة التي أصبحت مضرب الأمثال في فترة الحملات الصليبية، حين ترك الفرسان الجدران العارية ومقاعد خشب البلوط في قصورهم، ورأوا لأول مرة الدواوين الحمراء، والسجاجيد الملونة والخناجر المرصعة مقابضها بالأحجار الكريمة. والآن يمكن القول إن الترف الشرقي أصبح، طبعاً، ملكاً لأوروبا. وفي ارضروم لا يمكن أن يشتري بأية نقود ما قد يتوفر في دكان صغير في قضاء ما بمحافظة بسكوف الروسية.

الطقس في ارضروم قاس. فقد شيدت المدينة في واد يرتفع فوق سطح البحر بمقدار ٧٠٠٠ قدم. والجبال المحيطة بها تغطيها الثلوج خلال فترة طويلة من العام. والأرض خالية من الأشجار لكنها خصبة. ويرويهما الكثير من الينابيع وتمتد من كل مكان أنابيب الماء. وارضروم مشهورة بمياهها. والفرات يجري من موضع يبعد ٣ فرسات عن المدينة. والنوافير كثيرة في كل مكان. وفي كل واحدة منها يتدلى قدح من سلسلة، والمسلمون الطيبون يشربون منها من دون اذ جاء آيات المدح والثناء. وتجلب الأخشاب من ساغان-لو.

وعثر في ترسانة السلاح في ارضروم على كمية كبيرة من الأسلحة والخوذ والدروع والسيوف القديمة التي علاها الصدأ وتعود في أغلب الظن إلى أزمان جو د فريد^(١٧). والمساجد منخفضة ومعتمة. وتوجد مقبرة خارج المدينة. وتألّف شواهد القبور عادة من ألواح عامودية

١٧. ملك الدانمارك (الترجم).

ترزينها عمامة منحوتة من الحجر. وتتميز أضرحة إثنين أو ثلاثة من أضرحة الباشاوات بتزويق أكبر، لكنها تخلو من أي جمال: إنها بلا أي ذوق، وأي فكرة... وكتب أحد الرحالة أن ارضروم تتميز من بين جميع المدن الأسيوية بوجود برج ساعة فيها، لكنها كانت عاطلة عن العمل.

إن إجراءات التحديث التي قام بها السلطان لم تصل إلى ارضروم بعد. فالقوات ما زالت بزيها الشرقي المزوق. وتنافس ارضروم والقسطنطينية كتنافس قازان وموسكو. وأورد أدناه القصيدة التي نظمها الجندي اليانيتشار العثماني أمين - أوغلو:

الكفار يمجدون اليوم اسطنبول،

وغدا يأتون مدججين بالسلح

ويدوسونها بكعوبهم كالافعى النائمة،

ثم ينصرفون- ويتركونها على هذا الحال.

اسطنبول رقدت هامة قبيل النكبة.

إسطنبول تخلت عن النبي

وكدر الغرب الماكر الحقيقة فيها عن الشرق العريق.

من أجل المتعة خانت إسطنبول الصلاة والسيف.

إسطنبول نسيت عرق المعركة

وراحت تشرب الخمرة في وقت الصلاة.

لقد خمدت في إسطنبول حرارة الإيمان الخالص،
وصارت النساء فيها ترتاد المقابر.
وترسل العجائز إلى مفترقات الطرق،
لكي يقتدن الرجال إلى حرمة الحرم،
بينما يغفو الخصي المرتشي.

لكن ارضروم الجبلية ليست بهذا الحال،
ارضروم مدينتنا ذات الطرق الكثيرة.
نحن لا ننام في ترف العار
ولا نحتمي بلا توقف كأس العقوق
من الخمرة والعهر والنار والصخب.

نحن نصوم: يقدم لنا الماء المقدس من دون أن نسكر
وينطلق فرساننا الى المعركة
بحشد سريع من الرجال البواسل،
أما الحرم عندنا فهو مصون
والخصيان لا يباعون، ولا يشترون،
وتجلس النساء هناك بوداعة وطمأنينة.

كنت أظن في قصر السيراسكير في الحجرات التي كانت تابعة للحریم. وكنت أتسكع طوال اليوم في الممرات العديدة، من غرفة الى غرفة، ومن سطح إلى سطح، ومن سلم الى سلم. وبدا كما لو أن القصر قد نهبه اللصوص، فإن السيراسكير قد نقل منه كل ما يمكن لدى استعداده للهرب. وكانت الدواوين ممزقة، ورفعت السجاجيد. وعندما تجولت في المدينة كان الأتراك يشتموني ويبرزون ألسنتهم لي. (إنهم يعتبرون كل أفرنجي طيباً). وقد سئمت من ذلك، وكنت مستعداً للرد بالمثل. وأمضيت يوم أمس برفقة سوخوروكوف الذكي والطيب القلب، وجمعت ما بيننا تقارب الإهتمامات. وقد حدثني عن مشاريعه وتوقعاته الأدبية، وعن دراساته التاريخية، التي بدأ بها في وقت ما بكل حماس وتوفيق. إن رغباته ومطالبه المتواضعة مؤثرة حقاً. وسيكون مؤسفاً إذا لم تتحقق.

يبدو قصر السيراسكير كلوحة مترعة بالحوية: هناك حيث يدخن الباشا العابس بصمت وسط زوجاته وغلمانه الفاسقين، كان الكونت الظافر يتلقى البلاغات حول انتصارات جنرالاته، ويوزع الولايات، ويتحدث عن مغامراته الغرامية الجديدة. وجاء باشا من طائفة موشا الأرمنية إلى الكونت باسكيفتش راجياً منح منصب إلى ابن أخيه. ولدى التجول في القصر وقف هذا التركي الوقور في إحدى الغرف واستغرق في التأمل: ففي هذه الغرفة قطع رأس والده بأمر من السيراسكير. إنها تأملات شرقية حقيقية! وجاء إلى أرضروم باي بولات الذائع الصيت، الذي بعث الرعب في القوقاز، وكان يرافقه إثنان من زعماء القرى الشركسية المنتفضة خلال الحروب الأخيرة. وتناول الغداء لدى الكونت باسكيفتش. وباي بولات، رجل في الخامسة والثلاثين من العمر، قصير القامة وعريض المنكبين. ولم يتحدث بالروسية أو تظاهر

بأنه لا يتحدث بها. وقد سرتني كثيراً بحبته إلى ارضروم: إذ كان ضماناً عبوري الآمن للجبال واقلیم قبردا.

وطلب عثمان باشا، الذي أسرف في ارضروم وأرسل سوية مع السيراسكير إلى تفليس، من الكونت باسكيفتشس أن يضمن سلامة نساء حريمه اللواتي بقين في ارضروم. وفي الأيام الأولى نسي أمرهن. وحدث مرة في أثناء تناول الغداء أن جرى الحديث عن الهدوء في المدينة الإسلامية التي احتلها ١٠٠٠٠٠ عسكري، ولم يجأر أي واحد من أهاليها بالشكوى من تعسف الجنود. وعندئذ تذكر الكونت باسكيفتشس حريم عثمان باشا وأمر السيد (أ) بالذهاب إلى بيت الباشا والإستفسار من زوجاته فيما إذا كن بخير ولم تقع أية إساءة بحقهن. فرجوت أن ارافق السيد (أ). وتوجهنا معاً. واصطحب السيد (أ) معه كترجم ضابطاً روسياً له قصة طريفة. إذ قد وقع هذا الضابط في الأسر لدى الفرس وكان في سن ١٨ عاماً. فأخضوه وقضى أكثر من ٢٠ عاماً في خدمة حريم أحد أبناء الشاه. وتحدث عن مصيبته وعن معيشته في بلاد فارس بصفاء قلب مؤثر. كما أن أقواله كانت ثمينة من الناحية الفسيولوجية.

وصلنا إلى بيت عثمان باشا. واقتادونا إلى غرفة مكشوفة مرتبة خير ترتيب، وحتى بذوق رفيع - ونقشت على النوافذ الملونة زخارف من الآيات القرآنية. علماً أن أحد هذه النقوش قد بدا لي ذا مغزى معقداً جداً بالنسبة إلى نساء الحريم المسلمات وهو: الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر (ربما من سورة التوبة - المترجم). وقدموا لنا القهوة في أقداح مطعمة حواشيها بالفضة. وجاء شيخ ذو لحية بيضاء وقورة، هو والد عثمان باشا، ليعرب بإسم النساء عن الشكر إلى الكونت باسكيفتشس، - لكن السيد (أ) قال بشكل قاطع أنه أرسل إلى زوجات عثمان باشا ويريد أن يراهن لكي يتيقن من أنهن بخير في غياب زوجهن. وما كاد

أسير الفرس يترجم هذا القول حتى تملك الشيخ بلسانه تعبيراً عن الغضب، وأعلن انه لا يستطيع الموافقة على طلبنا البتة، وإذا ما عرف الباشا لدى عودته أن رجالاً غرباء شاهدوا زوجاته، فسيأمر بقطع رقاب الشيخ وجميع خدم الحرم. وأكد الخدم، ولم يكن بينهم أي خصي، أقوال الشيخ. لكن السيد (أ) بقي مصراً على رأيه. وقال لهم: «أنتم تخافون باشاكم، وأنا أخاف قائدي ولن أجزأ على عصيان أوامره». ما بقي في اليد من حيلة. فاقترادونا عبر الحديقة حيث وجدت نافورتان يتدفق منهما الماء بسيل ضعيف. واقترنا من مبنى حجري صغير. ووقف الشيخ بيننا والباب، وفتح بهذر، دون أن يرفع يده عن السقطة، فرأينا امرأة يغطيها حجاب أبيض من قمة الرأس وحتى الحذائين الأصفرين. وكرر مترجمنا عليها السؤال: وسمعنا تملك عجوز في السبعين من العمر، وقاطعها السيد (أ) قائلاً: هذه والدة الباشا، وأنا أرسلت إلى زوجاته، فابعثوا في طلب إحداهن». وعجب الجميع لحسد هؤلاء الكفار: إنصرفت العجوز وعادت بعد دقيقة مع امرأة محجبة أيضاً مثلها، وانطلق من وراء الحجاب صوت شابة ناعم وندي الجرس. فشكرت الكونت على رعايته للأرامل المسكينات وكالت الشاء لمعاملة الروس. وقد تمتع السيد (أ) بالفن والمهارة لمواصلة الحديث معها. وفي هذه الأثناء كنت اتطلع حوالي فرأيت فجأة خمسة أو ستة رؤوس مدورة تطل من كوة فوق الباب بعيون سوداء تنم عن الفضول. وأردت أن أبلغ اكتشافي إلى السيد (أ)، لكن الرؤوس اهتزت والعيون غمزت وهددتني أصابع بأن التزم الصمت. فأطعت ولم أكشف لقيتي. وكن جميع مليحات الوجه، لكن لم توجد بينهن حسناء واحدة. ويبدو أن المرأة التي كانت تحدث السيد (أ) عند الباب هي رئيسة الحرم، وكنز القلوب - وردة العشق - أو على أقل تقدير هذا ما تصورته في خيالي..

في نهاية المطاف أوقف السيد (أ) توجيه الأسئلة. وأغلق الباب.

واختفت الوجوه من الكوة. وتفقدا الحديقة والمبنى وعدنا راضين جداً عن بعثتنا.

وبهذا رأيت الحریم، وهو أمر لا يتسنى إلى أوروبی إلا فیما ندر. والیکم موضوع رواية غرامية شرقية.

بدا أن الحرب قد انتهت. وشددت الرحال للعودة. وفي ١٤ يوليو زرت الحمام الشعبي ولم أكن مبتهجاً بالحياة. فلعلت قذارة المناشف وحماسة الخدم وهلمجراً. وكيف يمكن مقارنة حمامات ارضروم بحمامات تفلیس!

عندما رجعت إلى القصر علمت من كونوفيتسين الذي كان يتولى الحراسة أن الطاعون بدأ ينتشر في ارضروم. وتصورت فوراً فظائع الحجر الصحي، وفي اليوم نفسه قررت ترك الجيش. إن الفكرة حول وجود الطاعون غير مسرة جداً بسبب عدم اعتياد ذلك. وبغية تخفيف تأثير هذا الإنطباع قمت بجولة في السوق (البازار). وتوقفت عند دكان صانع السلاح، واخذت بتفحص خنجر ما، وفجأة ضربني أحدهم في كتفي. فالتفت ورأيت أمامي شحاذاً بشع المظهر. كان شاحبا كالموت، وتساقطت الدموع من عينيه الحمراتين اللتين علاهما الصديد. وومضت في خاطري مجدداً الفكرة حول الطاعون. فدفعت الشحاذ بشعور من التقزز العسير على التفسير ورجعت الى القصر غير راض جداً عن نزهتي.

ومع هذا غلبني الفضول، وفي اليوم التالي ذهبت برفقة الطبيب إلى مخيم احتجاز المصابين بالطاعون. ولم أترجل من فرسي ولزمت الحذر بالوقوف باتجاه الريح. وجلب أحد المرضى من الخيمة. كان شاحباً للغاية ويتعثر في مشيته كالسكران. بينما كان المريض الآخر راقداً فاقد

الوعي. وبعد فحص المصاب بالطاعون والتمنيات له بالشفاء العاجل، لفت انتباهي إثنان من الأتراك اللذين اقتاده من إبطيه وخلعا عنه الملابس وتحسسا جسده، كما لو أن الطاعون لا يعني شيئا لهما، وكأنه مثل الزكام. واعترفت بأنني خجلت من مخاوفي الأوروبية بوجود مثل هذه اللامبالاة وعدت الى المدينة بسرعة.

في ١٩ يوليو جئت لتوديع الكونت باسكيفتشس، فوجدته حزينا جدا. فقد جاء خبر مؤسف حول مصرع الجنرال بورتسوف في أطراف بايورت. وأسفت لمصير بورتسوف الشجاع، لكن هذا الحدث يمكن أن يجلب الهلاك لجميع قواتنا القليلة العدد التي توغلت بعمق في أرض غريبة وتحيطها شعوب غير ودية مستعدة للإنتفاض لدى سماع الإشاعة حول وقوع أول هزيمة. وبذلك هل استأنفت الحرب! وطلب مني الكونت أن اكون شاهداً على الفعاليات التالية. لكنني كنت مسرعا في العودة الى روسيا.. وأهداني الكونت للذكرى حساماً تركيا. وأنا احتفظ به للذكرى عن جولاتي في أعقاب مسيرة هذا البطل اللامع في غزو براري أرمينيا. وفي اليوم نفسه غادرت ارضروم.

عدت إلى تفليس في الطريق المعروف لدي. وكان الصمت والحزن يسودان في الأماكن حيث كانت توجد منذ فترة قريبة قوات قوامها ١٥٠٠٠ رجل. وعبرت جبل ساغان-لو وبالكاد تعرفت على المكان الذي رابط فيه معسكرنا. وفي غومري تعرضت الى الحجر الصحي لمدة ثلاثة ايام. وشاهدت مرة أخرى بيزوبدال وغادرت السهول المرتفعة لأرمينيا الباردة وانتقلت إلى جورجيا ذات الجو القائظ. ووصلت إلى تفليس في ١ اغسطس. وبقيت هناك عدة أيام بصحبة طيبة ومرحة. وأمضيت عدة ايام في الحديقة حيث ترددت ألحان الموسيقى والأغاني الجورجية. وواصلت التدريب. وصادف عبوري الجبال هبوب عاصفة

بالقرب من كوبي ليلاً. وفي الصباح حين مررت بمحاذاة كازبيك رأيت منظرًا عجيباً: فقد كانت السحب البيضاء المتناثرة تنطلق عبر ذروة الجبل، وبدا لي الدير المنعزل المتألق تحت أشعة الشمس وكأنه يسبح في الهواء، وتحمله السحب. كما انتصب امامي بكل عظمته نهر بيشينايا بالكا: فالوهدة التي امتلأت بمياه الأمطار كانت غارقة بكميات من المياه تتفوق على نهر تيريك نفسه، الذي يتدفق بالعنف ذاته. وكانت الضفاف، والصخور الضخمة التي تحركت من مكانها، تسد المجرى. وعمل كثير من الأوسيتيين في تعبيد الطريق. وعبرت بسلام. وفي نهاية المطاف غادرتالوادي الضيق الى مفترق المنخفضات الواسعة في بولشايا قبردا. وفي فلاديقوقاز وجدت دور وخوف وبوشين. وكان الإثنان يسافران إلى المياه المعدنية للعلاج من الجروح التي أصابتهما خلال المعارك هناك. ووجدت عدة مجلات روسية على الطاولة لدى بوشين. وكانت أول مقالة جذبت انتباهي تتناول أحد مؤلفاتي. وتضمنت النقد العنيف لي ولأشعاري. واخذت أقرأها بصوت عال. لكن بوشين أوقفني مطالباً بأن أقرأ بفن إيمائي أكبر. وينبغي أن يعرف القارئ بأن التحليل النقدي كان مزيناً بالأمر المألوفة في نقدنا: أي كالحديث بين القندلفت وخبز المناولة والمصحح في المطبعة، والتفكير السليم في هذه الكوميديا الصغيرة. وبدا لي طلب بوشين مسلياً، وزالت تماماً الكآبة التي ولدتها في نفسي مطالعة مقالة المجلة، واستغرقتنا في القهقهة من أعماق القلب.

لقد كانت هذه أول تحية استقبلني بها وطني الطيب.

العربي ربيب بطرس الأكبر

نهضت روسيا

بإرادة بطرس الحديدية.

ن. يازيكوف

الباب الاول

أنا في باريس،

إنها الحياة وليس مجرد تردد
نبض الأنفاس.

دميتريف

مجلة «الرحالة»

كان العربي إبراهيم ربيب القيصر من بين الشباب الذين أرسلهم بطرس الأكبر إلى بلاد الغربية لكسب المعارف اللازمة للدولة الجاري تحديثها. وتلقى العلم في الكلية العسكرية في باريس، وتخرج منها برتبة رائد مدفعية، وأبدى الجرأة في الحرب الإسبانية، وأصيب بجروح خطيرة، وعاد إلى باريس. وكان الإمبراطور بالرغم من مشاغله الكثيرة لا يكف عن الإستفسار عن فتاه المحبوب، ويتلقى دوماً عبارات الشناء على نجاحاته وسلوكه. وكان بطرس راضياً عنه كل الرضى ودعاه عدة مرات إلى روسيا، لكن إبراهيم لم يعجل في السفر. لقد كان يتعلل بمختلف الذرائع، فمرة لكونه جريحاً، ومرة لرغبته في كسب المزيد من المعرفة، وتارة لعدم توفر النقود. وكان بطرس يسامحه لأعداره هذه، ويطلب منه العناية بصحته، ويشكره

على همته في الدراسة، ورغم حرص بطرس على النفقات لنفسه، فإنه لم يكن يبخل في فتح خزائنه له، ويرفق إرسال النقود بنصائحه الأبوية والتوصيات التحذيرية.

وبشهادة كافة المدونات التاريخية فإنه لم يكن هناك من يمكن أن يقارن بسلوك الفرنسيين في ذلك الزمان المتسم بالرعونة الطائشة. ولم تترك أية آثار الأعوام الأخيرة لتربع لويس الرابع عشر على العرش التي شهدت إلتزام البلاط بالورع الشديد والوقار والإحتشام. أما دوق اورليان الذي اتصف بكثير من الخصال الحميدة الرائعة، فقد جمع معها شتى أصناف العيوب، ولسوء الحظ كان يظهرها علانية بلا أي ظل للنفاق. علماً أن حفلات العريضة والتهاكت في باليه - رويال^(١٨) لم تكن خافية عن أهل باريس. وقد حذا الآخرون حذو هذا المثل. وفي ذلك الوقت ظهر لآو. واقرن الجشع لكسب المال بالتعطش إلى التمتع باللذائذ والخلو من الهموم وشروود البال. وكانت الضياع تختفي، والأخلاق تنهار، والفرنسيون يضحكون ويأملون، أما الدولة فكانت تنهار بمصاحبة ترجيعات الألحان اللعوب لتمثليات الفودفيل الهزلية الساخرة.

في الوقت نفسه كانت المجتمعات تقدم صورة طريفة للغاية. فأن الثقافة الواسعة والحاجة الى التسلية قد قربت بين جميع الأمور. الثروة واللباقة والشهرة والمواهب، ولعل أغرب شيء هو أن كل ما يغذي الفضول أو يعد بالمتعة، كان يقابل بعين الرضى بالقدر نفسه. فالأدب والعلم والفلسفة تركت صومعتها الهادئة وانضمت إلى جمهور العامة في مراعاة الموضة، ودعمها بالأفكار. وهيمنت النساء، ولم يطلبن

١٨. القصر الملكي مقابل اللوفر في باريس (المترجم).

وقتئذ الإعجاب بهن. وحلت اللباقة الشكلية محل الإحترام العميق. وطويت في صفحات التاريخ الأعيب الدوق ريشيليو، الكيبيادس الاثيني الجديد، التي تعطي مفهومه حول الأخلاق في زمانه:

ذاك الزمن السعيد، حين سادت استباحة الاخلاق والعادات،

وعندما اجتاح فرنسا كلها بخطوات خفيفة

الجنون مطلقاً الأزيز بالخشخشة،

وعندما لم يردد أي واحد الصلوات،

وعندما كان الجميع مستعدين لأي شيء غير اعلان التوبة. (بالفرنسية)

لقد جذب الإنتباه في باريس كلها ظهور إبراهيم، بطلعته البهيه، ومعارفه الواسعة، وذكائه الفطري. ورغبت جميع السيدات في استضافة ^(١٩) *le Negre du czar* وتلقفنه بالأيدي، ودعاه الوصي على العرش مراراً إلى أمسياته المرحه. كما حضر مآدب العشاء المترعة بفتوة اريت وبشيخوخة شوليه، وبأحاديث مونتسكيو وفونتنبيل، ولم يفوت أية حفلة بالو، وأي عيد، وأي أول عرض مسرحي وسار مع التيسار العام بكل توقد المشاعر في سنه وارومته. لكن كان ما يخيف إبراهيم ليس استبدال هذه التسليه الرائعة بالتواضع الصارم للبلاط في بطرسبورغ. فقد كانت هناك أواصر قوية أخرى تربطه بباريس. إذ وقع الإفريقي الشاب في الغرام.

لقد ذاع صيت الكونتيسة (د)، التي لم تكن في مقتبل العمر، لجمالها

١٩. زنجي القيصر - بالفرنسية (المترجم).

أيضاً. وعندما كانت في السابعة عشرة من العمر، ولدى خروجها من الدير، زوجها من شخص لم تجد الوقت بعد لمبادلتها الحب، كما أنه لم يصبو الزوج الى ذلك لاحقاً ابداً. وترددت الإشاعات حول وجود عشاق لها، لكنها تمتعت بسمعة طيبة في أوساط المجتمع المتسامح، حيث لم يوجه اليها اللوم بالتورط في مغامرة ما مضحكة أو مغرية. وكان بيتها من أكثر البيوت مسaire للموضة. وضم في جنباته خيرة مجتمع باريس. وقدم إبراهيم إليها الشاب ميرفيل، الذي يعتبر عموماً آخر عشاقها، وهو ما كان يسعى لإظهاره بكل الوسائل.

استقبلت الكونتيسة إبراهيم بوقار واحترام، ولكن بدون أي اهتمام على الأخص: وهذا ما أشبع غروره. وعادة كان الجميع ينظرون الى الزنجي الشاب بكونه أعجوبة، وكانوا يلتفون حوله، ويمطرونه بالتحيات والأسئلة، لكن هذا الفضول، بالرغم من كونه يتوشح برداء اللطف، يولد فيه الشعور بأن كبريائه قد جرحته. أما الرعاية الحلوة للنساء، والتي تعتبر الهدف الوحيد لمساعينا، فلم تبعث جذوة من البهجة في قلبه، بل حتى ملأته لوعة وغيظاً. وشعر بأنه بالنسبة لهم مجرد حيوان نادر ما، ومخلوق غريب خاص، ظهر في العالم بالصدفة، ولا توجد لهم أية علاقة به. أنه حتى شعر بالحسد حيال الأشخاص الذين لا يهتم بهم أحد، واعتبر حقارتهم هناءاً.

إن التفكير في أن الطبيعة لم تخلقه من أجل مبادلة الحب، قد خلصته من الغرور والسعي إلى حب الذات، مما أكسبه البهجة النادرة في القدره على التعامل مع النساء. كان حديثه بسيطاً وهاماً. وقد اعجبت الكونتيسة (د) به، حيث أنها سئمت النكات المتواصلة والتلميحات الرقيقة للظرافة الفرنسية. وكان إبراهيم غالباً ما يزورها. فاعتادت شيئاً فشيئاً على مظهر الشاب الزنجي وحتى وجدت شيئاً

جذاباً ولطيفاً في هذا الرأس ذي الشعر المجعد، الذي ينبجس سواده وسط الباروكات المكسية بالبودرة في حجرة الضيافة لديها. (كان إبراهيم جريحاً ولف رأسه بمنديل بدلاً من وضع الباروكة). وقد بلغ سن السابعة والعشرين. كان فارغ الطول ومنتصب القامة، ونظرت إليه أكثر من حسناء بشعور ينم عن المودة والمجاملة أكثر من الفضول، لكن إبراهيم المتحامل على نفسه أما لم يلاحظ، كما لم ير أي تغنج. لكن عندما تلتقي نظراته بنظرات الكونتيسة، يزول عدم الثقة كلياً. فقد كانت عيناها تطفح بالطيبة الودودة، ومعاملتها له تتسم بالبساطة وعدم التكلف، مما يجعل من غير الممكن الإرتياب في أن فيها أي ظل للتصنع أو الهزاء.

لم يكن يدر في خلده الحب، - لكنه وجد حاجة في رؤية الكونتيسة في كل يوم. وكان يبحث في كل مكان عن لقاءات معها، وفي كل مرة بداله أن اللقاء معها هبة سقطت بغتة من السماء. وقد حدست الكونتيسة مشاعره قبله. ومهما قيل فإن الحب بلا أية آمال ومطالب يمس أفئدة النساء بشكل أصدق من جميع حسابات الغواية وتعليل النفس بالآمال. وكانت الكونتيسة بحضور إبراهيم تراقب جميع حركاته، وتستمع إلى جميع أقواله، وفي غيابه كانت تستغرق في التأملات وشرود الذهن المعتاد لديها... وكان ميرفيل أول من لاحظ هذا الميل المتبادل وقدم التهاني إلى إبراهيم. ولا يوجد ما يسعر لهيب الحب كملاحظات الدعم من قبل شخص آخر. الحب أعمى، وعندما لا يثق المرء بنفسه، يتشبث بعجلة بأي دعم. وشجعت إبراهيم كلمات ميرفيل. ولم يرد في خيال إبراهيم بعد الإحتمال في أن يمتلك المرأة الحبيبة، وإذا بالأمل ينير روحه فجأة، ووقع في الحب الجارف. وذهبت عبثاً ومحاولات الكونتيسة، بعد أن أفزعها الهياج العارم لشهوته

الجامحة، وأرادت كبحها بالحديث عن الصداقة وتقديم النصائح له بالتعقل، لكن أصابها الضعف نفسها. وتتابعت الهبات من قبلات وملاطفات غير الحذرة الواحدة تلو الأخرى. وأخيراً سيطرت عليها قوة العشق، الذي أوعزته لنفسها، وأصابها الوهن بفعله، فاستلست إلى إبراهيم المعجب بها...

لا يخفى أي شيء عن أنظار المجتمع ورقابته. وسرعان ما عرفت العلاقة الجديدة للكونتيسة. وأبدت بعض السيدات العجب إزاء هذا الخيار، واعتبره الكثيرون منافياً للطبيعة. وكان البعض يستغرق في الضحك، بينما رأى البعض في سلوكها عدم حذر لا يغتفر. وفي غمرة العشق الأولى لم يلاحظ إبراهيم والكونتيسة أي شيء، لكن سرعان ما بلغت مسامعهما النكات ذات المغزى للرجال والملاحظات اللاذعة للنساء. لكن تعامل إبراهيم الوقور والبارد مع الآخرين قد صانته حتى ذلك الحين من الهجمات. وتحملها بنفاد صبر، ولم يدر كيف يتم التصدي لها. أما الكونتيسة التي اعتادت على احترام المجتمع لها، فلم تستطع أن ترى ببرود كيف أصبحت مادة للإشاعات والأضحوكات. فصارت تشكو لإبراهيم وعيناها مخضلتان بالدموع، وانحست عليه باللائمة بمرارة، وتوسلت إليه ألا يقترب منها، بغية ألا تقودها إلى الهلاك الضجة المثارة عبثاً.

إن هذا الأمر الجديد قد شوش وضعها أكثر. وكشفت آثار الحب الطائش. أما تهديئة الخاطر وتقديم النصائح والإقتراحات فإنها استنفدت جميعاً ورفضت جميعاً. ورأت الكونتيسة قدوم الهلاك المحتوم وانتظرتة يائسة.

وحالما عرف أمر الكونتيسة بدأت الأقاويل تنتشر بقوة من جديد.

وصارت السيدات الحساسات تطلقن الآهات من الفظاعة. أما الرجال فأخذوا يضربون اخماسا بإسداس حول الطفل الذي ستلده الكونتيسة: هل سيكون أبيض أم أسود. وانهالت الأشعار الساخرة حول زوجها الذي كان الوحيد في باريس الذي لا يعرف ولا يشك في أي شيء.

واقتربت اللحظة المشؤومة. كانت الكونتيسة في حالة فظيعة. وكان إبراهيم يزورها يوميا. ورأى كيف كانت تضوى قواها الروحية والبدنية. وتذرف الدموع وتبدي مخاوفها مجدداً في كل لحظة. وفي نهاية المطاف شعرت بأولى الآلام. واتخذت التدابير بسرعة. وأبعد زوجها الكونتيس بطريقة ما. وجاء الطبيب. وكان الإتفاق قد تم قبل يومين مع امرأة فقيرة بأن تتخلى عن طفلها الوليد إلى آخرين، وأرسل مبعوث لجلبه. وبقي إبراهيم في الغرفة المجاورة لغرفة النوم حيث رقدت الكونتيسة التعيسة. وصار يصغي وأنفاسه محتبسة إلى أنينها وهمس الخادمة وأوامر الطبيب. وعانت من العذاب طويلا. وكان كل أنين يمزق نياط قلبه، وكل فترة سکون تغمره بالفزع... وفجأة سمع صراخ طفل، ولم يستطع جماح ابتهاجه، فافتحم غرفة الكونتيسة. كان الطفل الرضيع مستلقياً على الفراش بين قدميها. واقترب إبراهيم منه. واشتد وجيع قلبه. وبارك ابنه بيد مرتعشة. وابتسمت الكونتيسة بضعف ومدت إليه يدها الضعيفة.. لكن الطبيب خشى أن تتعرض المريضة إلى هزات شديدة جداً فابتعد إبراهيم عن سريرها. وتم وضع الطفل الوليد في سلة مغلقة وأخرج من البيت عبر سلم سري. و جلب الطفل الآخر ووضعوه في المهد في غرفة النساء. غادر إبراهيم القصر وقد غمره الهدوء لحد ما. وانتظروا عودة الكونت. وقد عاد في وقت متأخر، وعرف بالنهاية السعيدة لمعاناة زوجته، وكان راضياً جداً.

وهكذا فان الجمهور الذي كان ينتظر ضجة صاحبة مثيرة قد خابت آماله واضطر لتهدئة الخاطر بإطلاق النكات فحسب.

عادت الأمور الى مجاريها، أما إبراهيم فقد شعر بأن مصيره يجب ان يتغير وأن علاقته ستصل عاجلاً أو آجلاً إلى الكونت (د). وفي هذا الحال، ومهما حدث، فان هلاك الكونتيسة سيصبح محتوماً. إنه أحبها حباً جماً كما أحبته أيضاً، لكن الكونتيسة متقلبة المزاج وطائشة. ولم يكن أول عشيق لها. ويمكن أن يحل النفور والحقد في قلبها محل أدق المشاعر. وقد تنبأ إبراهيم مسبقاً باللحظة التي تظهر فيها البرودة، وهو لم ير حتى الآن الغيرة، لكنه تحسسها بشعور من الخوف. وتصور أن أوجاع الفراق يجب أن تكون أقل إيلاماً، وعقد النية على قطع العلاقة التعيسة، ومغادرة باريس والتوجه إلى روسيا، حيث كان ينتظره منذ وقت بعيد بطرس والشعور الدفين بواجبه.

الباب الثاني

لا ينعم الجمال باللطف الشديد
ولا تعجب بهذا القدر البهجة الشديدة
والعقل ليس طائشاً بهذا القدر
ولست موافقاً بهذا القدر
ويعذبني الجنوح إلى الأجماد
يدعوني، وأنا أصغي إليه، ضجيج المجد!
دير جافين

مضت الأيام والأشهر، ولم يستطع إبراهيم العاشق اتخاذ القرار بترك المرأة التي أغواها. أما الكونتيسة فكانت تتعلق به أكثر فأكثر ساعة بعد ساعة. وكان بينهما يشب في محافظة بعيدة. وبدأت تخف حدة الإشاعات في المجتمع، وصار العاشقان يتمتعان بهدوء أكبر، ويتذكran بصمت العاصفة الماضية وسعيًا إلى عدم التفكير بالمستقبل.

وحدث مرة أن كان إبراهيم في قصر دوق أورليان. وعندما مر

الدوق بمحاذاته سلمه رسالة وأمره بقرائتها في أوقات الفراغ. كانت الرسالة من بطرس الأكبر. وكتب القيصر، الذي حدس السبب الحقيقي لغيابه، إلى الدوق بأنه لا يعتزم ملامة إبراهيم في أي شيء، ويترك له الحرية في العودة إلى روسيا أو عدم العودة إليها، ولكنه في كافة الأحوال لن يتخلى عن ربيبه السابق. وقد مست هذه الرسالة نياط قلب إبراهيم. ومنذ تلك اللحظة تقرر مصيره. وفي اليوم التالي أبلغ الوصي على العرش بنيته في السفر إلى روسيا فوراً. وقال الدوق له: «فكر فيما تفعله. إن روسيا ليست وطنك، كما أنني لا اعتقد بأنك ستري مجدداً وطنك القائظ. لكن وجودك في فرنسا خلال فترة طويلة جعلك أيضاً غريباً عن مناخ ونمط الحياة في روسيا شبه المتوحشة. إبق في فرنسا التي أرقّت دمك من أجلها، وكن على يقين بأن خدماتك ومواهبك ستلقى هنا التقدير الجدير بها». فشكر إبراهيم الدوق كل الشكر، ولكنه بقي صلباً في نيته. وقال له الدوق: «آسف، ولكن ربما أنت على حق». ووعده بأنه سيقبل استقالته وكتب عن هذا كله إلى القيصر الروسي.

وسرعان ما شد إبراهيم الرحال للسفر. وكالعادة أمضى أمسيته عشية السفر لدى الكونتيسة (د). ولم تكن تعرف شيئاً. إذ لم يجد إبراهيم الجراً لمصارحتها. وكانت الكونتيسة هادئة ومرحة. ودعته عدة مرات إليها ومزحت بشأن استغراقه في التفكير. وبعد العشاء انصرف الجميع. وبقيت في غرفة الإستقبال الكونتيسة وزوجها وإبراهيم. وكان هذا التعيس مستعداً للتضحية بكل شيء في هذه الدنيا من أجل البقاء على انفراد معها فقط. لكن الكونت (د) بقي كما يبدو واقفاً بهدوء عند الموقد، مما أبعث الأمل في خروجه من الغرفة. ولزم الثلاثة الصمت. وفي نهاية المطاف قالت الكونتيسة: «*Bonne nuit*»

”^(٢٠) وانقبض قلب ابراهيم، وبغته أحس بكل لوعة الفراق. ووقف بلا حراك. وكررت الكونتيسة قائلة: «*Bonne nuit, messieurs*»^(٢١). ولكنه لم يتحرك مع هذا.. واخيراً غمرت العتمة بصره، واصابه الدوار، وبالكاد استطاع مغادرة الغرفة. وعندما وصل إلى البيت وهو غائب الوعي تقريباً كتب الرسالة التالية:

«إنني أسافر، يا عزيزتي ليونورا، وأتركك إلى الأبد. أنا أكتب إليك لأنني لا أجد القوة لمصارحتك بشكل آخر.

إن سعادتي ما كان بالمستطاع أن تستمر. إنني تمتعت بها خلافاً لحكم القدر والطبيعة. ووجب عليك أن تكفي عن حبي، ووجب أن يزول السحر. وكانت هذه الفكرة تلاحقني دوماً، حتى في تلك اللحظات عندما ترائي لي أنني نسيت كل شيء، حين كنت أتلذذ عند قدميك بنكرانك المشبوب للذات، وبرقتك بلا حدود.. إن النور الطائش يلاحق بلا هوادة فعلاً ما يجوز السماح به نظرياً: إن سخريته الباردة كانت عاجلاً أو آجلاً ستنتصر وستلجم جماح روحك الفائرة، ولشعرت في نهاية الأمر بالتحجل من عشقك... فماذا سيكون شأني عندئذ؟ كلا! من الأفضل أن أموت، من الأفضل أن أتركك قبل أن تحل هذه اللحظة الفظيعة...

إن طمأنينتك وهدوء بالك أعز لدي من كل شيء: وما كان بوسعك التمتع بها، ما دامت أنظار المجتمع تتجه نحوك. تذكرني كل ما عانيت منه، وكل الإهانات لعزة نفسك، وكل أوجاع الخوف، تذكرني المولد الفظيع لابننا. وفكري: هل يجب علي أن أجعلك أكثر

٢٠. ليلة سعيدة (بالفرنسية)

٢١. ليلة سعيدة ايها السادة (بالفرنسية)

عرضة للقلق والمخاطر؟ ولم الإقدام على الجمع بين مصير مخلوق بهذه الرقة وبهذا الجمال مع مصير زنجي تعيس، ومخلوق بائس، لا يكاد يستحق تسمية إنسان؟

سامحيني يالينورا، سامحيني، يا صديقتي العزيزة والوحيدة. إنني إذا أتركك أتخلى عن أول وآخر مسرة في حياتي. وأنا بدون وطن أو اقارب. إنني أسافر إلى روسيا الحزينة، حيث ستكون مسرتي وحدتي التامة. الدروس الصارمة التي سأقدمها منذ الآن فصاعداً ستسليني، إن لم تخمد علي أقل تقدير الذكريات المؤلمة حول أيام الأفراح والسعادة... سامحيني يالينورا، - سأترك كتابة هذه الرسالة كما لو أنني أترك أحضانك، سامحيني، وكوني سعيدة - وتذكري أحياناً الزنجي التعيس، والمخلص لك إبراهيم».

وغادر في الليلة نفسها إلى روسيا.

بدا أن الرحلة لم تكن مزعجة له، كما كان يتوقع. وتغلب خياله على الواقع. وكلما ابتعد عن باريس أكثر، كان يتصور في دخيلته بحيوية وبشكل أقرب الأشياء التي سيفارقها إلى الأبد.

وصل إلى الحدود الروسية دون أن يشعر بذلك. وكان الخريف قد خيم فوق المكان، لكن الحوذية انطلقوا بسرعة الريح بالرغم من رداءة الطريق. وفي اليوم السابع عشر من سفره بلغ صباحاً كراستويه سيلو التي كان يتفرع منها الطريق الكبير أيامذاك.

وبقيت مسافة ٢٨ فرستا حتى بطرسبورغ. وفيما كان يجري قرن الخيول دخل إبراهيم إلى بيت الحوذية. كان في الركن يجلس رجل طويل القامة، بقفطان أخضر، وفي فمه غليون خزفي، متكئاً

على الطاولة، وانهمك في مطالعة صحف هامبورغ. وعندما تناهى إلى سمعه صوت دخول أحد ما رفع رأسه. فصاح: «باه! إبراهيم؟» ونهض من وراء الطاولة- «أنت معافى، يا إبني في العماد! وأراد إبراهيم الذي عرف بطرس أن يندفع إليه مسرورا، لكنه توقف احتراماً له. واقترب القيصر منه واحتضنه وقبله في رأسه. وقال بطرس:» لقد أبلغوني بخبر قدومك، فأتيت للقاءك. أنا بانتظارك هنا منذ مساء أمس». وعجز إبراهيم عن إيجاد الكلمات للتعبير عن امتنانه. ومضى القيصر قائلاً: «أعط الأمر بأن تتبعنا عربتك، بينما أجلس معي وسنذهب إلي». قدمت عربة القيصر فجلس مع إبراهيم فيها، وانطلقا خيبا. وبعد ساعة ونصف وصلا إلى بطرسبورغ. وصار إبراهيم يتطلع بفضول إلى العاصمة المولودة حديثا، والتي قامت وسط المستنقعات بنزوة من صاحب الأمر والنهي. وكانت السدود العارية والقنوات بلا ضفاف والجسور الخشبية في كل مكان تشير إلى انتصار الإرادة البشرية منذ فترة وجيزة على مقاومة الطبيعة. وبدا أن المباني قد شيدت على عجل. ولم يوجد في المدينة أي شيء رائع سوى نهر نيفا الذي لم تزينه بعد أرصفة الجرانيت، لكنه كان مزدحما بالسفن الحربية والتجارية. وتوقفت عربة القيصر عند القصر المسمى «تساريتسين ساد». وعند المدخل استقبلت بطرس امرأة حسناء في الخامسة والثلاثين من العمر، تنزي بأخر موضحة باريسية. فقبلها بطرس في الشفتين. واقتاد إبراهيم نحوها وقال: «هل عرفت ياكاتينكا إبني بالعماد: أرجو أن تمنحني محبتك ورعايتك كالسابق». ورنت يكاترينا إليه بعينيها السوداوين والنافذتين ومدت إليه يدها بمودة. بينما وقفت ورائها صبيتان حسناوتان، فارعتا الطول، وممشوقتا القد، ونضرتان كالورد واقتربتتا من بطرس باحترام. وقال لإحدهما: «ليزا هل تذكرين الصبي العربي الصغير الذي كان يسرق التفاح من أجلك في اورانيناوم؟ هاهوذا: أنا

أقدمه إليك ». فضحكت الأميرة المعظمة وغشت سحتها الحمرة. وتوجهوا إلى صالة الطعام. كانت المائدة العامرة قد أعدت بانتظار القيصر. وجلس بطرس مع أفراد العائلة لتناول الغداء، كما دعا إبراهيم إليه. وفي أثناء الغداء صار يتحدث إليه حول أمور شتى منها حول الحرب الإسبانية وحول القضايا الداخلية في فرنسا وحول ولي العهد الذي كان يحبه، ولو انهادان فيه أموراً كثيراً. وقد تميز إبراهيم بالذكاء الباهر ودقة الملاحظة. وكان بطرس راضياً جداً عن أجوبته. وتذكر بعض صفات إبراهيم في صغره وتحدث عنها بكل طيبة وبمرح، ولا يمكن لأي احد أن يشك في لطف وكرم الضيافة لصاحب البيت بطل معركة بولتافا ومصالح روسيا الجبار والرهيب.

وبعد الغداء ذهب القيصر لأخذ قسط من النوم حسب العادة الروسية. وبقي إبراهيم مع القيصرة والأميرتين المعظمتين. وقد سعى إلى ترضية فضولهن، فوصف طراز الحياة الباريسية، والأعياد والمواضات الغربية هناك. وفي الوقت نفسه تجمع في القصر بعض الشخصيات المقربة للقيصر. وتعرف إبراهيم على الأمير الفخم الهيئة مينشيكوف، الذي حين رأى العربي متحدثاً مع يكاترينا، رمقه بنظرة استعلاء، كما تعرف على الأمير ياكوف دولغوروكي مستشار بطرس الهمام، وعلى العالم بربوس الذي ذاع صيته لدى عامة الناس بكونه فابوست الروسي، وعلى الشاب راغوزينسكي رفيق صباه سابقاً، وغيرهم من الشخصيات الذين جاءوا إلى القيصر لتقديم التقارير وتلقي الأوامر.

خرج القيصر من مخدعه بعد مرور ساعتين. فقال لإبراهيم: «سنرى فيما إذا لم تنس بعد وظيفتك السابقة. خذ لوحة الازدواز واتبعني». وأغلق بطرس على نفسه باب حجرة الخراطة وانهمك في

تسيير أمور الدولة. وعمل بالتوالي مع بريوس والأمير دولغوروكي، وجنرال الشرطة ديفير، وأملى على إبراهيم عدة أوامر وقرارات. ولم يكن بوسع إبراهيم أن يدهش لعقله السريع والراسخ، وقوة ومرونة ذهنه وتنوع مجالات نشاطه. وفي ختام الأعمال أخرج بطرس مفكرة الجيب للتحقق فيما إذا نفذت جميع المهام المقررة لذلك اليوم. ومن ثم قال لإبراهيم بعد الخروج من حجرة الخراطة: «أنت كما يبدو تعب، فبت ليلتك هنا كما في الأيام الخوالي. وسأوقظك غدا».

عندما أصبح إبراهيم على انفراد بالكاد استطاع أن يثوب إلى نفسه. فهو في بطرسبورغ، ورأى مجددا الرجل العظيم الذي أمضى طفولته بالقرب منه، من دون أن يعرف بعد قيمته. واعترف في دخيلته بما يشبه الغفران بأن الكونتيسة (د) لم تكن لأول مرة طوال اليوم ومنذ فراقها الموضوع الوحيد الذي يشغل فكره. ورأى أن نمط الحياة الجديد الذي ينتظره والعمل والمشاكل المستمرة يمكن أن تبعث الحياة في روحه، المتعبة بالإنفعالات والعواطف المشبوبة والبطالة والكآبة المكتومة. إن فكرة أن يصبح رفيق طريق لإنسان عظيم والعمل سوية معه لخدمة مصائر شعب عظيم، قد ايقظت فيه لأول مرة الشعور النبيل بالعزة والكرامة. واستلقى على السرير السفري الذي أعد له وقد طفحت نفسه بهذه الروح، وبعد ذلك نقله الحلم المعتاد إلى باريس البعيدة، وإلى أحضان الكونتيسة الحبيبة.

الباب الثالث

كالسحابة في السماء،

تغير أفكارنا الصورة الخفيفة،

فنجب اليوم ما نكرهه غدا.

ف. كيوخليكر

في اليوم التالي أيقظ بطرس إبراهيم كما وعد، وهناك بمنصب الكابتن - الملازم لسرية مدفعية فوج برياو برجينسكي الذي كان فيه سابقاً برتبة كابتن. وأحاط رجال البلاط بإبراهيم وسعى كل واحد منهم حسب طريقته إلى التودد إلى المحبوب الجديد. أما الأمير مينشيكوف المتعجرف فصافحه بمودة. واستفسر شيريميتوف عن معارفه الباريسيين، ودعاه غولوفين لتناول الغداء معه. وقد حذا حذو الأخير الآخرون، مما جعل إبراهيم يتلقى الدعوات لما لا يقل عن شهر كامل.

أمضى إبراهيم أيامه بلا تغيير، لكنها كانت مترعة بالنشاط - ومن الطبيعي ألا يعرف السأم. وصار يوماً بعد يوم يتعلق بالقيصر أكثر، وأدرك بشكل أفضل روحه السامية. إن متابعة أفكار إنسان عظيم هو

علم مشوق للغاية. وكان إبراهيم يرى بطرس في مجلس الشيوخ، حين يجادل بوتورلين ودولغوركي، ويناقد القضايا الهامة للتشريع، وفي مجلس إدارة الأمانة مثبتة عظمة روسيا البحرية، كما رآه مع فيوفان وغافريل بوجينسكي وكوييفتش، وفي ساعات الراحة يطالع تراجم الكتاب الإقليميين الأجانب، أو يزور معمل التاجر ومحترف العامل أو مكتب العالم. وبدأت روسيا أمام إبراهيم كورشة عملاقة حيث تتحرك ماكينات ما، وحيث يمارس كل عامل عمله بموجب نظام محدد. واعتبر أن من واجبه العمل أمام ماكينته والسعي إلى أن يأسف بأقل قدر ممكن لغياب لهو الحياة الباريسية. وكان أصعب شيء لديه هو أن يبعد عن نفسه الذكريات الأخرى العزيزة لديه: فكان غالباً ما يفكر بالكونتيسة (د) ويتصور غضبها العادل ودموعها وحزنها. لكن أحياناً كان صدره يضيق كل الضيق بفكرة أن يتبدد النور الكبير، وأن توجد علاقة جديدة، وشخص سعيد آخر - وعندئذ ينتفض، وتأخذ الغيرة بالفوران في دمه الإفريقي، والدموع الساخنة مستعدة لكي تترقق على وجهه الأسود.

وحدث مرة في الصباح أن كان جالساً في مكتبه محاطاً بالأوراق الرسمية، فسمع بغتة تحية هادرة باللغة الفرنسية. والتفت إبراهيم بخفة فرى أمامه، في دفقة النور الكبير الشاب كورسكوف الذي تركه في باريس فاحتضنه مطلقاً عبارات البهجة. وقال كورسكوف: «لقد وصلت لتوي الآن وهرعت إليك مباشرة. إن جميع معارفنا في بايس يهدونك التحيات، ويأسفون لفراقك. وأمرت الكونتيسة (د) بدعوتك فوراً وإليك رسالة منها». وتابع كورسكوف قوله: «كما أنا مسرور لكونك لم تمت بعد من الضجر في بطرسبورغ المتوحشة هذه! ماذا يفعلون هنا، وماهي مشاغلهم؟ من هو خياط ملابسك؟ هل

افتتحوا أوبراهنا؟». واجاب إبراهيم شارذ الذهن أن القيصر يعمل الآن في أغلب الظن في ترسانة بناء السفن. فضحك كورسكوف وقال: «أرى أنك الآن في شغل شاغل عني. سنتحدث في وقت آخر حتى الشبع. سأذهب لأقدم نفسي إلى القيصر». واستدار مع هذا القول على ساق واحدة وخرج من الغرفة راكضاً.

أما إبراهيم الذي بقي وحيداً فقد فتح الرسالة بسرعة. واشتكت الكونتيسة إليه، ولامته على اللامبالاة وسوء الظن. وكتبت: «أنت تقول أن طمأننتي أغلى لديك من كل شي في الدنيا. إبراهيم! لو كان هذا حقاً، لما استطعت أن تعرضني إلى الوضع الذي كنت فيه لدى تلقي النبا بالصدفة حول سفرك؟ إنك كنت تخشى أن أبقيك، كن على ثقة بأنني، بالرغم من حبي، كنت أستطيع التضحية به من أجل سعادتك، وما تراه واجباً». وفي ختام الرسالة أعربت الكونتيسة عن تأكيداتهما المترعة بالشوق في حبه، واستحلفته بأن يكتب لها ولو نادراً، إذا لم يعد لهما أمل في اللقاء في وقت ما.

أعاد إبراهيم قراءة هذه الرسالة عشرين مرة، وهو يقبل بابتهاج السطور النفيسة التي لا تقدر بثمن. واهتاج نفاذ صبره لسماع أي شيء عن الكونتيسة، وعقد العزم على التوجه إلى ترسانة الأميرالية، أملاً في أن يلتقي كورسكوف مرة أخرى، لكن الباب فتح وظهر كورسكوف نفسه أمامه مجدداً. وكان قد قدم نفسه إلى القيصر - وكعادته بدا راضياً عن نفسه كل الرضى. وقال مخاطباً إبراهيم: «*Entre nous*^(٢٢) - القيصر رجل غريب الأطوار، تصور أنني وجدته مرتدياً كنزة خشنة ما من الخيش، فوق صارية سفينة جديدة،

٢٢. الكلام فيما بيننا - بالفرنسية (المترجم)

اضطرت لتسلقها حاملاً رسائلي الدبلوماسية. ووقفت على سلم من الجبال، ولم أجد المجال لأداء التحية الموقرة (الريفيرانس). وقد اضطرت كلياً بشكل لم أعرفه منذ ولادتي. أما القيصر فنظر إلي بعد قراءة الأوراق متفحصاً أيادي من أخمص الرأس وحتى القدمين، وفي أغلب الظن أنه دهش للذوق والأناقة الرفيعة لهندامي. على أقل تقدير أنه ابتسم ودعاني اليوم لحضور الحفل العام. لكنني اشعر بأنني غريب تماماً في بطرسبورغ، فخلال غيابي ستة أعوام نسيت تماماً العادات السائدة هنا فأرجوك أن تكون دليلي، ورافقني وقدمني إلى الآخرين». ووافق إبراهيم وعاجل بتحويل مجرى الحديث إلى موضوع يشغل باله أكثر. «حدثني كيف حال الكونتيسة (د)؟» - الكونتيسة؟ إنها، طبعاً، حزنت في البداية كثيراً لسفرك. ولكنها، طبعاً، هدأت شيئاً فشيئاً ووجدت لها عشيقاً جديداً. أتعرف من هو؟ إنه الماركيز الطويل (ر). مالك تحملى بياض عينيك العربي؟ أم أن الأمر كله يبدو غريباً لك. ألا تعرف أن الحزن الطويل الأمد ليس من طبع البشر، بالأخص لدى النساء. فكر في الأمر جيداً، بينما سأذهب لأخذ قسط من الراحة بعد السفر. لا تنس المرور علي.»

أية أحاسيس غمرت روح إبراهيم؟ الغيرة؟ إعتراه طائف من الجنون؟ اليأس؟ كلا، لقد كظمه الحزن الشديد وأقضى مضجعه. وصار يكرر لنفسه: كنت أتوقع ذلك، كان لا بد ان يحدث ذلك. ثم فتح رسالة الكونتيسة وأعاد قرائتها مجدداً، ورفع رأسه واستغرق بالبكاء، ممرارة. واستمر في النحيب فترة طويلة. وخفت الدموع لواعج قلبه. ولدى النظر إلى الساعة وجد ان الوقت قد حان للخروج. وكان إبراهيم يود جداً أن يتخلص من المحفل العام، لكن منصبه الرسمي كان يملي عليه حضوره، وقد أمر القيصر بحزم

وجوب حضور جميع المقربين منه. فأرتدى ملابسه وتوجه في طلب كورساكوف.

كان كورساكوف جالساً في رداء النوم ويطالع كتاباً فرنسياً. فقال لإبراهيم بعد أن رآه: «هل الوقت مبكر إلى هذا الحد؟». فجابته بقوله: «حنانك، لقد بلغت الساعة الخامسة والنصف. نحن نتأخر. فأسرع بارتداء ملابسك وهلم بنا». فأسرع كورساكوف بالحركة والإهتياج، وصار يندق الأجراس بكل عنف. وهرع إليه الخدم، وبدأ يرتدي ملابسه بسرعة. وقدم له الخادم الفرنسي حذائين بكعبين أحمرين، وسراويل زرقاء من القطيفة، وقفطاناً وردياً مزيناً بترترات، وعند المدخل رشت البودرة على الباروكة بسرعة، وقدمت إليه. فدرس كورساكوف فيها رأسه الحليق، وطلب السيف (الشيخ) والقفافيز، واستدار حول المرأة عشر مرات وقال لإبراهيم أنه مستعد للذهاب. وقدم الخدم لهما فروتي دب الخدم من «الغايدوك»، ثم انطلقا إلى القصر الشتوي.

وانهال كورساكوف بالأسئلة على إبراهيم حول من هي الحسنة الأولى في بطرسبورغ؟ ومن هو أبرع الراقصين؟ وماهي موضحة الرقص الآن؟ وكان إبراهيم يرضي فضوله على مضض جداً. ثم وصلا إلى القصر. كان يربط في روضة القصر الكثير من الزحافات الطويلة والعربات الكبيرة العتيقة والعربات المذهبة. واحتشد عند المدخل الحوذية بأزيائهم المميزة وشواربهم، وأحذية التزلج، والأشرطة البراقة، والرياش والدبايس، كما كان هناك الفرسان والغلمان، والخدم (الغايدوك) ذو المظهر الأخرق حاملين فروات وموفات أسيادهم: إنها الحاشية الضرورية لهم حسب اعتقاد النبلاء البيار في ذلك الزمان. ولدى ظهور إبراهيم صاروا يتهامسون جميعاً: «العربي، العربي،

عربي القيصر!». أما هو فقد اقتاد كورساكوف بسرعة وسط هذا الحشم ذي الأزياء المبرقشة. وفتح خادم القصر أمامهما الباب على مصراعيه ودخلا الصلاة. فجمد كورساكوف في مكانه... فقد كان يذرع الصلاة حشد متراص جيئة وذهاباً مع ألحان الموسيقى المتواصلة (المنبعثة من آلات النفخ الهوائية) في القاعة الكبيرة المنارة بالشموع الشحمية التي كانت تشتعل بنور خاب وسط سحب دخان التبغ، وهم من السادة ذوي الأوشحة الزرقاء على أكتافهم والمبعوثين والتجار الأجانب والضباط الفرسان بأزيائهم الخضراء وصناع السفن بصديريات وسراويل عريضة. أما السيدات فقد جلسن عند الجدران، وتألقت الشابات بكل فخامة الموضة. وتلألأ الذهب والفضة على ملابسهن. وبرزت خصورهن الهيفاء، كالعود، من مشدات التنانير العريضة الفخمة. وتألقت الماسات في الآذان، وفي خصلات الشعر الطويلة وحول العنق. وكن يتلفتن بمرح يساراً ويميناً بانتظار الفرسان وبدء الرقص. أما السيدات الأكبر سناً فتراهن يصبون بدهاء إلى الجمع بين طراز الملابس الجديد والطراز القديم الذي مضى عهده: فالقلنسوة النسائية غطيت بفرو السمور المميز للقيصرة ناتاليا كيريلوفنا، أما الفساتين العريضة (روبروندات) وغطاء الرأس الإسباني (المانتيلات) فهي تشبه رداء السارافان الروسي والصديرية المبطنة بالفرو الروسية. وبدا كما لو أن قلوبهن طافحة بالعجب أكثر من الإرتياح واللذة لارتدائهن هذه الأزياء المبتكرة وينظرن بكآبة إلى زوجات وبنات ربانة السفن الهولنديين ذوي التنانير الرقيقة والصديريات الحمراء والمنهمكات في حياكة الجوارب وهن يتضحكن ويتبادلن الأحاديث كما لو كن في بيوتهن. وعندما لاحظ الخادم ظهور الضيفين الجديدين دنا منهما حاملاً البيرة والأقداح على صينية. وسأل كورساكوف

إبراهيم بصوت خافت: *Que diable est-ce que tout cela?* (٢٣). وكان بوسع إبراهيم أن يمنع نفسه من الضحك. فقد كانت القيصرة والأميرات المعظّمات يتهددين في صفوف الضيوف ويتألّقن بجمالهن وبأزيائهن، ويتحدثن إليهن بمودة. وكان القيصر في صالة أخرى. وشق كورساكوف الذي كان يود أن يريه نفسه طريقه بمشقة عبر الحشد المتحرك بلا توقف. وجلس هناك القسم الأكبر من الأجناب الذين كانوا يدخلون بوقار غلايينهم الفخارية ويفرغون الأقداح الفخارية في جوفهم. ورصت على الموائد قناني البيرة والبيذ وأكياس جلدية فيها التبغ، وأقداح البونش ورقعات الشطرنج. وكان بطرس يمارس وراء إحدى الطاولات لعبة الداما مع ربان إنجليزي عريض المنكبين. وكانا يغرقان أحدهما الآخر بدفقات من سحب الدخان، وكان القيصر مشغولاً بالتأمل في نقلة غريمه غير المتوقعة، فلم يلاحظ كورساكوف، مهما دار حولهما. وفي هذه اللحظة دخل القاعة بجلبه رجل بدين، وعلى صدره باقة زهور كبيرة، وأعلن بصوت جهوري أن الرقص بدأ - وغادر القاعة على الفور، فتبعه الكثير من الضيوف، ومنهم كورساكوف.

وقد ذهل لمرى المشهد غير المتوقع. فقد وقفت السيدات والسادة شركائهن في الرقص في صفين مقابل بعضهم البعض على امتداد قاعة الرقص، بمصاحبة الموسيقى البائسة جداً، واحنى السادة رؤوسهم بينما ردت السيدات بالإنحناء أكثر في البداية نحو الأمام، ومن ثم كررن ذلك نحو اليمين واليسار، ومن ثم نحو الأمام مرة أخرى، ومرة أخرى نحو اليمين واليسار. ونظر كورساكوف إلى ترجية الوقت المسلية هذه، وبخلق بعينه وعض شفتيه. وتواصلت الإنحناءات

٢٣. يا للشيطان... ما هذا كله (بالفرنسية) - المترجم.

والركعات حوالي نصف ساعة، وفي نهاية المطاف توقفوا عن ذلك ، وأعلن الرجل البدين ذو باقة الزهور، أن مراسم الرقص قد انتهت، وأمر الموسيقيين بعزف رقصة المينويت. فسر كورساكوف واستعد لإبداء مهارته. وقد أعجبته إحدى السيدات من بين الحضور. وكانت في حوالي السادسة عشرة من العمر، وفي زي يتسم بالغنى، ولكن بدوق، وجلست إلى جانب رجل مسن ذي مظهر وقور وصارم. واندفع كورساكوف نحوها وطلب أن يكون له شرف الرقص معها. فتطلعت إليه الحسنة الفتية بحيرة، وبدا كما لو أنها لا تعرف ماذا تقول له. أما الرجل الجالس إلى جانبها فقد ازداد عبوساً. وانتظر كورساكوف قرارها، لكن الرجل ذا باقة الزهور قاده إلى وسط القاعة وقال له بوقار: «يا سيدى إنك اخطأت: فأولاً عندما اقتربت من الفتاة، لم تقم أمامها بحركات التحية بالإنحناء ثلاث مرات، وثانياً أخذت لنفسك مهمة الاختيار بينما في المونويت يكون هذا من حق السيدة. ولهذا يجب معاقبتك بتناول كأس النسر الكبير». وطفحت نفسه بالدهشة شيئاً فشيئاً. وفي لحظة خاطفة أحاط به الضيوف مطالبين بصخب أن ينفذ القانون فوراً. وعندما سمع بطرس القهقهة والصراخ جاء إلى القاعة الأخرى، حيث كان من هواة حضور مثل مشاهد العقوبة هذه. وانفرج الحشد أمامه، وجاء إلى الدائرة التي وقف المحكوم عليه فيها وأمامه مارشال المحفل حاملاً كأساً ضخمة مملوءة بنبيد مالفازيا. وكان يدعو «المجرم» عبثاً بالإنصياع طوعاً إلى القانون. وقال بطرس لدى رؤية كورساكوف: «آها، لقد ضبطت، يا أخ! هيا إسمح بالشرب ولا تعبس». ولم يكن باليد حيلة. وقام المتأق المسكين باحتساء الكأس دفعة واحدة واعطاها إلى المارشال. فقال له بطرس: «إسمع يا كورساكوف، إن سراويلك من القטיפه، بينما أنا لا ألبس مثلها، بينما أنا أكثر غنى منك كثيراً. هذا تذيير، فأحذر من أن أخاصمك.

وعندما استمع كورساكوف إلى هذا الحكم أراد الخروج من الدائرة، لكنه تأرجح في مشيئته وكاد أن يسقط، وهذا ما أثار الإرتياح البالغ لدى القيصر وجميع الحشد المرح. واخذ السادة يجرجرون أقدامهم وينحنون، أما السيدات فينحنين ويطلقن بكعوب الأحذية بهمة أكبر دون مراعاة الإيقاع البتة. ولم يستطع كورساكوف المشاركة في المرح مع الجميع. أما السيدة التي اختارها فتوجهت بأمر من أبيها غافريل افاناسيفتش من إبراهيم بخفر، وقدمت له يدها مطرقة بعينيها الزرقاوين. ورقص ابراهيم المنويت معها وأعادها إلى مكانها السابق، ثم بحث عن كورساكوف وأخرجه من القاعة وأجلسه في العربة ومضى به إلى البيت. وفي البداية كان كورساكوف يتمتم في الطريق بعبارات مبهمة: «اللعة على الحفل العام!.. اللعة على كأس النسر الكبير!، لكنه سرعان ما استسلم إلى النوم العميق، ولم يشعر كيف وصل إلى البيت، وكيف خلعوا ملابسه وارقدوه. واستيقظ في اليوم التالي بوجع في الرأس، دون أن يتذكر بوضوح جرجرة الأقدام والإنحناءات ودخان التبغ والسيد ذا باقة الزهور وكأس النسر الكبير.

الباب الرابع

كان أسلافنا يأكلون بلا عجلة،

وبلا عجلة كان يتم تداول

الكؤوس والأقداح الفضية

المملوءة بالبيرة والنيبذ.

من قصيدة (روسلان ولودميلا)

الآن يجب أن أعرف القارئ الكريم الميال الى المطالعة بغافريل افاناسيفتش رجيفسكي. إنه سليل أسرة قديمة من النبلاء، ولديه ضيعة كبيرة، ويكرم الضيف، ويحب الصيد بالصقور، ولديه عدد كبير من الخدم والحشم. صفوة القول كان نيبلاً روسياً أصيلاً، وحسب قوله كان لا يطبق عادات الألمان، ويسعى في أمور بيته الى صيانة العادات الروسية القديمة المحبوبة لديه.

وكانت ابنته في السابعة عشرة من العمر. وفقدت أمها عندما كانت طفلة. وتلقت التربية على الطراز القديم، أي احاطت بها الملمات والمربيات وفتيات التبن، ومارست التطريز بخيوط مذهبة ولم تحسن القراءة والكتابة. ولم يستطع أبوها، بالرغم من نفوره من كل شيء

أجنبي، معارضة رغبتها في تعلم الرقص الألماني من ضابط سويدي أسير يعيش في بيتهم. وكان أستاذ الرقص الجدير هذا في سن الخمسين، واصيبت ساقه اليمنى برصاصة في معركة نارفا، ولهذا لم تكن تلائم جداً أداء رقصة المنويت أو الكورانت، بينما كانت ساقه اليسرى تؤدي أصعب حركات «با» بفن عجيب وبخفة مدهشة. أما تلميذته فكانت جديرة بمساعيها. وذا ع صيت ناتاليا غافريلوفنا في المحفل بأنها أحسن راقصة، وكان هذا لحد ما سبب جريرة كورساكوف الذي جاء في اليوم التالي للإعتذار أمام غافريل افاناسيفتش. بيد أن شطارة وغندرة الشاب المتأنق لم تحظيا بإعجاب السيد النبيل المتكبر الذي وصفه ساخرأ بأنه قرد فرنسي.

حل يوم العيد. وكان غافريل افاناسيفتش ينتظر قدوم عدة أقارب وأصدقاء. ونصبت في الصالة العتيقة مائدة طويلة. وجاء الضيوف مع الزوجات والبنات، اللواتي تحررن في نهاية المطاف من أسر البيت بأوامر القيصر والإقتداء به شخصياً. وقدمت ناتاليا غافريلوفنا إلى كل ضيف صينية من الفضة عليها أقداح ذهبية صغيرة، وشرب كل واحد قدحه، آسفاً، لكون القبلة المعتادة في أيام زمان في هذه المناسبة لم تعد من العادات الشائعة. وتوجهوا نحو المائدة. فجلس في المقعد الأول إلى جانب رب البيت حموه الأمير بوريس اليكسييفتش ليكوف، السيد النبيل البالغ سن السبعين، أما بقية الضيوف فجلسوا، مع مراعاة مكانة الأسرة الأكبر منزلة وبهذا تعاد إلى الذاكرة الأزمان السعيدة حين كان يسود نظام الأولوية في المناصب، فيجلس الرجال من جانب والنساء من الجانب الآخر. وفي نهاية الأمر اتخذت الأماكن المعهودة النبيلة إبنة سيد البيتفي ثوب ريفي قديم الطراز وقلنسوة «كيتشكا»، ثم امرأة قزما، وهي مخلوق صغير الحجم في الثلاثين من

العمر، تتكلف الإحتشام والعبوسة، وكذلك الأسير السويدي في بزة زرقاء رثة. وأحاط عدد كبير من الخدم بالمائدة التي حفلت بكل ما لذ وطاب وهم في غدو ورواح، وبرز من بينهم كبير الخدم بنظراته الصارمة وبطنه المنتفخة وسكونه المشوب بالوقار. وكرست الدقائق الأولى في مأدبة الغداء إلى الإهتمام بأصناف الطعام القديمة، ولم يعكر الصمت العام سوى طقطقة الأطباق والملاعق الكثيرة الحركة. وأخيرا رأى رب البيت أن الوقت قد حان لتسليية الضيوف بحديث شيق، فالتفت وسأل: «أين يكيموفنا؟ إستدعوها إلى هنا». وانطلق عدة خدم في مختلف الإتجاهات، لكن في هذه اللحظة دخلت امرأة عجوز متبرجة بالأصباغ البيض والحمرة، وتزينت بالأزهار والشرائط، ووشاح روبروندا مزخرف، وبدت عارية العنق والصدر، وهي تغني وترقص. وأثار ظهورها الإرتياح الشامل.

وقال الأمير ليكوف: - مرحباً، يكيموفنا، كيف حالك؟

بخير وعافية، يا عراب: أحيا بالغناء والرقص، وانتظر العرسان.

وسأل رب البيت: - أين كنت يا حمقاء؟

كنت أتزين، يا عراب، من أجل الضيوف الأعزاء، ومناجل عيد الرب، بأمر القيصر، وبأمر السيد النبيل، لكي أكون أضحوكة للعالم أجمع، على الطريقة الألمانية.

وانطلقت عند هذا القول عاصفة من الضحك، ووقفت الحمقاء في مكانها وراء مائدة رب البيت.

وقالت تاتيانا افاناسيفنا الشقيقة الكبرى لرب البيت الذي يكن

لها أشد الإحترام: - إن الحمقاء تكذب، وتكذب، وتكذب، وستكذب، وقد تقول الحق بالصدفة. حقاً إن أزياء هذه الأيام تبعث على الضحك في الدنيا كلها. وما دمتم أيها السادة قد حلقتم لحاكم ولبستم القفطان الضيق، فلا مجال للحديث طبعاً عن خرق النساء. وعندما أتطلع إلى الحسنאות في هذه الأيام يثير لدي الضحك والأسى: فالشعر مجرد كاللباد، ومدهون بالزيت، والبطن مشدودة بشكل بحيث لا يكاد المرء يستطيع الحركة، والملابس التحتانية مشدودة بأطواق: فيجلسن في العربية جانبياً، وينحنن لدى دخول الباب. فالنهوض والجلوس والتنفس بحرية هو عذاب فحسب يا حماماتي!

وقال كيريل بتروفيتش(ت)، الحاكم السابق لريازان، حيث كسب بجهد بالغ ٣٠٠٠ من الأنفس وزوجة شابة: أوه، يا عزيزتي تاتيانا افاناسيفنا. بالنسبة لي لا يهمني كيف تريد زوجتي أن تتزين وتتجمل، ودعها ترتدي طاقية كوتافيا أم البولديخان، بشرط الا تطلب في كل شهر فساتين جديدة، وترمي السابقة رغم أنها ما زالت جديدة. وسابقاً كانت الحفيدة تحصل من جدتها على فستان سارافان كبائنة، أما الروبروندات فتجدها اليوم على سيدة وغداً على فلاحه. فما العمل؟ لقد حل خراب النبلاء الروس! إنها مصيبة، ليس إلا. - وعندما أورد هذا القول تطلع إلى زوجته ماري ايلينيتشنا التي بدا أنه لم يعجبها كليل الثناء إلى العادات القديمة، وهجاء العادات الجديدة. وشاظرتها الحسنאות الأخريات عدم رضاها، لكنهن لزممن الصمت، لأن التواضع كان يعتبر آنذاك من الخصال اللازمة للمرأة الشابة.

وقال غافريلا افاناسيفتش، وهو يتناول رغوة حساء الملفوف: - من المذنب، ألسنا نحن أنفسنا؟ الفتيات يفقدن عقولهن، ونحن ندفعهم إلى ذلك.

وعارضه كيرىلا بتروفيتش قائلاً: ما العمل، إذا كان هذا فوق إرادتنا. فالمرء يسره أن يحبس زوجته في البيت، بينما يطلبون منها أن تذهب تحت قرع الطبول إلى الحفل العام. الزوج تحت السوط، والزوجة تحت الأزياء. آه من هذه الحفلات! لقد عاقبنا الرب على ذنوبنا.

كانت ماريلا ايليتشنا تجلس على أحر من الجمر مثل وخز الإبر. وقد أصابت الحكمة لسانها أصلاً، وفي نهاية المطاف لم تنطق صبراً فوجهت الخطاب إلى زوجها، وسألته وعلى ثغرها ابتسامة صفراء، عما يجده من سوء في الحفلات العامة. وأجاب الزوج مهتاجاً: - لأن حضورها سيء، فمنذ أن بدأت تدهورت العلاقات بين الأزواج والزوجات. ونسيت الزوجات قول الرسول: الزوجة يجب أن تخاف زوجها. إنهن يبدن الإهتمام ليس بشؤون البيت بل بالأزياء الجديدة، ولا يفكرن في إرضاء أزواجهن، بل في جلب أنظار الضباط - الطائشين. وهل من الحشمة، ياسيدي، أن تتواجد السيدة أو الفتاة الروسية مع المدخنين الألمان ومع عاملاتهم؟ هل سمعتم في يوم من الأيام كيف انهن يراقصن ويحادثن الرجال الشباب حتى حلول ظلام الليل؟ قد يجوز ذلك مع الأهل والأقارب، لكن لا يجوز مع الغرباء، من غير المعارف.

وقال غافريلا افاناسيفتش وقد قطب وجهه عابساً: - كنت أود قول كلمة، لكن الذئب يربض قريباً. واعترف بأن الحفلات لا تعجبني: فقد يحدث أن تلتقي مخموراً، أو ان ترغم نفسك على شرب الخمر وتكون أضحوكة أمام الناس. وقد يحدث أن يقوم أحد ما بالتحرش بابتسك، أما شباب اليوم فقد أفرط في التدلل والتدلع بشكل لا مثيل له. فمثلاً إن ابن المرحوم يفغراف سيرغيفتشس كورساكوف أثار في

الحفل الأخير ضجة كبيرة مع ناتاشا، مما جعلني أخجل من نفسي. وفي اليوم التالي رأيت أحدهم قادماً إلي في باحة البيت، وفكرت فيمن أرسله لي الرب، هل هو الأمير الكسندر دانيلوفيتش. لكن ما خطبه: لم يستطع ايفان يفغرافوفتش التوقف عند البوابة والسير ماشياً حتى المدخل - كلا! بل اندفع! وانحنى محيياً! واطلق للسانه العنان!.. وصارت الحمقاء يكيمنونا تقلده بشكل مضحك. بالمناسبة تصوروا، الحمقاء، كقرود أجنبي من أعالي البحار.

وقال الأمير العجوز ليكوف وهو يكفكف دموعه من الضحك وحين ران الهدوء شيئاً فشيئاً: هكذا بالضبط والتمام. والحق يقال أنه ليس أول وآخر شخص عاد بهلولاً من بلاد الغربية إلى روسيا المقدسة. وماذا يتعلم أبناؤنا هناك؟ الثروة، واللغو بكلام غريب ما أنزل الله به من سلطان، وعدم احترام الأكبر سناً وملاحقة زوجات الآخرين. ويبدو عربي القيصر شبيهاً بالبشر لحد ما، من بين جميع الشباب الذين تعلموا في الخارج (وليغفر لي الرب).

فلاحظ غافريلا افاناسيفتش: طبعاً هو رجل رصين ومستقيم، وليس مثل الفتيان الطائشين.. ياترى من ذا دخل الباحة من البوابة؟ هل أنه القرود الأجنبي مرة أخرى. مالكم تثائبون، يابهائم؟ - وتابع مخاطباً الخدم: - أسرعوا، وامنعوه من الدخول، بغية ألا يتجرأ مستقبلاً..

وقاطعته الحمقاء يكيمنونا: أيها العجوز الملتحي، هل تهذر؟ هل أصابك العمى: إنها زحافة القيصر، لقد جاء القيصر.

نهض غافريلا افاناشيفتش مسرعاً من وراء المائدة، واندفع الجميع نحو النوافذ، فرأوا فعلاً القيصر لذي اعتلى المدخل مستنداً على كتف

ياوره. وعمت الجلبة في المكان. وهرع صاحب البيت للقاء بطرس. أما الخدم فتراكضوا وقد أصابهم التبلد، وطفحت قلوب الضيوف بالجبن، وصار بعضهم حتى يفكر بالهرب إلى بيوتهم بسرعة. وفجأة سمع صوت بطرس الجمهوري عند غرفة المدخل. فران الصمت على الجميع. ودخل بطرس بصحبة رب البيت المرتبك والمبتهج. وقال بطرس وبدا المرح على محياه: «مرحبا أيها السادة». وطأطأ الجميع رؤوسهم احتراماً له. وراحت نظرات القيصر السريعة تبحث عن ابنة صاحب البيت، ودعاها إليه. فدنّت منه ناتاليا غافريلوفنا بجرأة بالغة، لكنها اصطبغت بحمرة الخجل ليس حتى اذنيها، بل وحتى كتفيها. وقال لها القيصر «إنك تزدادين حسناً» وقبلها في رأسها كعادته، ثم توجه إلى الضيوف قائلاً: «ماذا؟ هل عكرت عليكم جلستكم. لقد كنتم تتناولون الغداء، وأرجوكم أن تجلسوا مرة أخرى، وأنت يا غافريلو افاناسيفتش هات لي فودكا اليانسون». واندفع صاحب البيت إلى كبير الخدم العملاق واخذ من يده الصينية وملاً القدح الذهبي وقدمه إلى القيصر بانحناءة من رأسه. وبعد أن احتسى القيصر الفودكا وتناول البقصم المبروم دعا الضيوف مجدداً للجلوس ومواصلة الغداء. فشغل الجميع أماكنهم السابقة باستثناء القزمة والسيدة شقيقة رب البيت حيث لم تتجاسرا على البقاء وراء المائدة بحضور القيصر. وجلس بطرس إلى جانب رب البيت وطلب لنفسه حساء الملفوف. وقدم ياور القيصر إليه ملعقة خشبية مؤطرة بالعاج وسكينا وشوكة بمقبض من العاج الأخضر، لأن بطرس لم يكن يتناول الطعام أبداً بغير أدواته للمائدة. واستمر الغداء وقد ران على المكان الصمت والتكلف بعد أن كان قبل دقيقة من ذلك يتسم بالمرح الحيوي ولغظ الأحاديث. ولم يتناول رب البيت شيئاً من الطعام بعد أن غمره الوقار والبهجة، وحذا الضيوف حذوه واصغوا بوقار إلى حديث القيصر بالألمانية مع

الأسير السويدي حول حملة عام ١٧٠١. أما الحمقاء يكموفنا فأنها أجابت عدة مرات عن أسئلة القيصر بيروود مشوب بالرهبة (أشير إلى هذا بالمناسبة) مما لا يدل على أن تغايها كان طبيعياً. وفي نهاية المطاف انتهى الغداء. ونهض القيصر ومعه نهض جميع الضيوف. فقال لرب البيت: «غافريلا افاناسيفتش! يجب أن أتحدث معك على انفراد»، واقتاده من ذراعه إلى غرفة الضيافة وأغلق ورائه الباب. وبقي الضيوف في غرفة الطعام، وبدأ الهمس حول هذه الزيارة المفاجئة، وبغية ألا يكونوا ثقلاء سرعان ما انصرفوا الواحد تلو الآخر، من دون تقديم الشكر إلى رب البيت على كرم الضيافة. وودعهم حموه وابنته وشقيقته بهدوء حتى العتبة. وبقوا لوحدهم في غرفة الطعام، بانتظار خروج القيصر.

الباب الخامس

سأجد لك زوجة

والا فانا لست بطحان.

(ابليسيموف، في اوبرا «الطحان»)

بعد مرور نصف ساعة فتح الباب وخرج بطرس. ورد على انحناءة الأمير ليكوف وتاتيانا افاناسيفنا وناتاشا الثلاثية بانحناءة من رأسه وتوجه نحو المخرج مباشرة. وقدم رب البيت إليه معطف الفرو القرمزي، وودعه حتى الزحافة وعند المدخل شكره مرة أخرى على شرف زيارته له. وانصرف بطرس.

عندما عاد غافريلا افاناسيفتش إلى غرفة الطعام بدا مهموماً جداً. وأمر الخدم بغضب بإزالة الصحون من المائدة بسرعة، وأرسل ناتاشا إلى مخدعها، وأبلغ شقيقته وحموه بأنه يريد محادثتهما، واقتادهما إلى غرفة نومه حيث كان يستجم عادة بعد الغداء. فاستلقى الأمير العجوز على السرير المصنوع من خشب البلوط، أما تاتيانا افاناسيفنا فقد جلست على مقاعد قديمة مكمسية بالقماش المزخرف ووضعت تحت قدميها طاولة صغيرة. وأغلق غافريلا افاناسيفتش جميع الأبواب، وجلس على السرير عند قدمي الأمير ليكوف وبدأ الحديث التالي بصوت خافت:

- لم تكن زيارة القيصر إلي بلا سبب، إحزرا عم تحدث معي؟

فقلت تاتيانا افاناسيفنا:- من أين لنا ان نعرف يا أخي العزيز.

وقال الحمو:- هل أمرك القيصر بإدارة أحد الأقاليم؟ لقد حان الوقت لذلك. أم أنه عرض عليك القيام بمهمة مبعوث؟ ولم لا؟ فلا يبعث إلى الدول الأخرى الموظفون فقط بل سراة القوم أيضاً.

فأجاب النسيب عابسا:- كلا. أنا رجل من الطراز القديم، والآن لا يحتاجون الينا في خدمة الدولة، ولو أن النبيل الروسي الأرثوذكسي ربما أكثر قيمة من حديثي النعمة وصانعي الفطائر والغرباء.

وقالت تاتيانا افاناسيفنا:- فما القضية يا أخي، فقد تحدث معك فترة طويلة؟ هل حلت بك مصيبة ما؟ هبنا الخلاص والرحمة يارب.

- إنها مصيبة وليست مصيبة، واعترف بأنني كان يجب أن افكر فيها.

- ماذا جرى يا أخي؟ ما القضية؟

- القضية تخص ناتاشا: لقد جاء القيصر خاطباً لها.

- فقلت تاتيانا افاناسيفنا وهي ترسم علامة الصليب: الحمد لله. الفتاة بلغت سن الزواج، والخطيب مثل الخاطب. ليمنحها الرب المحبة وسداد الرأي، وكذلك الكثير من العزة والسمعة الطيبة. لكن لمن يخطبها القيصر؟

هممم،- تتمم غافريلا افاناسيفتش - هنا المسألة، لمن؟

وكرر الأمير ليكوف، الذي بدأ يستسلم الى الغفوة: لمن؟

وقال غافريلا افاناسيفتش:- إحزرا لمن؟

فردت العجوز قائلة: - أخي العزيز، من أين لنا أن نحزر؟ ما أكثر العرسان في البلاط: وسيكون كل واحد سعيداً بأخذ ابنتك ناتاشا. هل هو دولغوروكي؟

- لا، ليس دولغولاوكي.

- الرب معه، فهو جبان.. هل هو شيين، ترويكوروف؟

- كلا، لا هذا ولا ذاك.

- حقا إنهم لا يعجبوني، فهم متحذلقون وطائشون، وتأثروا كثيرا بالعبادات الألمانية. ربما هو ميلوسلافسكي؟

- لا، غيره.

- حسنا الرب معه: ثري وغبي. من إذن؟ يليتسكي؟ لفوف؟ لا؟ هل هو راغوزينسكي؟ إنها ارادتك: أنا لا أفهم. فلن يخطب القيصر ناتاشا؟

- للعربي إبراهيم.

أطلقت العجوز آهة وطوت ذراعيها. ورفع الأمير ليكوف رأسه من المخدة وكرر قائلاً بعجب: « للعربي إبراهيم ».

وقالت العجوز بصوت طافح بالنحيب: - يا أخي العزيز، لا تلقي بطفلتك الحبيبة إلى الهلاك، لا تسلم ناتاشينكا الى مخالب الشيطان الأسود.

وعارض غافريلا افاناسيفتش قائلاً: - لكن ما العمل، هل أرفض طلب القيصر الذي وعد بأن ييسط علينا حمايته، علي وعلى جميع أهلنا؟

وهتف الأمير العجوز الذي فارقه النوم تماماً: كيف، تزوج ناتاشا،
حفيدتي، إلى عربي تم شراؤه.

فقال غافريلا افاناسيفتش: - إنه ليس من عامة الناس فهو ابن
سلطان عربي. وقد أسره الغرباء وباعوه في تسارغراد، فاشتراه مبعوثنا
وأهداه إلى القيصر. وقد جاء شقيقه الأكبر إلى روسيا ومعه فدية كبيرة
..و

وقاطعته العجوز قائلة: باتيوشكا، غافريلا افاناسيفتش، نحن
سمعنا حكاية الأمير بوفو و يروسلان لازاريفتش. الأفضل أن تقول لنا
ماذا كان جوابك على طلب الزواج الذي تقدم به القيصر.

قلت له إن السلطة بيده، ومن واجبنا كرعايا أن نطيعه في كل شيء.

في هذه اللحظة سمعت ضجة وراء الباب. فذهب غافريلا
افاناسيفتش لفتحها لكنه حين وجد مقاومة له دفعها بقوة وفتح الباب
فرأى ناتاشا راقدة فاقدة الوعي على الأرض المخضبة بالدم.

لقد توقف وجيف قلبها حين اختلى القيصر مع أبيها وراء الباب.
وهمس هاجس ما في دخيلة نفسها بأن المسألة تتعلق بها، وحين
طلب منها غافريلا افاناسيفتش الإنصراف معلناً أنه يود التحدث إلى
عمتها وجدها، لم تستطع مقاومة دافع الفضول النسائي، فتسللت
بهدهوء عبر الحجرات الداخلية وبلغت باب غرفة نوم أبيها، ولم تفوت
كلمة واحدة من المحادثة الفظيعة. وحين سمعت كلمات والدها
الأخيرة أغمى على الفتاة المسكينة، وسقطت واصطدم رأسها بطرف
الصندوق الحديدي الذي حفظت فيه بائنتها.

هرع الجميع إلى المكان وحملوا ناتاشا ونقلوها إلى مخدعها وأرقدوها على الفراش. وبعد فترة وجيزة عاد إليها وعيها، وفتحت عينيها، لكنها لم تتعرف على الأب ولا على العمه. وأخذت ترتجف من حمى شديدة، وذكرت في هذيانها إسم عربي القيصر والزفاف - وفجأة صرخت بصوت حزين وحاد: « فاليريان، عزيزي فاليريان، حياتي! أنقذني: ها هم، ها هم!... » تطلعت تاتيانا افاناسيفنا بقلق إلى أخيها الذي اصفرت سحته، وعض على نواجذه وخرج من غرفة النوم صامتاً. وعاد إلى الأمير العجوز الذي لم يستطع صعود السلم، ووقف في الاسفل.

فسأل:- كيف حال ناتاشا؟

وأجاب الأب الذي أصابه الغم: سيء، وأسوأ مما كنت أعتقد: إنها تهذي داعية فاليريان.

وسأل الشيخ بقلق: ومن فاليريان هذا؟ هل إنه اليتيم، ابن جندي الرماة، الذي رعيته وشب في بيتك؟

فأجاب غافريلا افاناسيفتش:- هو بالذات؟ ما قدرت أن يكون من يفجر علي الدواهي، إن والده أنقذ حياتي في زمن التمرد، ووسوس لي الشيطان أن أمنح المأوى لهذا الدغفل اللعين في بيتي. ومنذ عامين عندما ألحق بناء على طلبه في الكتيبة بكت ناتاشا بينما وقف بلا حراك كالحجر. وبدا لي ذلك أمراً مريباً، وحدثت شقيقتي بالأمر. لكن ناتاشا لم تذكر شيئاً عنه حتى الآن، كما لم يرد منه أي خبر. وظننت بأنها نسيتها. لكن يبدو أن الأمر ليس كذلك. لقد تقرر الأمر، ستزوج العربي.

ولم يعارضه الأمير ليكوف، فلم تكن ثمة فائدة من ذلك. وانصرف إلى بيته. بينما بقيت تاتيانا افاناسيفنا ولازمت فراش ناتاشا. أما غافريلا افاناسيفتش فقد أرسل في طلب الطبيب، وأغلق على نفسه باب غرفته، وعم البيت الهدوء والكآبة.

أثار موضوع الخطبة المفاجأة دهشة إبراهيم، وعلى أقل تقدير، مثل دهشة غافريلا افاناسيفتش. وإليكُم ما حدث: فقال بطرس لإبراهيم حين كان يمارس أعماله الرسمية معه:

– أرى، يا صاحبي، أنك مكروب النفس، قل بصراحة ماذا ينقصك؟

فأكد إبراهيم للقيصر بأنه راض عن حياته ولا يتمنى أفضل منها. فقال القيصر: حسناً، إذا كنت مكروباً بلا سبب، فأنا أعرف كيف أسليك.

في نهاية العمل وجه بطرس السؤال إلى إبراهيم:

– هل تعجبك الفتاة التي راقصتها في الحفل السابق؟

– إنها يا سيدي مليحة جداً كما أعتقد بأنها فتاة متواضعة وطيبة.

– إذن سأعرفك عليها عن قرب. هل تريد الزواج منها؟

– أنا يا سيدي...

– إسمع يا إبراهيم، أنت إنسان وحيد، بدون أهل وعشيرة، وغريب بالنسبة إلى الجميع فيما عداي. وإذا مت اليوم فماذا سيحدث

لك غداً، يا عربي المسكين. يجب أن تستقر ما دام هناك وقت، وأن تجد سنداً في العلاقات الجديدة، وأن تتحالف مع النبلاء الروس.

- سيدي، أنا سعيد بوجود حماية وعطف جلالتكم. وأنا لا أتمنى سوى ألا أعيش أكثر من قيصري وولي نعمتي. وإذا ما قررت الزواج فهل ستوافق الفتاة الشابة وأقاربها على ذلك؟ فمظهري...

- مظهرك! أي سخف! ماذا يعوزك كرجل قوي البنيان والفتاة يجب أن تطيع والديها، وسرى ماذا سيقول العجوز غافريلا رجيفسكي، حين سأكون أنا خاطبك في الزواج. وعندما قال القيصر ذلك أمر بتهيئة الزحافة وترك إبراهيم غارقاً في تأملاته العميقة.

فكر الإفريقي في دخيلة نفسه: أنا أتزوج! ولم لا؟ هل حكمت علي الأقدار بأن أعيش حياتي في عزلة منفرداً وألا أتعرف على أفضل الملذات والواجبات المقدسة للإنسان فقط لأنني ولدت تحت درجة الحرارة الخامسة عشرة؟ ولا يجوز لي أن آمل في أن أجد من يحبني: هذا تعبير طفولي! وهل يمكن الوثوق بالحب؟ وهل يمكن أن يوجد في قلب المرأة الطائش؟ إنني حين تخليت إلى الأبد عن الضلالات الحلوة، اخترت مغريات أخرى أكثر أهمية وقيمة. إن القيصر على حق: يجب أن أضمن مستقبلي. إن الزواج من الفتاة رجيفسكايا سيربطني بالنبلاء الروس ذوي الكبرياء، ولن أبقى غريباً دخيلاً في وطني الجديد. إنني لن اطلب من زوجتي الحب بل سأكتفي بإخلاصها، وسأكسب ودها باللطف وبالثقة وبالتسامح».

أراد إبراهيم كعادته أن يمارس العمل، لكن خياله كان شاردًا جداً. فترك الأوراق وخرج للتجول على ضفة نهر نيفا. وبغته سمع صوت بطرس، فإلتفت ورأى القيصر الذي صرف الزحافة وتوجه إليه وقد

أشرق وجهه بالمرح. وقال بطرس وقد تأبط ذراعه: « خلاص، إنتهى الأمر يا صاحبي. لقد خطبت لك الفتاة. وغداً إذهب إلى حموك. ولكن كن حذراً، أرض كبريائه كنبيل، واترك الزحافة عند البوابة، واعبر الباحة مشياً على الأقدام، وحدثه عن خدماته وعن كرم ارومته، وسيكون معجباً بك للغاية. وتابع القيصر قائلاً وهو يلوح بعصاه - أما الآن فخذني إلى النصاب دانيلتش الذي يجب أن أحاسبه عن أفعاله الشيطانية الجديدة ». »

أعرب غبراهيم عن شكره البالغ إلى بطرس على رعايته الأبوية ورافقه الى قصر الأمير مينشيكوف الفخم، ثم قفل راجعاً إلى بيته.

الباب السادس

كان السراج يومض بوهن أمام الخزانة الزجاجية التي تتألق فيها اطارات الايقونات الذهبية والفضية الموروثة عن السلف. بينما أضاء نوره المهتز الباهت السرير المغطى بالستائر والطاولة التي وضعت عليها قارورات صغيرة فيها رقع. وجلست بالقرب من الموقد الخادمة منهمكة في إدارة آلة الغزل، ولم يعكر الهدوء في المخدع سوى هسيسها الخفيف.

ونبر صوت ضعيف: - من هنا؟ - فنهضت الخادمة فوراً، ودنت من السرير ورفعت الستار بهوء. - وسألت ناتاليا: - هل سيحل الفجر قريباً؟

وأجابت الخادم: الآن الظهر.

- آه، يا ألهي، فلماذا تسود العتمة اذن؟

- النوافذ مغلقة، ياسيدتي.

- هيا عجلي في تقديم ملابس لي لارتدائها.

- لا يجوز، ياسيدتي، فالطبيب لم يأمر بذلك.

- وهل أنا مريضة؟ وكم من الوقت؟

- منذ حوالي أسبوعين؟

- حقاً؟ لقد ترائي لي أنني لزمتم الفراش بالأمس فقط...

صمتت ناتاشا. وحاولت إستجماع افكارها المشتتة. لقد وقع لها حادث ما، ولكن ما هو؟ لم تستطع أن تتذكر. بقيت الخادمة واقفة أمامها بانتظار صدور أوامر. وفي هذه اللحظة تردد ضجيج أصم.

وسألت المريضة: ما هذا؟

فأجابت الخادمة: لقد تناول السادة طعامهم. إنهم ينهضون من المائدة. والآن ستأتي تاتيانا افاناسفنا.

وبدا أن ناتاشا قد ابتهجت. ولوحت بيدها بضعف. وأزالت الخادمة الستار، وجلست مرة اخرى إلى آلة الغزل.

وبعد مضي عدة دقائق إنجس رأس في طاوية بيضاء عريضة ذات شرائط معتمة، واستفسر بصوت خافت:

- كيف حال ناتاشا؟

قالت المريضة بصوت خافت: مرحباً، يا عمتي.

فهرعت تاتيانا افاناسيفنا إليها بسرعة. وقالت الخادمة:- لقد ثابتت السيدة إلى رشدها،- وأزاحت المقعد بحذر.

غمرت العجوز بالقبل الوجه الشاحب والواهن لإبنة أخيها، وهي تكفكف الدموع، ثم جلست إلى جانبها. وجاء في أعقابها الطبيب الألماني، بقفطان أسود وفي باروكة العالم، وتحسس نبض ناتاشا وأعلن باللغة اللاتينية، ومن ثم بالروسية، إن الخطر قد زال. وطلب ورقاً وحبراً، وكتب وصفة طبية جديدة ثم انصرف. أما العجوز فقد

نهضت وقبلت ناتاليا مرة أخرى، ونزلت إلى تحت بسرعة لتزف النبا الطيب إلى غافريلا افاناسيفتش.

كان عربي القيصر يجلس في غرفة الضيافة مرتدياً البزة العسكرية ويتدلى السيفجانبا، ويده القبعة، وانهمك في محادثة غافريلا افاناسيفتش بوقار. أما كورساكوف الذي استلقى على الديوان الوثير، فإنه كان يصغي إليهما بذهن شارد ويداعب كلب الصيد المدلل عن جدارة. وعندما ضجر من ذلك دنا من المرأة، وهي ملاذه عادة في أوقات التبطل والكسل، فرأى فيها تاتيانا افاناسيفنا التي تومئ إلى أخيها بإشارات غير ملحوظة.

فقال كورساكوف مخاطباً رب البيت ومقاطعاً حديث إبراهيم: - إنهم يدعوك ياغافريلا افاناسيفتش. وتوجه هذا فوراً إلى شقيقته وأغلق ورائه الباب.

وقال كورساكوف لإبراهيم: - أنا اعجب لصبرك. فانت كنت تصغي طوال ساعة كاملة إلى السخافات حول قدم سلالتي ليكوف ورجيفكسي زد على ذلك كنت تضيف إليها مواعظك الأخلاقية. لو كنت مكانك *'j'aurais plante' la* الكذاب العجوز وكل سلالته، ومنهم ناتاليا غافريلوفنا نفسها، التي تتنجج، وتظاهر بأنها مريضة، *'une petite sante'* (٢٥). قل لي بصدق، هل أنك تحب حقاً هذه المغناج المدللة الصغيرة. إسمع، يا إبراهيم، إستمع إلى نصيحتي ولو آخر مرة: فأنا حقاً أكثر نباهة وفطنة مما تظن. دع هذه الفكرة السخيفة. لا تتزوج. وأعتقد أن خطيتك لا تكن لك أي مودة تذكر.

٢٤. لبصقتلى (بالفرنسية) - المترجم

٢٥. ضعيفة (الفرنسية) - المترجم

وكل شيء يمكن أن يحصل في هذه الدنيا. فمثلاً: أنا طبعاً وسيم الطلعة، لكن حدث لي أن خدعت الأزواج الذين هم ليسوا أسوأ مني، بحق الرب. وأنت نفسك تذكر صديقنا الباريسي الكونت (د)، ولا يجوز وضع الأمل في إخلاص المرأة، وسعيد من ينظر إلى هذا بلا مبالاة! لكن انت!.. بطبعك المتفجر والتأمل والمتشكك، وبأنفك الأفتس، وبشعرك المجعد ترمي نفسك في كل مخاطر الزواج؟

وقاطعه إبراهيم ببرود: شكراً على نصيحتك الودية. لكن المثل يقول لا تشغل نفسك بتربية أطفال الغير...

وأجاب كورساكوف ضاحكاً: - إحذر يا إبراهيم ألا تضطر إلى إثبات هذا المثل الدارج عملياً، وبكل معنى الكلمة.

لكن الحديث احتدم في الغرفة الأخرى.

وقالت العجوز: إنك تقودها إلى التهلكة فهي لن تحتل منظره.

وعارضها شقيقها بعناد: لا تصدري الأحكام بنفسك. إنه يتردد إلى هنا كخطيب طوال أسبوعين ولم ير خطيبته حتى الآن. وقد يظن في نهاية الأمر أن مرضها بدعة فارغة، وأنا نبحت فقط عن جرجرة الوقت، بغية التخلص منه بشكل ما. وماذا سيقول القيصر؟ فقد أرسل ثلاث مرات مستفسراً عن صحة ناتاليا. إفعلي كما تريدين - لكنني لا أعتزم مخاصمته.

وقالت تاتيانا افاناسيفنا: يا ألهي، ماذا سيحدث للمسكينة؟ دعني على أقل تقدير أعدها لمثل هذه الزيارة. - فوافق غافريلافاناسيفتش وعاد إلى غرفة الضيافة.

وخطب إبراهيم قائلاً:- الحمد لله، لقد زال الخطر. حالة ناتاليا الصحية أفضل بكثير. كنت سأخذك إلى الأعلى لمشاهدة خطيبتك لولا أنني لا أجد مناسباً أن أترك الضيف العزيز ايفان يفغرافوفيتش لوحده هنا.

وهنا كورساكوف غافريلا افاناسيفتش، ورجاه ألا يقلق، وأكد أنه ينبغي عليه الإنصراف، وتوجه نحو غرفة المدخل دون أن يسمح لرب البيت بمرافقته.

في الوقت نفسه عاجلت تاتيانا افاناسيفنا إلى تهيئة المريضة لظهور الضيف الرهيب. فدخلت المخدع وجلست بالقرب من السرير، وهي تلهث، وأمسكت بيد ناتاشا، لكن الباب فتح قبل أن تفلح في النطق بكلمة واحدة. فسألت ناتاشا: من القادم. - لكن العجوز صعقت ذعراً وانعقد لسانها. فقد أزاح غافريلا افاناسيفتش الستار، ونظر بمرود إلى المريضة وسأل كيف حالها؟ وأرادت المريضة أن تبسم له، لكنها لم تستطع ذلك. فقد صعقتها النظرة العابسة لأبيها، وتملكها القلق. وفي الوقت نفسه ترائى أن احد ما يقف عند رأسها. فرفعت رأسها بجهد وبغثة تعرفت على عربي القيصر. ولحظتئذ تذكرت كل شيء، وانجس أمامها كل هول المستقبل. لكن طبيعة جسدها الواهن لم يطرأ عليها أي تأثير ملحوظ. وانزلت ناتاشا رأسها على المخدة مرة أخرى وأغمضت عينيها. وطفق قلبها يدق بوجع. وأشارت تاتيانا افاناسيفنا إلى أخيها بإيماءة إلى أن المريضة تريد النوم، فخرج الجميع من المخدع بإستثناء الخادمة، التي جلست مرة أخرى الى آلة الغزل.

فتحت الحسنة التعيسة عينيها فلم تر أحداً عند سريرها، فاستدعت الخادمة، وأرسلتها في طلب القزمية. لكن دنت من فراشها في تلك

اللحظة المخلوقة الصغية المدورة كالكرة. وكانت لاستوتشكا (وهو إسم القزمة) قد تبعت على السلا لم خفية بساقها القصيرتين غافريلا افاناسيفتشس وإبراهيم واختبأت وراء الباب، دون أن تتخلى عن الفضول المميز للجنس اللطيف. وعندما رأتها ناتاشا صرفت الخادمة بينما جلست القزمة على المصطبة بالقرب من الفراش.

لم يحدث من قبل أبداً أن انطوى هذا الجسد الصغير على هذا القدر من النشاط الروحي. فقد استوعبت في دخيلة نفسها كل شيء، وعرفت كل شيء، واهتمت بكل شيء. واستطاعت بعقلها المتسم بالحيلة والإستمالة لكسب محبة جميع سادة البيت وكره البيت كله، الذي كانت تتحكم به بالتسلط الفردي. وكان غافريلا افاناسيفتشس يصغي إلى وشاياتها وشكاويها وطلباتها الصغيرة، أما تاتيانا افاناسيفنا فكانت تراعي أرائها وتسترشد بنصائحها، بينما كانت ناتاشا تتعلق بها بلا حدود وتأمنها على أفكارها وجميع حركات القلب ذي الستة عشر ريبعاً.

وقالت لها: هل تعلمين يا لاستوشكا، أن باتيوشكا^(٢٦) يريد أن يزوجني العربي.

تنهدت القزمة تنهدة عميقة، وتغضن وجهها المتغضن بقدر أكبر.

ومضت ناتاشا تقول: ألا يوجد أمل، وألا يشفق أبي علي؟

وهزت القزمة قلنسوتها.

وهل لن يدافع عني جدي وعمتي؟

٢٦. ابي بلهجة التجب (المترجم).

كلا ياسيدتي. لقد أفلح العربي خلال فترة مرضك كلها بخلب
ألباب الجميع. والسيد معجب به غاية الإعجاب. والأمير مولع به ولا
يتحدث إلا عنه، أما تاتيانا افاناسيفنا فتقول: يالأسف لكونه عربياً،
فنحن لن نجد خطيباً أفضل منه.

تاوهت ناتاشا المسكينة قائلة: الهي، الهي!

فقالت القزمة وهي تقبل يدها الصغيرة: لا تحزني يا حسنائنا. إذا
ما تزوجت من العربي بالرغم من كل شيء، فإنك ستكونين حرة.
الأمر الآن ليست كما كانت في أيام زمان، فالازواج لا يحبسون
زوجاتهم، ويقال أن العربي ثري، وسيكون بيتك عامراً، وستعيشين
حياة مرفهة...

وقالت ناتاشا: مسكين فاليريان - قالت ذلك بصوت خافت بحيث
ما كان يوسع القزمة سوى التكهن بهذه العبارة، وليس سماعها.

وأردفت بصوت خفيض مشوب بالغموض: هنا تكمن القضية،
ياسيدتي.. يجب أن لا تفكري كثيراً باليتيم ابن رامي المشاة، وألا
تذكرى إسمه في الهذيان لدى إصابتك بالحمى، بغية ألا يغضب
باتيوشكا.

وقالت ناتاشا بذعر: ماذا؟ هل هذيت بإسم فاليريان، وسمعه
باتيوشكا، وباتيوشكا غاضب!

وأجابت القزمة: تلك هي المصيبة. والآن إذا ما طلبت منه عدم
تزويجك بالعربي فسيعتقد أن السبب هو فاليريان. ليس باليد حيلة:
أطيعي إرادة والدك، وليكن ما يكن.

لم تعترض ناتاشا على ذلك بأي كلمة. وأثرت فيها بقوة فكرة أن سر قلبها قد انكشف أمام والدها. وبقي لديها أمل وحيد هو أن تموت قبل أن يتحقق الزواج البغيض. وقد بعثت هذه الفكرة الطمأنينة في نفسها. وانصاعت الروح الضعيفة والحزينة إلى قدرها.

الباب السابع

كان يوجد في بيت غافريلا افاناسيفتش من جهة اليمين مبنى صغير فيه نافذة واحدة. وكان يوجد فيه سرير بسيط مغطى ببطانية قطنية، وأمام السرير طاولة من خشب الشوح فوقه شمعة زيتية مشتعلة ونوتات مفتوحة. وعلقت على الجدار سترة زرقاء عتيقة وقبعة ثلاثية الأركان عتيقة مثلها، وفوقها ثبتت بثلاثة مسامير صورة رخيصة لكارل الثاني عشر فوق صهوة جواده. وكانت أصوات الفلوت تصدح في هذا المسكن المتواضع. وكان مدرس الرقص الأسير، الساكن المنعزل الوحيد فيه، الذي يعتمر طاقية ويلبس رداء النوم، يدفع عنه ضجر الأمسية الشتوية بعزف الألحان العسكرية السويدية، التي تذكره بالأيام المرححة لشبابه. وبعد أن أمضى السويدي ساعتين في العزف، فكك الفلوت، ووضعها في الصندوق وأخذ يخلع ملابسه.

في هذه اللحظة رفعت سقاية بابه ودخل الغرفة شاب طويل القامة يرتدي الزي العسكري.

ونفض السويدي مندهشاً قبالة الضيف غير المتوقع.

وقال الزائر الشاب بصوت مفعم بالتأثر: أنت لم تعرفني ياغوستاف اداميتش. ألا تذكر الصبي الذي علمته الألعاب النارية السويدية وكدت أن تشعل الحريق في هذه الغرفة بإطلاق النار من مدفع الأطفال.

أمعن غوستاف اداميتش النظر فيه، ثم هتف في نهاية المطاف وهو يحتضنه: - اي..ي..يه، رابع، حقاً أنت هنا. إجلسي، يارفيقتي الطيبة، ولنتحدث.

ليال مصرية

الباب الاول

- هذ الرجل؟

- اوه، انه ذو موهبة كبيرة، فهو يفعل بصوته كل ما يريد.

- يجدر به، أيتها السيدة، أن يصنع منه السراويل لنفسه.
(بالفرنسية)

تشارسكي أحد أبناء بطرسبورغ الأصليين. ولم يبلغ سن الثلاثين بعد، ولم يكن متزوجاً، ولم تشكل الوظيفة عبئاً عليه. وقد أورثه ضيعة طيبة المرحوم عمه، نائب المحافظ السابق في زمن الخير. وكان يمكن أن تغدو حياته بهيجة، لكنه لسوء حظه مارس نظم ونشر الشعر. ووصف في المجلات «بالشاعر»، وفي غرف الخدم «بالمؤلف».

وبالرغم من الأفضليات العظيمة التي يتمتع بها ناظمو الأشعار (واعترف: أننا بإستثناء التمتع بالحق في وضع المضاف بدلاً من المضاف إليه وغير ذلك مما يسمى بعدم التقيد بالقواعد الشعرية، لا نجد أية ميزات خاصة للقوائد الروسية) - على أي حال بالرغم من كل أفضليات هؤلاء الأفراد فإنهم يتعرضون لشتى الأرزاء والمحن. ولعل الشر الأكثر مرارة ولا يطاق بالنسبة إلى ناظم الشعر هو تسميته

وكنيته التي يوسم بها ولا تفارقه أبداً. وإذا ما عاد من القرية يسأله أول من يقابله: هل جلبت لنا شيئاً جديداً؟ وإذا ما تأمل في أموره الخائبة، وفي مرض شخص عزيز لديه، تلقاه فوراً الابتسامة المتبدلة ويرافقها الإستفسار المتذل: حقاً، هل تنظم شيئاً ما! وإذا ما أحب؟ - إن الحسنة تشتري فوراً ألبوماً في المتجر الإنجليزي وتنتظر منه أنشودة رثاء. ويأتي إليه شخص، لا يعرفه تقريباً، للتحدث إليه عن أمر هام، فيدس له فوراً إبنه ويرغمه على تلاوة أشعار ما له، أما الصبي فيقدم إلى الشاعر إشعاره الشوواء. هذه هي حلاوة المهنة! فكيف يجب أن تكون منغصاتهما؟ واعترف تشارسكي بأن التحيات والإستفسارات والألبومات والصبيان قد اضجروه، لدرجة أنه مضطر في كل لحظة لمنع نفسه من قول كلام غليظ ما لهم.

إستخدم تشارسكي كل السبل الممكنة لكي يلقي عن كاهله النعت الثقيل الوطأة. فقد ابتعد عن صحبة إخوانه الأدباء وفضل عليهم الأفراد من سراة القوم وحتى أكثرهم خواء. وكان حديثه مبتذلاً وأحياناً لا علاقة له بالأدب. وفي ملبسه إلتزم دوماً بآخر موضحة تميز تهيب وإيمان الموسكوفي الشاب بالخرافات، والذي جاء إلى بطرسبورغ لأول مرة في حياته. وفي مكتبه، المرتب بهيئة مخدع سيدة، لا يوجد ما يشير إلى حضور كاتب. فلا توجد كتب مرمية على الطااولات وتحتها، والأريكة غير ملطخة بالخبر، ولا أثر للفوضى التي تكشف حضور إلهة الشعر، وتغيب المكنسة والمقشة. وكانت الدنيا تسود في عيني تشارسكي إذا ما ضبطه أحد الأصدقاء من سراة القوم وييده القلم. ومن العسير أن نتصور ما يبلغه من اهتمام بصغائر الأمور إنسان لوذعي، وهو بالمناسبة، صاحب موهبة وروح. فيصور نفسه بأنه مولع بالجياد، أو لاعب قمار متهور، أو ذواق أطحمة رقيق الحس.

هذا بالرغم من أنه ما كان يستطيع تفريق سلالة الجياد الغورية عن العربية، أو تذكر البتة الأوراق الراححة، وكان يفضل في الخفاء تناول البطاطس المشوية وليس شتى أصناف أطباق المطبخ الفرنسي. وكان طراز حياته يتسم بالذهول التام، فكان يحضر جميع حفلات البالو، ويشارك في جميع المآدب الدبلوماسية، وحضوره أكيد في الأمسيات المكرسة إلى ايس كريم ريزانوف

لكنه كان شاعراً، وشغفه بالنظم لا يقهر: وحين كانت تراود تشارسكي هذه الخبيثة (هكذا كان يصف الإلهام)، تراه يغلق على نفسه باب المكتب ويكتب منذ الصباح وحتى في وقت متأخر من الليل. واعترف لأصدقائه المخلصين بأنه كان حينئذ فقط يعرف السعادة الحقيقية. أما في بقية الوقت فكان يتجول، وملئ نفسه الضجر والتكلف وسماع السؤال العتيد: هل نظمت شيئاً جديداً؟

وشعر تشارسكي مرة صباحاً بخلجات النفس الطيبة حين تتجلى الأحلام أمام المرء، وتأتيه الكلمات الحية المباغثة لتجسيد رؤياه، وحين تمضى الأبيات الشعرية يسر تحت القلم، وتهرع القوافي الرنانة للقاء الفكر المنسجم. وغاص تشارسكي بكل جوانح روحه في زوايا النسيان اللذيذة.. ولم يعد هناك وجود للمجتمع لديه، وآراء المجتمع، ونزواته نفسه. فقد كان ينظم القصائد.

وبغثة سمع صرير باب مكتبه وانبجس رأس شخص مجهول. فجفل تشارسكي وعبس.

وسأل منزعجاً: من هناك؟ - ولعن في سره خدومه الذين لا يرابطون عند المدخل أبداً.

ودخل الرجل المجهول.

كان فارغ الطول نحيفاً، وبدا في حوالي الثلاثين من العمر. وكانت ملامح وجهه الأسمر معبرة: جبهته العالية الشاحبة، التي تبدل فوقها خصلات شعر أسود، وعيناه السودوان المتألفتان، والأنف المعقوف واللحية الكثة حول الخدين الخاسفين المائلين إلى الصفرة القائمة، تدل كلها على أنه أجنبي. وكان يرتدي فراكا أسود، برزت على مواقع الخياطة فيه بياضات، وسراويله صيفية (بالرغم من أن الطقس في الخارج في أواخر الخريف)، وتآلق ألماس زائف فوق ربطة العنق السوداء البالية وجبهة الصدر المائلة إلى الإصفرار. وقبعته بالية، وبدا أنها رأت الجو الصافي والممطر. وإذا ما ألتقى المرء مثل هذا الشخص في الغابة لظن أنه قاطع طريق، أما في المجتمع فيبدو مثل متآمر سياسي. كما يؤخذ عند مدخل البيت بصفته محتالاً يتاجر بالمحاليل والزرنيخ.

سأله تشارسكي باللغة الفرنسية: - ماذا تريد؟

فأجاب الأجنبي بإنحناء شديدة:

- *Signor ، Lei voglia perdonarmi se* (٢٧)

لم يعرض عليه تشارسكي الجلوس في المقعد ووقف نفسه. وتواصل الحديث باللغة الإيطالية:

قال الرجل المجهول: - أنا من نابولي، وأرغمتني الظروف على ترك وطني. وجئت الى روسيا وألمي في موهبتي.

٢٧. سنيور، اغفر لي، ارجوك، اذا... (بالإيطالية) - المترجم

أعتقد تشارسكي أن ابن نابولي هذا يعتزم تقديم عدة حفلات بالعزف على الفيولونسيل ويوزع التذاكر على البيوت. وأراد أن يعطيه خمسة وعشرين روبلا، وبهذا يتخلص منه بسرعة، لكن الرجل المجهول أضاف قائلاً:

أمل، ياسنيور، أن تقدم معونة ودية لأخيك بأخذه إلى البيوت التي ترتادها.

ما كان بالإمكان توجيه إهانة أكثر إيلاماً من هذه إلى كرامة تشارسكي. فنظر بعجرفة واستعلاء إلى ذاك الذي وصفه بالأخ.

وسأله، وهو يكظم غضبه بجهد: إسمح لي بأن أسألك من أنت ومن تظنني؟

لاحظ ابن نابولي انزعاجه فأجاب متعلثماً:

— *ho creduto.. ho sentito.. la vostra eccellenza mi perdonera...* (٢٨)

وكرر تشارسكي بجفاء: - ماذا تريد؟

فأجاب الإيطالي: سمعت الكثير عن موهبتك العجيبة، ولي ثقة بأن السادة هنا يشرفهم إبداء كل رعاية إلى شاعر فذ مثلك، ولهذا تجرأت على المجئ إليك..

وقاطعه تشارسكي: لقد اخطأت ياسنيور. لا توجد لدينا تسمية

٢٨. سنيور انا فكرت.. واعتقدت.. يا صاحب السعادة، ارجو المعذرة..
بالإيطالية) - المترجم

الشاعر. ولا يحظى شعراؤنا برعاية السادة، وشعراؤنا أنفسهم سادة، وإذا كان المحسنون إليك (ليأخذهم الشيطان!) لا يعرفون ذلك، فهذا الأمر أكثر سوءاً لهم. ولا يوجد لدينا قس يأخذهم الموسيقي من الشارع من أجل تأليف *libretto*. والشعراء عندنا لا يمشون من بيت إلى بيت، ويتوسلون لتقديم المعونة لهم. ربما قالوا لك على سبيل المزاح بأنني منظم قصائد عظيم. حقا أنني نظمت في وقت ما قصائد ساخرة رديئة. لكن، والحمد لله، لا توجد لدي أية علاقة بالسادة منظمي الأشعار ولا أريد ان تكون لدي أية علاقة بهم.

شعر الإيطالي المسكين بالإحراج. وتطلع حوله. لقد بهرته اللوحات، والتماثيل المرمرية، والبرونزيات، واللعب الغالية الثمن المرتبة فوق الرفوف. وأدرك بأنه لا يجمعه جامع بين الغندور المتعجرف الواقف أمامه معتمراً القلنسوة ذات الذؤابة المقصبة، وبالروب الصيني الموشى بالذهب، والمحزم بالشال التركي، وبينه هو الفنان المتجول الفقير ذي ربطة العنق المتهراة والفراك البالي. فردد عدة عبارات غير مترابطة معتذراً وانحنى وأراد الخروج. لكن مظهره البائس قد اثار لدى تشارسكي مشاعر العطف عليه، فقد كان بالرغم من صغائر طبعه ذا قلب طيب ونبيل. وخجل من احتياج كبريائه بالذات.

فقال للإيطالي: - الى أين أنت ذاهب؟ قف.. يجب أن أرفض لقب الشاعر الذي لا استحقه، وأن أعترف لك بأنني لست شاعراً. والآن لتحدث عن شؤونك. أنا مستعد لتقديم الخدمة لكن فقط بقدر ما أستطيع. هل أنت موسيقي؟

وأجاب الإيطالي: لا، يا صاحب السعادة! أنا شاعر مرتجل مسكين؟

وهتف تشارسكي بعد أن شعر بكل قسوة تعامله معه: شاعر مرتجل
! لماذا لم تخبرني من قبل أنك شاعر مرتجل؟ - وصافحه تشارسكي
بشعور من المغفرة الصادقة.

لقد تشجع الإيطالي لدى رؤية مظهره الودي. وصار يتحدث
ببساطة وانسراح عن افتراضاته. ولم يكن مظهره خادعاً، فقد كان
بحاجة إلى النقود، وآمل أن يحسن ظروفه المعيشية بشكل ما في
روسيا. وأصغى إليه تشارسكي بإهتمام.

ثم قال للفنان المسكين: - آمل في أن تحقق النجاح: فالمجتمع هنا
لم يستمع أبداً إلى شاعر مرتجل. وسيثير الأمر فضولهم، حقا إن اللغة
الإيطالية غير رائجة عندنا، لكن لا بأس في ذلك، والشيء الرئيسي أن
تكون مسائراً للموضة.

فقال الشاعر المرتجل متأملاً: إذا كان لا أحد يفهم اللغة الإيطالية،
فمن سيأتي لسماعي؟

سيأتون - لا تخشى ذلك: فسيأتي البعض على سبيل الفضول،
أما البعض الآخر فيريد أن يزجي الوقت في المساء بشكل ما، وثمة فئة
ثالثة ستأتي من أجل أن تظهر أنها تفهم اللغة الإيطالية. وأكرر يجب
فقط أن تسامر الموضة، وستكون مع الموضة، وهاك يدي.

افترق تشاريكي بلطف مع الشاعر المرتجل، وأخذ عنوانه، وتوجه
في المساء ذاته لكي يسعى من أجله.

الباب الثاني

أنا القيصر، أنا العبد، أنا الدودة، أنا الرب.

دير جافين

في اليوم التالي كان تشارسكي يبحث في ممر معتم وقدر عن الغرفة رقم ٣٥. ثم توقف عند الباب وطرقه. ففتحه إيطالي يوم أمس. وقال له تشارسكي:

تحقق النصر! قضيتك في الجيب. إن الأميرة تعطيك صالونها، وقد استطعت يوم أمس في حفل الإستقبال من تجنيد نصف بطرسبورغ، إطلع التذاكر والإعلانات. انا اضمن لك إن لم يكن النجاح الباهر، فعلى على الأقل كسب الربح.

وهذا هو الأمر الرئيسي، - هتف الإيطالي معربا عن ابتهاجه بحركات تتسم بالحيوية، تميز طبعه بصفته من أبناء الجنوب، - كنت أعرف بأنك ستساعدني. *Corpo di Bacco* (٢٩) أنت شاعر مثلي. ومهما قيل فالشعراء فتيان أماجد! كيف أعبر لك عن شكري وامتناني؟ مهلاً.. هل تريد سماع ارتجال؟

٢٩. ليأخذني الشيطان (بالإيطالية)

ارتجال!... ولكن هل تستطيع ذلك بلا جمهور، وبلا موسيقى،
وبلا عاصفة من التصفيق؟

هراء، هراء! أين أجد جمهور أفضل منك؟ أنت شاعر وتفهمني
أفضل منهم واستحسانك الهادئ أئمن لدي من عاصفة شديدة من
التصفيق... أجلس في مكان ما واشرح علي فكرة ما.

جلس تشارسكي على حقيبة (كان يوجد من بين الكرسيين
الموجودين في الحجر الضيقة كرسي محطم، بينما وضعت فوق
الآخر كومة من الأوراق والملابس الداخلية). وأخذ الشاعر المرتجل
آلة الجيتار من الطاولة - ووقف قبالة تشارسكي وهو يضبط الأوتار
بأصابع نحيفة بانتظار ورود الفكرة.

فقال تشارسكي له: - إليك هذه الفكرة، الشاعر ينتقي بنفسه
المواضيع لأغانيه، والجمهور لا يتمتع بالحق في التحكم بالهامه.

تأملت عينا الإيطالي بوميز فعزف عدة إلهان ورفع رأسه عاليا
بكبرياء، وانطلقت من فيه بتناغم منسجم المقاطع الشعرية المشبوبة،
تعبيرا عن شعور تلك اللحظة... وإليك واحدة منها قام بترجمتها
بتصرف أحد الاصدقاء من الكلمات المتبقية في ذاكرة تشارسكي.

الشاعر يمضي - بعينين مفتوحتين،

لكنه لا يرى أي أحد

فإذا أحد المارة يسحبه من طرف ثوبه...

قل لي مالك تتسكع بلا هدف؟

وما تكاد تبلغ الذرورة،

حتى تتطلع إلى الأسفل
وتصبو إلى الحضيض.
إنك تتطلع إلى العالم المنسجم بحيرة وارتباك.
ويجهدك الحر العقيم
ثمة في أعماق ذاتك سخونة تعذبك
وأمر تافه يشغل بالك ويجذبك في كل لحظة.
إن العبقري يجب أن يتطلع نحو السماء،
ويجب على الشاعر الحقيقي
أن يختار موضوعاً سامياً
من أجل القصائد الملهمة».
لم تلف الريح وتدور في الهوة،
وترفع الأوراق والغبار
بينما تقف السفينة ساكنة في البحر
وتنتظر بشوق هبوب الريح.
ويطير النسر، الثقيل والرهيب،
من الجبال ومحاذاة الأبراج.
هل إلى الزبد الواهن؟ أسأله.
ولماذا عشقت العربي
الصبية ديزدمونة.

كما يعشق الهلال عتمة الليل الدامس؟
لا يوجد عرف وقانون لدي الريح والنسر

وقلب الصبية.

كذلك هو الشاعر: إنه مثل ريح الشمال (اكوينوليس)

يفعل ما يفعل وفق هواه.

إنه مثل النسر، يحلق

من دون أن يسأل أحداً.

إنه مثل ديزدمونة

يختار المحبوب إلى قلبه.

توقف الإيطالي عن الكلام.. ولزم تشارسكي الصمت بعد أن
تملكته الدهشة والتأثر.

فسأل المرتجل: - ما رأيك؟

فقبض تشارسكي يده وصافحه بقوة.

وسأل الشاعر المرتجل: كيف، ما رأيك؟

وأجاب الشاعر: - مدهش. كيف! لقد مست الفكرة الغريبة
سمعك وأصبحت فكرتك نفسك، كما لو أنك احتضنتها ورعيتها
وطورتها بلا توقف. وهكذا، لا تجد صعوبة ولا برودة ولا ذلك القلق
الذي يسبق الإلهام؟.. مدهش، مدهش!

فأجاب الشاعر المرتجل قائلاً:

إن أية موهبة لا تخضع للتأويل. فكيف يرى النحات في كتلة
المرمم الكاراري صورة جوبيتر المخفية ويخرجها إلى النور، ويكشفها
باستخدام الأزميل والمطرقة؟ ولماذا تخرج الفكرة من رأس الشاعر

متسلحة بالرباعيات، الموزعة بصفوف متماثلة موزونة؟ وهكذا لا يستطيع أحد غير المرتجل نفسه إدراك سرعة الإنطباعات هذه، وتلك الرابطة المتينة بين إلهامه نفسه والإرادة الخارجية الغريبة عنه - عبثاً إن اردت تأويل ذلك. ولكن.. يجب أن افكر في أول أمسية لي. ماذا تعتقد؟ ماهو الثمن الذي يجب تحديده للتذكرة، بغية ألا تشكل عبئاً على الجمهور وبغية ألا أبقى بلا مورد؟ يقال ان *la signora Catalani*^(٣٠) اخذت ٢٥ روبلا؟ هذا سعر جيد...

شعر تشارسكي بالاستياء للهبوط من ذرى الشعر بغتة إلى دكان صاحب متجر، لكنه كان يدرك جيداً ضرورات الحياة اليومية، وهبط مع الإيطالي إلى الحسابات التجارية. وقد شعر الإيطالي لحظتئذ بجشع وحشي، وبولع بالربح، وبهذا عارض تشارسكي الذي عاجل في تركه لشأنه بغية ألا يفقد كلياً مشاعر الإعجاب التي ولدتها فيه الشاعر المرتجل الرائع. ولم يلاحظ الإيطالي المنشغل بهوموم هذا التغير، ورافقه في المرمر وحتى السلا لم مع إبداء إنحناءات شديدة والإعراب عن الإمتنان إلى الأبد.

٣٠. السنيورة كاتالاني..(بالإيطالية).

الباب الثالث

سعر التذكرة ١٠ روبلات، بداية الحفل في الساعة السابعة.

اعلان

وضع صالون الأميرة تحت تصرف الشاعر المرتجل. وأعدت المنصة، وصفت المقاعد في عشرين صفاً. وفي اليوم المقرر، وعند الساعة السابعة مساءً، تمت إنارة الصالة، وجلست عند المدخل وراء طاولة من أجل بيع واستلام التذاكر امرأة عجوز ذات أنف طويل وقبعة رمادية ثبتت فيها رياش مكسورة وزينت جميع أصابعها بخواتم. كما وقف رجال الدرك عند المدخل. وبدأ الجمهور بالتوافد. وكان تشارسكي من بين أول القادمين. وقد شارك بقدر كبير في نجاح العرض. وأراد رؤية الشاعر المرتجل ليعرف منه، فيما إذا كان راضياً عن كل شيء. ووجد الإيطالي في غرفة جانبية، وهو ينظر بنفاد صبر إلى ساعته. كان الإيطالي يرتدي زيا مسرحياً: حيث تلعف بالسواد من الرأس وحتى أخمص القدمين، وتدلّت الياقة المصنوعة من الدنتلا في قميصه إلى تحت، وتنافرت رقبتة الناصعة البياض بشكل غريب مع لحيته السوداء الكثّة، بينما تدلّت خصلات شعره فوق جبهته وحاجبيه. ولكن هذا كله لم يعجب تشارسكي، الذي لم تكن تسره رؤية شاعر بزي مهرج متجول. وبعد محادثة قصيرة معه عاد إلى الصالون الذي كان يزداد ازدحاماً أكثر فأكثر.

وسرعان ما شغلت جميع صفوف المقاعد سيدات باهرات الأناقة، فيما وقف الرجال الذين احتشدوا عند مقدمة خشبة المسرح، وعلى امتداد الجدران وخلف المقاعد الأخيرة. وشغل الموسيقيون مع حواملهم للنوتات كلا جانبي الخشبة. ووضعت زهرية خزفية على طاولة في وسطها. كان حشد الجمهور كبيراً. وانتظر الجميع البداية بفارغ الصبر، وأخيراً وعند الساعة السابعة والنصف تملل الموسيقيون وأعدوا أقواس الآلات وعزفوا مقدمة أوبرا « تانكريد ». وساد الهدوء والصمت، وصدحت آخر ألحان المقدمة... ودنا الشاعر المرتجل، الذي قوبل بعاصفة من التصفيق من كافة الأنحاء، من مقدمة خشبة المسرح وانحنى لهم إنحناءات شديدة.

وانتظر تشارسكي بقلق الإنطباع الذي ستركه الدقيقة الأولى، ولاحظ أن الزري الذي بداله غير لائق لم يولد التأثير نفسه في الجمهور. ولم يجد تشارسكي نفسه أي شيء مضحكاً فيه حين رآه فوق خشبة المسرح بوجه شاحب أنارته بشكل ساطع المصابيح والشموع الكثيرة. وهدأ التصفيق وخدمت الهمهمة. ورجا الإيطالي بلغة فرنسية ركيكة السادة الضيوف أن يقترحوا عدة مواضيع يتدوينها على وريقات خاصة. وبدأ الجميع وقد فاجأتهم الدعوة بالتطلع نحو أحدهم الآخر ولم يستطع أي أحد الإجابة. وانتظر الإيطالي قليلاً ثم كرر طلبه بصوت ينم عن الوجع والوداعة. أما تشارسكي الذي كان يقف عند مقدمة خشبة المسرح فقد تملكه الإضطراب، وشعر بأن الأمر يتطلب تدخله وأنه مضطر لكتابة موضوعه. وفعلاً أخذت عدة رؤوس نسائية تناديه في البداية بصوت خافت ومن ثم بصوت أعلى فأعلى. وعندما سمع المرتجل إسم تشارسكي طفق يعجيل بناظره بحثاً عنه تحت قدميه وسلمه القلم وقصاصة ورق بابتسامة ودية. وبدأ لتشارسكي أن أداء دور في

هذه الكوميديا شيء لا يبعث على الإرتياح، لكن ليس في اليد حيلة. فأخذ القلم والورقة ودون عدة كلمات. وتناول الإيطالي الزهرية من الطاولة ونزل من خشبة المسرح وحملها إلى تشارسكي الذي ألقى فيها موضوعه. واقتدى آخرون به. فوجد صحفيان، بصفتها من أهل الأدب، أن من الواجب أن يكتب كل واحد موضوعاً، وألقى في الزهرية ورقتيهما المطويتين سكرتير سفارة نابولي وشاب عاد مؤخراً من رحلة، وهذر بشيء ما عن فلورنسا، وأخيراً، قامت فتاة غير جميلة، بأمر من أمها، وقد اغرورقت عينها بالدموع،، بكتابة عدة سطور بالإيطالية وسلمتها الى المرتجل وقد اصطبغت بشرتها بالحمرة حتى الأذنين، فيما تطلعت السيدات نحوها بصمت، وبشيء من التهكم الملحوظ. وعاد المرتجل إلى خشبة المسرح ووضع الزهرية على الطاولة وأخذ يستخرج قصاصات الورق الواحدة تلو الأخرى ويقرأها بصوت عال:

عائلة تشينتشى.

(La famiglia dei Cenci)

L'ultimo giorno di Pompeia

Cleopatra e I suoi amanti.

La primavera veduta da una prigioniera.

Il trionfo di tyasso.⁽³¹⁾

سأل الإيطالي الوديع: - ماذا يأمر الجمهور المحترم؟ هل يترك لي أن

٣١. آخر يوم في بومبي، كليوباترا وعشاقها، ربيع يرى وسط العتمة، انتصار تاسو (بالإيطالية) - المترجم

اختار أحد المواضيع المقترحة أم يترك هذا الأمر الى القرعة؟..

ونبر أحد الأصوات من الحشد: - بالقرعة !..

وكرر الجمهور: - بالقرعة، بالقرعة !

ونزل الشاعر المرتجل مرة اخرى من خشبة المسرح حاملا الزهرية وسأل: «من سيسحب موضوع القرعة؟». وتطلع الشاعر المرتجل بتوسل نحو الصفوف الأولى من المقاعد. ولم تحرك ساكنا أية واحدة من السيدات الأنيقات الجالسات هناك. وبدا أن الشاعر المرتجل الذي لم يألف لا مبالاة أهل الشمال أخذ يعاني في دخيلة نفسه.. وفجأة لاحظ من الجانب يداً مرفوعة بقفاز أبيض صغير، فأندفع بحيوية واقترب من حسناء فتية رائعة كانت تجلس عند طرف الصف الثاني. ونهضت بلا أي ارتباك ومدت يدها الأرسقراطية في الزهرية واستخرجت منها ورقة ملفوفة.

فقال لها الشاعر المرتجل: - إسمحي بفتحها وقرائتها.

وفتحت الحسناء الورقة وقرأت بصوت مسموع:

Cleopatra e I suoi amanti⁽³²⁾-

وقد تليت هذه العبارة بصوت خافت لكن ساد القاعة صمت مطبق جعل الجميع يسمعونها. وانحنى الشاعر المرتجل انحناء عميقة للحسناء تنم عن الإمتنان البالغ لها وعاد إلى خشبته.

ثم قال مخاطباً الجمهور: - أيها السادة، حددت لي القرعة كليوباترا

٣٢. كليوباترا وعشاقها- المترجم.

وعشاقها كموضوع للإرتجال. لكنني أرجو بالغ الرجاء الشخص الذي اختار هذا الموضوع أن يوضح لي فكرته: من المقصود بهؤلاء العشاق لأن *perche' la grand regina n'aveva molto*^(٣٣)...

ولدى سماع هذا القول صار كثير من الرجال يضحكون بصوت عال. بينما اضطرب الشاعر المرثجل.

فمضى قائلاً:- بودي أن أعرف السمة التاريخية التي قصدتها الشخص لدى اختيار هذا الموضوع... وسأكون ممتناً للغاية لو تفضل بإيضاح الأمر...

لم يعجل أي أحد في الإجابة. ورنث عدة سيدات إلى الفتاة التي كتبت الموضوع بإيعاز من أمها. ولاحظت الفتاة المسكينة هذا الإهتمام غير الودي فاضطربت لدرجة أن الدموع علققت في رموشها.. ولم يطق تشارسكي صبراً على ذلك فخاطب الشاعر المرثجل باللغة الإيطالية قائلاً:

أنا الذي اقترحت الموضوع. وكان قصدي ما أورده افريل فكتور الذي كتب زاعماً أن كليوباترا اشتربت الموت ثمنا لمطارحتها الهوى، ووجد أن العشاق لم يخفهم هذا الشرط ولم ينكروه.. ولكنني أعتقد مع هذا أن الموضوع صعب نوعاً ما.. فهل تختار موضوعاً آخر؟..

لكن الشاعر المرثجل قد شعر بإقتراب إرادة الرب.. فأعطى الإشارة إلى الموسيقين لكي يعزفوا.. وشحب وجهه بشكل فظيع، ودمدم بشيء ما كما لو أصيب بالحمى، وتألقت عيناه بنار عجيبة، وأزال بيده خصلات شعره الأسود، ومسح بالمنديل جبينه العالي المتصفد

٣٣. لأنه كان لدى الملكة العظيمة الكثير من العشاق (بالإيطالية) - المترجم.

بقطرات العرق.. وفجأة تقدم إلى الأمام، وتصاب بذراعيه على صدره.. وخدمت الموسيقى.. وبدأ الإرتجال:

تلاً القصر الملكي. وهدرت جوقة
المغنيات بمصاحبة الزمار والقيثارة.
وأشاعت الملكة الحويوية في المأدبة،
بصوتها ونظراتها المهيبة.
وسعت القلوب إلى عرشها،
لكنها انغمرت في التأمل،
بفتة في الكأس الذهبية
وأرخت رأسها البالغ الحسن...

وبدا كما لو أن المأدبة الفخمة قد استفرقت في غفوة
ولزم الضيوف الصمت. وسكتت جوقة المغنين.
وبفتة رفعت رأسها مجدداً
وأبلغت الحاضرين بوضوح قرارها:
هل سيكون حبي متعة لكم!
المتعة يمكن أن تشتروها...
اصغوا إلي:

أنا موافقة على أن يسود العدل بيننا.
فمن يوافق قبل غيره على دخول مزاد العشق؟
إنني أبيع حبي.

وقولوا: من منكم سيشتري ليلة معي مقابل حياته؟-

أقسم... بأَم اللذائذ،
سأخدمك بشكل لا مثيل له،
في سرير الشهوات الجامحة
سأكون كجارية عادية.
استمعي إلي، يا أفردويت العظيمة،
وانتم ياملوك العوالم السفلى،
أوه، يا ارباب مملكة الأموات الرهيبة،
أقسم - بأنه قبل طلوع الفجر
سأقر بوعدى وأنفذ أية رغبة للعشاق
واجهدهم باللذة،
وبجميع أسرار القبل
وأروي عطشهم إلى النعيم.
ولكن حالما تظهر طلوع الفجر
وتتألق اورورا الخالدة،
فأقسم بأن رأس المحظوظين ستطير تحت ضربات الطير.

قالت هذا - وقد غمر الرعب الجميع،

وارتجفت القلوب المفعمة بالشهوة...

أما هي فقد أصغت إلى الجمجمة الحائرة

ونظرت إليهم بوجه يتسم بالوقاحة الباردة
إلى المعجبين حولها باحتقار..
وفجأة قام رجل وسط الحشد،
ثم اعقبة إثنان آخران.
لقد ساروا بخطوات ثابتة
وبعيون صافية،
فنهضت للقائهم.
لقد أنجز الأمر: وبيعت ثلاث ليال،
وسرير الموت يناديهم.

باركهم الكهنة،
والآن صارت القرعة تخرج من وعاء الزوام،
أمام الضيوف الجامدين بلا حراك.

وأولهم - فلافوس جندي شجاع
وخط الشيب شعر رأسه في الكتائب الرومانية،
إنه لم يعد يطيق احتقار زوجته وغطرستها،
وواجه تحدي اللذة،
كما كان في الحرب
يووجه تحدي المارك الضارية.
واعقبه كريتون، الشاب الحكيم،

الذي ولد في أحراج ابيقور. كريتون العاشق ومنشد
مآثر خاريطي وكبريد وأمور...
والأخير لم يذكر اسمه
إنه محب للقلوب والأبصار.
وهو كالزهرة الربيعية النضرة الموشكة على التفتح،
وتمت على خديه بواكير زغب بض،
وتألفت في عينيه البهجة.
وفارت في قلبه الفتى ... قوة شهوات عدم الخبرة...
وثبتت الملكة أنظارها عليه برقة وحنان.

كيرجالي

كان كيرجالي بلغاري الأصل. وتعني كلمة كيرجالي باللغة اليونانية الفارس والشجاع. أما إسمه الحقيقي فلا أعرفه.

بث كيرجالي الرعب في مولدافيا بأسرها بأفعاله كقاطع طريق. وبغية إعطاء فكرة ما عنه سأروي إحدى مآثره. فحدث مرة ليلاً أن هاجم سوية مع الأرناؤوط ميخايلاكى قرية بلغارية. فقاما بإضرام النيران من كلا طرفيها وأخذتا يتنقلان من بيت إلى آخر. وكان كيرجالي يذبح الأهالي، بينما يقوم ميخايلاكى بجمع الغنائم. وكانا يصرخان: «كيرجالي! كيرجالي!». وهرب جميع أهالي القرية.

وعندما أعلن الكسندر ايسيلانتي^(٣٤) الإنتفاضة وصار يجند القوات، اقتاد كيرجالي إليه عدداً من رفاقه القدامى. علماً أنهم لم يعرفوا تماماً الهدف الحقيقي للتنظيم السري، لكن الحرب كانت فرصة لكسب الغنائم من الأتراك، وربما من المولدافيين، - وبداهم ذلك جلياً للعيان.

كان الكسندر ايسيلانتي شخصياً رجلاً شجاعاً، لكنه لم يتمتع

٣٤. ناثر يوناني قاد انتفاضة شعوب الدانوب ضد حكم الاتراك في عام ١٨٢٠ وترأس "الجمعية المتألفة" لكنه فشل في ثورته- (المترجم).

بالسجاييا اللازمة لأداء الدور الذي أخذه لنفسه بكل حماس وبلا حذر. فهو لم يستطع إيجاد لغة مشتركة مع الأفراد الذين اضطروا لقيادتهم. فلم يحترموه ولم يثقوا به. وبعد المعركة المنحوسة التي قتل فيها زهرة الشباب اليوناني نصحه يورداكي اوليميوتي بالتخلي عن القيادة وحل نفسه محله. وانطلق ايسيلانتي نحو حدود النمسا ومن هناك وجه لعناته على الأشخاص الذين وصفهم بالخونة والجبناء والأنذال. علماً أن غالبية هؤلاء الجبناء والأنذال لقوا حتفهم عند أسوار دير سيكو أو على ضفاف نهر بروت، في أثناء دفاعهم المستميت ضد عدو أقوى منهم بعشرة أمثال.

أما كيرجالي فكان مع فصيلة غيورغي كانتاكوزين الذي يمكن إعطاء الوصف ذاته الذي أعطي لاييسيلانتي. ففي عشية المعركة في أطراف سكولياني طلب كانتاكوزين من القيادة الروسية السماح له بالمجيء إلى معسكرنا للحجر الصحي. وهكذا أصبحت الفصيلة بلا قائد. لكن لم يجد كيرجالي وكذلك سافيانوس وكانتاغوني أية حاجة لقائد.

وأظن أن أي أحد لم يصف المعركة عند سكولياني على حقيقتها. فتصوروا ٧٠٠ رجل من الأورناووط والألبان واليونانيين والبلغار وشتى الدهماء الذين ليس لديهم أية معرفة بالفن العسكري وهم يتراجعون لدى مواجهة خمسة آلاف رجل من الفرسان الأتراك. ووجدت هذه الفصيلة المأوى عند ضفة بروت ونصبت أمامها مدفعين صغيرين وجدوهما في ياسي في باحة بيت أحد أصحاب الأتبان الذي كان يطلق منهما النار في أيام المرافع والأعياد. وقد كان الأتراك سيغبتون باطلاق قنابل كريات الرصاص، لكنهم لم يجروا على ذلك من دون موافقة القيادة الروسية، لأن كريات الرصاص كانت

ستساقط حتماً على ضفتنا. علماً أن قائد معسكر الحجر الصحي (المرحوم حالياً)، لم يسمع خلال طوال حياته وخلال ٤٠ عاماً من الخدمة العسكرية أزيز الرصاص، والآن أتاح له الرب هذه الفرصة لسماعه. ومرت عدة رصاصات بمحاذاة أذنيه. فغضب العجوز كل الغضب وانهاه بالشتائم على النقيب اوخوتسكي من فوج المشاة المرابط في المعسكر. ولم يدر النقيب ما يجب عليه فعله وهرول إلى النهر الذي كان يرابط ورائه رجال الديلياشا (ديلر اغا) على صهوات خيولهم، وهددهم بإصبعه. وعندما رآه رجال الديلياشا استداروا وانطلقوا مبتعدين، وتبعتهم الفصيلة التركية بأسرها. وكان إسم النقيب الذي هددهم بإصبعه خورتشيفسكي. ولا أعرف مصيره.

لكن الأتراك هاجموا في اليوم التالي المتمردين. ولم يتجاسروا على إطلاق كريات الرصاص ولا القذائف. وقرروا خلافا لعادتهم استخدام السلاح الأبيض. وكانت المعركة قاسية. واستخدمت الخناجر الطويلة. وشاهد الأتراك الرماح التي لم تكن لديهم في ذلك الحين، وكانت هذه الرماح بأيدي جماعة نيكرا سوف الروسية الذين حاربوا في صفوفهم. وكان بوسع أفراد التنظيم السري بموافقة قيصرنا عبور نهر بروت واللجوء إلى معسكرنا للحجر الصحي. فبدأوا العبور سباحة. وكان آخر من بقي في الضفة التركية هما كاتاغوني وسافيانوس. أما كيرجالي الذي جرح في العشية فكان يرقد في المعسكر. وقتل سافيانوس. وجرح كاتاغوني الضخم الجثة في بطنه بطعنة رمح. ورفع بيد السيف بينما سحب باليد الأخرى رمح العدو وغرسه بشكل أعمق في جسده وبهذا تمكن من طعن قاتله الذي خر صريعاً سوية معه.

إنتهى كل شيء. وانتصر الأتراك. وتم تطهير مولدافيا. وانتشر حوالياً

ستمائة رجل من الأورناؤوط في أرجاء بيسارابيا، ولم يجدوا ما يقتاتون به لكنهم اعربوا مع هذا عن الإمتنان إلى روسيا التي منحتهم الملاذ. إن طراز حياتهم يتسم بالتبطل ولكن ليس بالفساد. ويمكن رؤيتهم دائماً في مقاهي بيسارابيا شبه التركية في أفواههم غلايين طويلة، وهم يحتسون ثفل القهوة من فناجين صغيرة. وأخذت بالبلبلى ستراتهم المزخرفة وأحذيتهم الحمراء المدببة الرأس، لكن طرايبشهم القنبرانية ما برحت متدلّية جانباً، كما ما زالت تتدلى من الأحزمة العريضة الخناجر والغدارات، ولم يجرأ أي أحد منهم بالشكوى. ولا يمكن تصور أن يكون هؤلاء الفقراء المسالمين من أشهر رجال العصابات في مولداڤيا، ورفاق كيرجالي الرهيب، وأن يكون نفسه بينهم.

عندما علم ذلك الباشا حاكم ياسي طلب من القيادة الروسية تسليمه قاطع الطريق. بموجب أحكام معاهدات الصلح بين البلدين.

فأخذ رجال الشرطة يبحثون عنه. وعرفوا أن كيرجالي يوجد فعلاً في كيشينيوف. فآلقوا القبض عليه في بيت زاهب هارب، مساءً، حين كان يتناول طعام العشاء، وجالسا في الظلام مع سبعة من رفاقه.

وضع كيرجالي تحت الحراسة. ولم يخف الحقيقة واعترف بأنه كيرجالي. لكنه أضاف قائلاً: «لكنني منذ أن عبرت نهر بروت لم أمس شعرة من ممتلكات أي أحد، ولم أسئ إلى أي غجري. طبعاً، إنني بالنسبة إلى الأتراك والمولداڤيين والفالاخين اعتبر قاطع طريق، أما بالنسبة للروس فأنا ضيف. وعندما أطلق سافيانوس آخر ما في جعبته من كرات الرصاص جاء إلينا في معسكر الحجر الصحي وأخذ من الجرحى الأزرار والمسامير والسلاسل ومقابض الخناجر من أجل آخر حشوات المدفع، وأنا أعطيتهم عشرين بشليقاً وأصبحت

بلا نقود. والرب شاهد على أنسي كير جالي كنت أعيش بالصدقات!
فلماذا يسلمني الروس إلى أعدائي؟ «. بعد ذلك لزم كير جالي الصمت
وصار ينتظر بهدوء تقرير مصيره.

لم ينتظر طويلاً. فقد أمرت القيادة، التي لا تعتبر ملزمة بالنظر إلى
قطاع الطرق من وجهة النظر الرومانسية، بأن يرسل كير جالي إلى
ياسي.

ووصف لي كيفيه تسفيره بالتفصيل رجل يتسم بالعقل والقلب،
كان في حينه موظفاً صغيراً غير معروف، ويشغل الآن منصبا هاماً.

كانت تقف عند بوابة السجن عربة بريد - كاروتسا.. (ربما إنكم
لا تعرفون ما هي الكاروتسا. إنها عربة واطئة مضفورة، كانت تقرن
إليها عادة حتى وقت قريب ستة أو ثمانية خيول ضامرة. ويمتطي
أحدها مولداً في ذو شوارب ويعتمر قبعة من فرو الضأن، ويأخذ بين
لحظة وأخرى بالصراخ ويلوح بسوطه، فتمرق خيوله خيباً مروق
الريح. وإذا أخذ أحدها بالتباطؤ، فإنه يفكه من العربة ويتركه في
الطريق من دون أن يهتم بمصيره. وكان واثقاً من أنه سيجده هناك
في طريق العودة، وهو يرعى البرية الخضراء بهدوء. وغالباً ما يحدث
أن المسافر الذي يتوجه من إحدى المحطات راكباً عربة ذات ثمانية
خيول يجد نفسه وقد وصل إلى المحطة الأخرى بحصانين. وهذا ما
حدث قبل خمسة عشر عاماً مضت. والآن بعد أن تروستبيسارابيا
(أي أصبحت روسية) بدأ استخدام عدة الحصان الروسية والعربة
الروسية.

كانت عربة كاروتسا كهذه تقف عند بوابة السجن في عام
١٨٢١ في أواخر شهر سبتمبر. وأحاطت بالعربة يهوديات، وقد

اطلقن الأكمام ورحن يطبطبن بأحديتهن، ونساء الأرناؤوط بأزيائهن البالية والزاهية الألوان، ومولدافيات بقدود هيفاء يحملن بأيديهن أطفالاً ذوي عيون سود. وصمت الرجال بينما كانت النساء تنتظرن بلهفة حدوث شيء ما.

فتحت البوابة، وخرج إلى الشارع عدة ضباط شرطة، وتبعهما جنديان اقتادا كير جالي المكبل بالقيود.

بدا في سن الثلاثين. وكانت سمات وجهه الذي لفتحته الشمس دقيقة وصارمة. وكان مربع القامة عريض المنكبين، وعموماً تدفقت من جسده قوة غير عادية. وكانت عمامته الزاهية الألوان تغطي رأسه، بينما تملطق بحزام عريض على خصره الضامر، أما بقية ملبسه فيتألف من قفطان (دوليمان) من الجوخ الأزرق السميك، وقميص بطيات واسعة، وخذائين جميلين. وكان مظهره ينم عن الكبرياء والهدوء.

وقام أحد الموظفين، وهو شيخ أحمر البشرة ذو بدلة حائلة اللون، تدلت منها ثلاثة أزرار، وقد خدش بنظاراته الرصاصية الكوز الأحمر الذي يمثل الأنف لديه، بفتح ورقة مطوية وبدأ بخنّة من أنفه القراءة باللغة المولدافية. وكان يتطلع بين الفينة والأخرى بعجرفة إلى كير جالي المكبل بالقيود، الذي تخصصه الورقة كما يبدو. وأصغى كير جالي إليه باهتمام. ثم أنهى الموظف القراءة، وطوى الورقة، وصرخ بالناس مهدداً داعياً إياهم إلى التفرق، وأمر بجلب عربة الكارتسا. وحينئذ خاطبه كير جالي وقال عدة كلمات باللغة المولدافية، كان صوته متهدجاً، وتغيرت سحنة وجهه. واستغرق في البكاء وخر راکعاً عند قدمي موظف الشرطة وهو يقرقع بسلاسل قيوده. وأراد الجنديان إنهاض كير جالي لكنه نهض بنفسه، ورفع قيوده، وتوجه نحو العربة

وصاح: «هيا بنا!». وجلس رجل الدرك إلى جانبه، وقرقع المولداني بسوطه، وانطلقت العربية.

وسأل موظف شاب رجل الشرطة: - ماذا قال لك كير جالي؟

فأجاب الشرطي ضاحكاً: - لقد طلب مني (راجيا - كذا) أن أعنتني بأمر زوجته وطفله اللذين يعيشان في قرية بلغارية بالقرب من كيليا، - إنه يخشي أن يصيها مكرهه بسببه. إن هؤلاء البشر حمقى.

إستبد بي كرب خائق لدى سماع حديث الموظف الشاب. وشعرت بالأسى على كير جالي المسكين. ولم أعرف شيئاً عن مصيره لاحقاً خلال فترة طويلة. وبعد مضي عدة أعوام إلتقيت الموظف الشاب نفسه. ودار بيننا الحديث عن ذكريات الماضي. وسألته: -

ماهي أخبار صاحبنا كير جالي؟ هل تعرف ما جرى له؟

فأجاب: - كيف لا أعرف، - ثم روى لي ما يلي:

أقتيد كير جالي بعد نقله إلى ياسي إلى الباشا الذي أصدر حكمه بأن يعدم بإجلاله على الخازوق. وتم تأجيل تنفيذ الحكم حتى موعد عيد ما. وحتى ذلك الحين زج به في السجن.

كان يحرس السجن ثمانية أتراك (هم من بسطاء الناس وهم في قرارة أنفسهم قطاع طرق مثل كير جالي). وقد ابدوا له الإحترام وأصغوا إلى قصصه العجيبة بالإهتمام المميز للشرق بأسره.

وارتبط السجن بالحرس بعلاقة متينة. وقال كير جالي لهم مرة: «إخواني! إن ساعتني اقتربت. ولن يهرب أحد من مصيره.

وسأغادركم عما قريب. وأريد أن أترك لكم شيئاً ما للذكرى».

فأصاخوا اليه السمع.

وتابع كير جالي قوله: - يا إخوان، قبل ثلاثة أعوام خلت حينما كنت أمارس قطع الطرق مع ميخايلاكى دفنا في البرية بالقرب من ياسي قدرافيه نفود ذهبية (غالينات). ويبدو أنني لن أحصل وكذلك هو على هذا الكنز. ليكن إذن لكم: خذوه وتقاسموه فيما بينكم بالتراضي.

وكاد الأتراك أن يصابوا بالجنون. وبدأ الحديث حول كيف سيجدون المكان الموعود؟ وفكروا وامعنوا الفكر وقرروا أن يدلهم كير جالي نفسه على المكان.

وعندما أقبل الليل. نزع الأتراك القيود من قدمي السجين، وربطوا يديه بحبل واتجهوا معه من المدينة إلى البرية.

اقتادهم كير جالي، بالترام اتجاه واحد من تل الى آخر. وساروا طويلاً. وأخيراً توقف كير جالي عند صخرة عريضة، وقاس إثنى عشر خطوة عند الظهيرة، وداس الأرض وقال: «هنا».

توزع الأتراك المهام. فاستل أربعة منهم خناجرهم الطويلة (اتاغان) وبدأوا بحفر الأرض. وبقي ثلاثة آخرون للحراسة. بينما جلس كير جالي فوق الصخرة وصار يراقب عملهم.

ثم سأل: - ماذا؟ هل ستنهون الحفر عاجلاً؟ هل بلغت النهاية؟

وكان الأتراك يجيبون: - «لم نجد بعد»، وعملوا بجهد حتى أن العرق تصبب من أجسادهم مدراراً.

وبدا كيرجالي يعرب عن نفاذ صبره.

فقال: - ما هؤلاء الرجال. إنهم لا يجيدون حفر الأرض كما يجب. لو كنت مكانهم لأنهيث الحفر خلال دقيقتين. يا أولاد! فكوا وثائقي وأعطوني الخنجر.

إنغمز الأتراك في التفكير وصاروا يتشاورون فيما بينهم. وقرروا فيما بينهم:

ما العمل؟ حسنا سنفك وثاقه ونعطيه الخنجر. وأي ضير في ذلك؟ هو واحد ونحن سبعة. - وفك الأتراك وثاقه وأعطوه خنجرا.

في نهاية المطاف أصبح كيرجالي حراً ومسلحاً. فماذا كان إحساسه!.. صار يحفر بهمة وساعده الحراس.. وفجأة طعن أحدهم بخنجره، وتركه في جسده بينما امتشق من حزامه مسدسين.

أما الستة الباقون فحين رأوا كيرجالي مسلحاً بمسدسين، ولوا هارين.

وحالياً يمارس كيرجالي أفعال قطاع الطرق بالقرب من ياسي. ومنذ فترة قريبة بعث برسالة إلى حاكم المدينة طلب فيها خمسة آلاف ليفي، وهدد في حالة عدم الدفع بأنه سيضرم النار في ياسي ويصل إلى الحاكم نفسه. فسلم إليه مبلغ خمسة آلاف ليفي.

ذلكم هو كيرجالي؟

روسلافليوف

عندما طالعت «روسلافليوف» رأيت لعجبي أن موضوع الرواية يعتمد على حدث واقعي معروف جداً بالنسبة لي. ففي زمان ما كنت صديقة للمرأة المسكينة التي اختارها السيد زاغوسكين لتكون بطلة روايته. وقد جذب انتباه الجمهور مجدداً حدث منسي، وأثار فيهم مشاعر الغضب، التي أخدمها الزمن، وعكر هدوء القبر. ولا بد لي من التحدث قليلاً عن شخصي. لأن مصري كان مرتبطاً خلال فترة طويلة بمصير صديقتي المسكينة.

لقد اخذوني إلى حفل البالو لأول مرة في عام ١٨١١. ولن أصف انطباعاتي الأولى عنه. ويمكن أن يتصور المرء بيسر ما تشعر به صبية في السادسة عشرة من العمر، حين تستبدل حجرات الطابق العلوي والمعلمين بحفلات البالو المستمرة بلا توقف. وقد انغمرت في خضم اللهو والمرح بكل حيوية سنين عمري ولم أكن افكر بعد.. وبالأسف: فذاك الزمن كان جديراً بالمراقبة.

كانت بين الصبايا اللواتي قدمن في حفلة البالو الأميرة (أطلق عليها زاغوسكين إسم بوليننا، وسأبقي على هذا الإسم). وسرعان ما ربطتنا عرى الصداقة في إحدى المناسبات.

فقد كان أخي، الفتى البالغ الثانية والعشرين من العمر، ينتمي إلى

فئة الغندورين الشديدي التائق في ذلك الزمان، وعمل موظفاً في مجلس إدارة الخارجية وعاش بموسكو، منغمساً في الرقص والمجون. فوقع في حب بولينا ورجاني أن أعمل على التقارب بينها. وكان أخي معبود العائلة كلها، ويصنع مني كل ما يريد.

ولدى التقرب من بولينا من أجل إرضاء رغبته، سرعان ما تعلقت بها بكل صدق. علماً أنها اتسمت بقدر كبير من الغرابة وبقدر أكبر بالجاذبية. ولم أكن أنفهمها بعد، لكنني أحببتها. وبدون شعور مني صرت أنظر إلى الأمور بعينها وأفكر بمثل أفكارها.

كان والد بولينا رجلاً محترماً وصاحب مكانة، أي كان يتنقل في عربة يجرها حصانان ويحمل مفتاحاً ونجمة، بيد أنه كان نزقاً متقلب الأهواء وبسيطاً. أما أمها فكانت بعكس ذلك، فهي امرأة وقورة وتميز بالرصانة والتفكير السليم.

وكان لبولينا حضور في كل مكان، ومحاطة بالمعجبين. وتلقى الملاحظة والمودة منهم - لكنها عانت من السأم، وأكسبها السأم مظهر التكبر والبرود. وهذا ما كان يناسب للغاية وجهها الإغريقي وسواد حاجبيها. وكنت أشعر بالبهجة حين كانت ملاحظاتي الساخرة تبعث الإبتسامة على هذا المحيا المتناسق الملامح والمترع بالسأم.

كانت بولينا ذات شغف شديدة بالمطالعة ولكن من دون أي اختيار. وتحفظ لديها بمفتاح مكتبة أبيها. علماً أن غالبية كتب المكتبة تتألف من مؤلفات كتاب القرن الثامن عشر. وأطلعت على الأدب الفرنسي من مونتسكيو إلى روايات كريليون. وحفظت روسو عن ظهر قلب. ولم يكن في المكتبة أي كتاب روسي باستثناء مؤلفات سوماروكوف التي لم تصفحها بولينا أبداً. وقالت لي أنها تجد صعوبة في تفهم

الكلمات الروسية المطبوعة، وفي أغلب الظن أنها لم تقرأ شيئاً باللغة الروسية، ومنها القصائد التي كان يبعث بها الشعراء الموسكوفيون.

وهنا أسمح لنفسي بوقفة قصيرة. هاقد مضت، والحمد لله، فترة ثلاثين عاماً توجّه فيها لنا نحن المساكين الإنتقادات لكوننا لا نقرأ باللغة الروسية ولا نتفاهم (حسب الزعم) باللغة الأم. (ملاحظة: من الأثم أن تكرر الاتهامات السخيفة إلى صاحب رواية «يوري ميلوسلافسكي»، فنحن جميعاً قرأناها، واعتقد أن إحدانا تولت ترجمة روايته إلى اللغة الفرنسية). والمسألة تكمن في أنه كان سيهجننا أن نقرأ بالروسية: لكن لغتنا، كما اعتقد، ليست أقدم من لومونوسوف كما أنها محدودة للغاية. إنها تقدم لنا طبعاً عدة شعراء ممتازين، لكن لا تجوز مطالبة جميع القراء بأن يتذوقوا الشعر حصراً. ولدينا من النثر فقط «تاريخ كارامزين»، وظهرت أول روايتين أو ثلاث روايات قبل عام أو ثلاثة أعوام مضت، علماً بأن الكتب المتميزة أكثر فاكثراً في فرنسا وإنجلترا وألمانيا يصدر أحدها تلو الآخر. كما أننا لا نرى حتى التراجع، وحتى إذا ما رأيناها فإننا نفضل مع هذا قراءة الأصل. ومجلاتنا تجذب المتعة إلى أدبائنا. ونحن نرغم على أن ننهل كل شيء، من الأخبار والمفاهيم، من الكتب الأجنبية. ولهذا فنحن نفكر باللغة الأجنبية (على أقل تقدير جميع الذين يفكرون أو يتابعون أفكار النوع البشري). وقد اعترف لي بذلك أشهر أدبائنا. إن شكايوى أدباؤونا المستمرة بصدد تجاهلنا للكتب الروسية، تشبه شكايوى البائعات الروسيات، اللواتي يعتملهن الغضب لأننا نشترى القبعات من سيخلر^(٣٥)، ولا نكتفي بإقتناء منتجات الخياطات في كوستروما. ودعنا نرجع إلى موضوعنا.

٣٥. مدام سيخلر بائعة قبعات آخر موضه باريسية - المترجم.

إن الذكريات حول حياة الطبقة الراقية قليلة وضئيلة عادة حتى في العهود التاريخية. لكن مجيء مسافرة إلى موسكو ترك لدي انطباعات عميقاً. وهذه المسافرة هي المدام دي ستال. وقد جاءت صيفاً حين كانت غالبية أهالي موسكو قد انتقلت إلى الأرياف. ودبت الحيرة في أصحاب كرم الضيافة الروسي، ولم يعرفوا كيف يتم قري الضيفة الأجنبية الشهيرة. طبعاً أنهم أقاموا لها المآدب. وجاء الرجال والنساء لإلقاء نظرة عليها لكن أكثرهم لم يكونوا راضين عنها. فقد رأوا امرأة بدينة في الخمسين العمر، ترتدي ملابس لا تناسب عمرها. ولم تعجبهم لهجة حديثها، وبدا لهم أن أحاديثها مطولة جداً، أما الأكمام فقصيرة جداً. وأقام والد بولينا الذي كان يعرف مدام دي ستال منذ وجوده في باريس مآدبة على شرفها، دعا إليها جميع أذكيائنا الموسكوفيين. وهناك رأيت مؤلفة رواية «كورينا». كانت تجلس في الصدارة وقد استندت بمرفقها على المائدة، وانهمكت في لف وفتح انبوبة من الورق بأناملها الجميلة. وبدا أنها منحرفة المزاج، وأرادت عدة مرات التحدث لكنها لم تستطع ذلك. أما اذكيائنا فكانوا يأكلون ويشربون على هواهم، وبدا أنهم كانوا راضين أكثر عن حساء سمك الأمير، من محادثة مدام دي ستال. أما السيدات فكن يتكلفن الوقار. بيد أن هؤلاء وأولئك كانوا فقط يقطعون جبل الصمت في أحيان قليلة، لقناعتهم بتفاهة أفكارهم وخوفهم من الكلام في حضور المرأة الأوروبية الشهيرة. وطوال فترة الغداء كانت بولينا وكأنها جالسة على أطراف الإبر. وتقاسم الحاضرون الإهتمام بين سمك الزجر ومام دي ستال. وكانوا ينتظرون في كل لحظة أن تبدر عنها (bon-mot) مزحة مالا، وفي نهاية المطاف انطلقت منها عبارة مبهمة، وهي حتى جريئة جداً. فتلقفها الجميع، واستغرقوا في القهقهة، وبدأ الهمس المشوب بالتعجب. أما الأمير فكان في غاية الإبتهاج. وتطلعت إلى بولينا. كان

وجهاً قد اصطبغ بالحمرة، وترقرقت الدموع من عينيها. ونهض الضيوف من المائدة في توافق تام مع مدام دي ستال: إذا تفوهت بعبارة تورية سيتناقضونها في جميع أنحاء المدينة.

سألت بولينا: - ماذا جرى لك، *ma che're* (٣٦)؟ هل يمكن أن تجعلك مزحة، حرة لحد ما، أن تزعجك لهذه الدرجة؟

فأجابت قائلة: - آه يا عزيزتي، إنني أشعر بالقنوط واليأس. فقد كان من الحقارة أن تقدم لهذا الجمع الكبير مثل هذه المرأة الفذة غير العادية! إنها اعتادت على أن يحيط بها أناس يفهمونها، لا تضع لديهم الملاحظة الرائعة، ونبضة القلب القوية والكلمة الملهمة، إنها اعتادت على الأحاديث الشيقة التي تنم عن الثقافة الرفيعة. أما هنا... يا ألهي! لم تطرح فكرة واحدة، ولم ترد كلمة واحدة رائعة طوال ثلاث ساعات! ثمة وجوه بليدة، ورزانة بليدة - فقط لا غير! وكم بدا عليها السأم! كم بدا عليها الإجهاد! لقد رأيت ماذا يريدون، وماذا يمكن أن تفهم قروود التنوير هذه، فتفوهت أمامهم بعبارة التورية. وإذا بهم يتلقفونها بهذه السرعة! لقد مملكتني الخجل وكنت مستعدة للبكاء... - وتابعت بولينا بحماس قائلة: - ليكن، ودعها تحمل معها رأياً حول مجتمعنا الراقى المتخلف هو جدير به. على الأقل أنها رأيت شعبنا الطيب البسيط وتفهمه. هل سمعت ما قالته إلى ذلك العجوز، المهرج الثقيل الظل، الذي أراد السخرية من اللحي الروسية بغية إرضاء المرأة الأجنبية حين قال: «إن الشعب الذي دافع قبل مئة عام مضت عن لحيته، سيدافع في زماننا عن رأسه». كم هي لطيفة! وكم أحبها! وكما أكره من يضطهدها!..»

٣٦. يا عزيزتي (بالفرنسية)

لم أكن الوحيدة التي لاحظت استياء بولينا. فهناك عيون ثاقبة البصر أخرى توجهت نحوها في تلك اللحظة: والعينان السوداوان لمدام دي ستال نفسها. ولا أعرف بم كانت تفكر، لكنها اقتربت من صديقتي بعد مأدبة الغداء وتبادلت معها الحديث. وبعد بضعة أيام كتبت مدام دي ستال إليها قصاصة جاء فيها:

Ma chère enfant, je suis toute malade. Il serait bien amiable à vous de venir me ranimer. Tachez de l'obtenir de m-me votre mère et veuillez lui présenter les respects de votre amie de S. (37)

إن قصاصة الورق هذه محفوظة لدي. ولم توضح بولينا لي أبداً علاقاتها مع مدام دي ستال، بالرغم من كل ما ابديته من فضول. إنها كانت معجبة للغاية بهذه المرأة الكريمة الطيبة بقدر ما هي فذة.

لكن إلى أي حد يصل الولع بالغمز واللمز! فمنذ فترة قريبة قلت هذا كله في أحد المجتمعات المحترمة. فقالوا لي: «ربما أن المدام دي ستال لم تكن سوى جاسوسة لنابليون، بينما كانت الأميرة تزودها بالمعلومات اللازمة». فقلت: «رحمكم، إن نابليون لاحق مدام دي ستال عدة سنوات، إن مدام دي ستال النبيلة والطيبة الهاربة قسراً لكي تجد الحماية لدى الإمبراطور الروسي، مدام دي ستال صديقة شاتوبريان وبايرون، مدام دي ستال هل تكون جاسوسة لنابليون!..». وعارضتني الماركيزة (ب) المعقوفة الأنف قائلة: «كل

٣٧. - صغيرتي العزيزة، اني مريضة تماماً. سيكون من غاية اللطف من جانبك لو أتيت إلي من اجل بعث الحيوية في. اعلمي على طلب السماح من امك وأرجو ان تنقلي إليها تحية موقرة من دي سال التي تحبكم (بالفرنسية) - المترجم.

شيء ممكن جداً، جداً. كان نابليون مكارراً، ومدام دي ستال واحدة ماهرة!«.

تحدث الجميع عن اقتراب العدو، وكما أتذكر كان حديثهم طائشاً للغاية. وساد تقليد الموضة الفرنسية في أزمان لويس الخامس عشر. واعتبر حب الوطن نوعاً من التصنع والحذلقه. والأذكىاء في تلك الأيام عظموا نابليون بتذلل غيور وهزأوا لإخفاقاتنا. ولسوء الحظ فإن المدافعين عن الوطن كانوا بسطاء نوعاً ما، وكان الهزء بهم يتم من باب التسلية جداً ولم يكن لهم أي نفوذ. واقتصرت روحهم الوطنية على التأنيب الشديد لاستخدام اللغة الفرنسية في المجتمعات، واستعمال الكلمات الأجنبية، والتهجمات الغاضبة على شارع كوزنيتسكي موسست^(٣٨). وهلمجرا. أما الشباب فكانوا يتحدثون عن كل ما هو روسي باحتقار أو بلا مبالاة ويسخرون متبئين أن يكون مصير روسيا مثل مصير كونفدرالية الراين. صفوة القول أن المجتمع كان يبعث على التفرز جداً.

وبغثة وردت أنباء الإجتياح وصدور نداء القيصر مما أثار ذهولنا. وساد القلق في موسكو. وظهرت بلاغات العمدة راستوبتشين المكتوبة بلغة شعبية بسيطة، وساد الغضب الشعب. وهدأ المولعون بالسخرية والمجون في المجتمعات الراقية. بينما انتفضت السيدات. وسيطر في المجتمعات بحزم ملاحقوا اللغة الفرنسية وشارع كوزنيتسكي موسست وامتلات الصالونات بذوي النزعة الوطنية: فترى أحدهم ينفض من علبة السعوط التبغ الفرنسي ويبدأ يستنشق التبغ الروسي، بينما أخذ آخر بإحراق عشرات الكراريس الفرنسية، وعمد البعض

٣٨. شارع تجاري بوسط موسكو كانت تباع فيه ايامذاك السلع الفرنسية - المترجم.

إلى التخلي عن شرب نبيذ لافيت الفرنسي وبدأ يتناول حساء الملفوف الروسي الحامض. وأقسم الجميع بأنهم لن يتحدثوا باللغة الفرنسية بعد اليوم، وهلل الجميع لبوجارسكي ومينين^(٣٩)، وصاروا يدعون إلى خوض الحرب الشعبية، معتمزين ركوب العربات والتوجه إلى قرى ساراتوف.

لم تمالك بولينا عن إخفاء احتقارها، كما لم تخف من قبل غضبها. إن مثل هذا التغيير السريع والجبن جعلها تفقد صبرها. وصارت تتحدث باللغة الفرنسية عمداً في البولفار وعند ضفاف برك بريسينيه، وتقوم عند المائدة وبحضور الخدم عمداً بنقد التباهي بالروح الوطنية، وتتحدث عمداً عن قوات نابليون الكبيرة العدد، وعن عبقريته العسكرية. أما الحاضرون فكان الشحوب يعلو سحناتهم خشية أن يقوم أحدهم بالوشاية، ويسارعون إلى لومها لكونها تحابي عدو الوطن. أما بولينا فكانت تبتسم بإحتقار. وقالت: «ليجعل الرب جميع الروس يحبون وطنهم كما أحبه أنا». كانت تثير دهشتي. فقد عرفت بولينا دوماً كفتاة متواضعة وقليلة الكلام ولم أفهم من أين لها كل هذه الجرأة. وقلت لها مرة: «رحماك، مالك تتدخلين في أمر لا يعيننا. ودعي الرجال يتخاصمون فيما بينهم ويتصايحون حول السياسة. إن النساء لا يذهبن إلى الحرب، ولا يعنيهن أمر بونابرت». وتألق بريق في عينيها وقالت: «اخجلي، هل النساء بدون وطن؟ ألا يوجد لديهن آباء وإخوان وأزواج؟ هل أن الدم الروسي غريب عنا؟ أم أنك تعتقدين أننا ولدنا فقط من أجل ان يدوروا بنا في الحفلات في رقصة الايسكيز وتطريز نقوش كلاب على قماش القنب؟ كلا، أنا

٣٩. مينين وباجارسكي - من قادة المقاومة الشعبية في الحرب ضد الاحتلال البولندي لموسكو - المترجم.

أعرف مدى ما يمكن أن يكون عليه نفوذ المرأة في الرأي العام أو حتى قلب أحد الرجال. إنني لا أعترف بالمهانة التي تفرض علينا. أنظري إلى مدام دي ستال: لقد كافحها نابليون باعتبارها قوة معادية.. بينما يتجرأ عمي على السخرية من خوفها لدى اقتراب الجيش الفرنسي! « إطمأني ياسيدتي، إن نابليون يحارب ضد روسيا وليس ضدك». نعم! إذا ما وقع عمي بأيدي الفرنسيين لأفرجوا عنه لكي يتجول في باليه-رويال، أما مدام دي ستال فكانت في هذه الحال ستلقى حتفها في سجن الدولة. وشارلوتا كورديه؟ وإبنة جلدتنا مارفا بوسادنتسا؟ والأميرة داشكوفافا؟ بم أنا اقل منهن منزلة؟ حقا إنني ربما أقل منهن في الجرأة والحزم». إنني أصغيت إلى بولينا بتعجب. فإنني لم أكن اتصور أن لديها مثل هذا الحماس، ومثل هذا الشعور بالعزة والكرامة. وأسفاه! إلى ما قادت إليه خصال روحها غير العادية وسمو العقل الجريء. إن كاتبتي المحبوب كان على حق حين قال:

Il n'est de bonheur que dans les voies communes ^(٤٠).

أثار مجيء القيصر إلى اشتداد الإضطراب العام. وفي نهاية المطاف غمرت بهجمة الحماس الوطني عليه القوم في المجتمع. وتحولت الصالونات إلى قاعات للجدل. ودار الحديث في كل مكان عن التبرعات الوطنية فقط. وجرت استعادة الكلمة الخالدة للكونت الشاب مامونوف الذي تبرع بكل ممتلكاته. ولاحظت بعض الأمهات بعد ذلك أن الكونت ليس خطيباً يحسد عليه، لكن الجميع أبدوا الإعجاب به رغم ذلك. وولعت بولينا به. وقالت لأخي مرة: « بم ستبرع؟». فأجاب أخي الشاب الطائش: « أنا لا امتلك ضيعة بعد.

٤٠. ربما ان المقصود بالكاتب هو شاتوبريان. والقول هو أنه لا يمكن ايجاد السعادة إلا في الطرق المعبدة- المترجم.

ولدي فقط ديون بمبلغ ٣٠٠٠٠، وأنا أقدمها قرباناً على مذبح الوطن
». فغضبت بولينا. وقالت: «إن الشرف والوطن لدى بعض الناس من
الأمر التافهة كلها. إن إخوانهم يموتون في ميدان القتال، بينما تجدهم
يهزلون في الصالونات. وأنا لا أدري فيما إذا توجد امرأة، متدنية إلى
الحد الذي تسمح به إلى مثل هؤلاء المهرجين بالتصنع في الإعراب
عن الحب». فانفجر أخي قائلاً: «إنك صارمة جداً، أيتها الأميرة.
أنت تريد أن يرى الجميع فيك مثال مدام دي ستال وتحديثين إلينا
أقوالاً رنانة من رواية «كورينا». أتعرفين، أن من يهزل مع المرأة يمكن
ألا يهزل أمام الوطن وأعدائه». وبعد هذا القول انصرف مبتعداً.
واعتقدت بأنهما تخاصما إلى الأبد، ولكنني كنت على خطأ: فقد
اعجبت بولينا بجسارة أخي، وغفرت له مزحته الثقيلة باعتبارها فورة
غضب نبيلة، وعندما علمت بعد أسبوع أنه انضم إلى كتية مامونوف،
طلبت مني نفسها أن أصالحهما. وقد ابتهج أخي لذلك. وعلى الفور
طلب يدها. ووافقت على تأجيل الزفاف إلى ما بعد نهاية الحرب.
وفي اليوم التالي سافر أخي للإلتحاق بالجيش.

كان نابليون يزحف نحو موسكو، بينما كانت قواتنا تراجع. وساد
القلق والإضطراب بموسكو. وصار أهلها يغادرونها الواحد تلو الآخر.
وطلب الأمير والأميرة من والدي السفر سوياً إلى قرية (س)...

وصلنا إلى القرية (س)، وهي قرية كبيرة تبعد ٢٠ فرساً عن المدينة
مركز المحافظة. وكان إلى جانبنا الكثير من الجيران جاء أغلبهم من
موسكو. وكانوا يجتمعون يومياً سوياً، أما حياتنا الريفية فكانت شبيهة
بالحياة في المدينة. وكانت الرسائل ترد من الجيش يومياً، وتنهمك العجائز
في البحث على الخارطة عن أماكن مرابطة المعسكرات، ويغضبن حين
لا يجدنها. أما بولينا فكانت مشغولة بالسياسة فقط، ولا تطالع سوى

الصحف، وبلاغات راستوتشين، ولا تفتح أي كتاب. وأصابتها كآبة شديدة حيث كانت محاطة بأفراد ذوي مفاهيم ضيقة، وتسمع باستمرار الأحكام السخيفة والأخبار الخالية من أي أساس. كما كانت روحها تفيض حزناً. وبقيت كثيرة كاسفة البال بشأن إنقاذ الوطن، وترائي لها أن روسيا تقترب بسرعة من سقوطها، وكان أي بلاغ رسمي يفاقم بأسها، بينما تجعلها بلاغات الشرطة الصادرة عن الكونت راستوتشين تفقد صبرها. واعتبرت أسلوبهم في المزاح ذروة الإسفاف، أما التداير التي يتخذونها فهي وحشية لا تطاق. إنها لم تدرك فكرة ذلك الزمن، العظيمة في هولها، الفكرة التي من شأن تنفيذها بجرأة أن ينقذ روسيا ويحرر أوروبا. وكانت تنفق الساعات بإسناد مرفقيها على خارطة روسيا وحساب الفرستات ومتابعة التحركات السريعة للقوات. وراودت رأسها أفكار غريبة. وقالت لي مرة أنها تعتزم مغادرة القرية والتوجه إلى المعسكر الفرنسي والوصول إلى نابليون و اغتياله هناك بيديها. ووجدت صعوبة في إقناعها بأن هذا ضرب من الجنون. لكن لم تفارقها خلال فترة طويلة الفكرة حول شارلوت كورديه.

فقد كان والدها كما ذكرت أنفاً رجلاً طائشاً، ولم يفكر سوى في أن يحيا في القرية كما في موسكو بقدر الإمكان. وكان يقيم المآدب، ويقدم في بيته عروض *the 'atre de soccie' te*^(٤١)، حيث كانت تتلى *proverbes*^(٤٢) الفرنسية، وكان يسعى بكل السبل إلى تنويع وسائل متعتنا. ووصل إلى القرية عدد من الضباط الأسرى الفرنسيين. وسر الأمير لظهور أشخاص جدد ورجا المحافظ السماح بإسكانهم في ضيعته...

٤١. مسرح الهواة البيتي (بالفرنسية) - المترجم.

٤٢. الاقوال المأثورة (بالفرنسية) - المترجم.

كانوا أربعة - ثلاثة منهم أفراد لا أهمية لهم ومن المتعصبين في الولاء إلى نابليون، وكثيري الصراخ بشكل لا يحتمل، حقاً، إنهم يعرضون عن تبجحهم بجراحهم الكريمة. أما الرابع فكان رجلاً متميزاً للغاية.

وكان في سن ٢٦ عاماً. وينحدر من محمد طيب. مشرق الوجه. وأسلوبه في الكلام طيب جداً. وقد جذب انتباهنا فوراً. وتقبل ملاطفاتنا بتواضع نبيل. كان قليل الكلام، ألا أن أقواله إتسمت بالمنطق. وأعجبت بوليننا به لأنه ساعدها في توضيح العمليات العسكرية وتحركات القوات. وطمأنها مؤكداً أن انسحاب القوات الروسية ليس هروباً بلامعنى، وقد أثار قلق الفرنسيين كما شدد مواقف الروس. وسألته بوليننا « وأنت، ألسنت واثقا من أن إمبراطوركم لا يقهر؟ ». ولزم السنيكور (أي العاقل وقد أطلق عليه هذا الإسم السيد زاغوسكين) لزم الصمت قليلاً ثم أجاب بأن الصراحة في وضعه ستكون صعبة. ولكن بوليننا أصرت على تلقي الجواب. فأعترف السنيكور بأن تقدم القوات الفرنسية في قلب وأعماق روسيا يمكن أن يشكل خطراً عليها وأن حملة عام ١٨١٢ لا تمثل، طبعاً، أي شيء حاسم. وعارضته بوليننا قائلة: « طبعاً! لكن نابليون يواصل التقدم، ونحن نواصل الانسحاب! » - فأجاب السنيكور « وهو الأسوأ بالنسبة لنا»، ثم غير مجرى الحديث.

علماً أن بوليننا التي ضجرت من سماع التنبؤات الجبانة، والتبجح الأحمق لجيراننا، كانت تصغي بنهم إلى الأقوال القائمة على معرفة بالأمور وعدم الإنحياز. وكانت تتلقى من أخي رسائل لا يمكن أن تفهم أي شيء منها. فكانت مترعة بالفكاهات، والقضايا الذكية والسيئة عن بوليننا، والتأكيدات المبتذلة في حبها وهلمجرا. وكانت

بولينا تقرأها فتقنط وتهز كتفيها. وقالت « إعترفني، بأن اخيك الكسي رجل تافه. فحتى في هذه الظروف، يجد في ميادين المعارك القدرة على كتابة رسائل لا معنى لها، فماذا سأحدث معه في أثناء الحياة العائلية الهادئة؟». لكنها كانت على خطأ. فإن خواء رسائل أخي نابع ليس من تفاهة شخصيته، بل من المنطق المهين جداً بالنسبة لنا نحن النساء: فقد كان يعتقد أنه يجب أن يستخدم لغة تناسب مع ضعف مداركنا، وأن الأمور الهامة لا تمسنا. ومثل هذا الرأي يعتبر في كل مكان فظاً، وبالنسبة لنا فهو سخيف. ولا نكران في أن النساء الروسيات ذوات تعليم أفضل من الرجال المشغولين بأمور الرب وحده يعرف ماهي.

انتشر نبأ معركة بورودينو. وصار الجميع يتحدثون عنها، وكان لدى كل واحد النبا الأكثر صواباً، ويمتلك كل واحد قائمة بأسماء القتلى والجرحى. ولم يبعث لي أخي الرسائل. وكنا في غاية الجزع والقلق. وفي نهاية المطاف جاء إلينا أحد مروجي شتى الأخبار وأبلغنا بأنه وقع في الأسر، بينما همس لبولينا بأنه قتل. وجزعت بولينا بالغ الجزع. إنها لم تكن تحب أخي وغالبا ما كانت تنزعج منه، لكنها في تلك اللحظة رأت فيه شهيداً وبطلاً، وبكته سرّاً بعيداً عني. ووجدتها عدة مرات والدموع تترقق في عينيها. ولم يدهشني ذلك، فقد كنت أعرف مدى تألمها لمصير وطننا المحارب. ولم تراودني الشكوك بصدد السبب الآخر لحزنها.

واتفق لي مرة أن كنت انتزه في الحديقة صباحاً حين مر بي السنيكور، ودار الحديث بيننا عن بولينا. وقد لاحظت أنه تحمس تحمساً عميقاً مزاياها الفذة وترك جمالها فيه بالغ الإنطباع. فضحكت وشرت إلى ان وضعه رومانسي جداً. فالفارس الجريح يقع في أسر العدو ويعشق

صاحبة القصر النبيلة، ويمس شغاف قلبها وأخيراً يستلم يدها. فقال لي السنيكور: «كلا، إن ابنة الأمير ترى في عدواً لروسيا، ولن توافق أبداً على مغادرة وطنها». وفي هذه اللحظة ظهرت بولينا في نهاية الممر المشجر فتوجهنا للقاتها. اقتربت منا وهي تغذ الخطى. وذهلت لرؤية شحوب وجهها.

فقلت لي: «سقطت موسكو»، دون أن تلقي بالاً إلى انحناءة السنيكور. وشعرت بانقباض قلبي، وتدفت الدموع مدراراً. أما السنيكور فقد لزم الصمت، وأجال عينيه الشاردتين ذاهلاً. ومضت بولينا قائلة بصوت متهدج من الغضب: «الفرنسيون النبلاء المنتورون كللوا نصرهم بشكل لائق. إنهم أحرقوا موسكو. موسكو تحترق منذ يومين». وهتف السنيكور: «ماذا تقولين، هذا غير ممكن». واجابته بجفاء: «انتظر قدوم الليل. وسترى وهج الحريق». وقال السنيكور: «الهي! إنه هلاك. ألا ترون أن حريق موسكو هو هلاك القوات الفرنسية كلها، ولن يجد نابليون في أي مكان أي شيء للصمود، وسيضطر عاجلاً للإنسحاب عبر أرض عمها الخراب والخواء لدى اقتراب الشتاء مع قوات يسودها الإضطراب والسخط! وكيف أمكن أن تتصورا بأن الفرنسيين أنفسهم حفرُوا لأنفسهم جهنم! كلا، كلا، الروس والروس هم من أضرم النار في موسكو. هذه شهامة وحشية! الآن تقرر كل شيء: لقد خرجت بلادكم من الخطر، لكن ماذا سيحدث لنا، وماذا سيحدث لإمبراطورنا...».

تركنا وانصرف. أما بولينا وأنا فلم نتمكن من ممالك أنفسنا. وقالت: «هل يعقل أن هذا صحيح، وأن السنيكور على حق وحريق موسكو من فعل أيادينا؟ إذا كان الأمر كذلك... فيمكنتني أن افتخر بكوني روسية. وسيدهش الكون للتضحية العظيمة! الآن أنا لا أخشى

سقوطنا، فقد أنقذ شرفنا. ولن تتجراً أوروبا على القتال ضد شعب
يقطع يديه ويحرق عاصمته.»

وتلألاً بريق في عينيها، واكتسب صوتها رنيناً. فاحتضنتها،
وامتزجت دموع البهجة الكريمة بالابتهالات الحارة من أجل الوطن.
وقالت لي بولينا وقد اكتسبت هيئتها سمة الإلهام: «ألا تعرفين؟
أخوك... إنه سعيد، إنه ليس في الأسر، فأفرحي: إنه قتل من أجل إنقاذ
روسيا».

فصرخت وفقدت الوعي وسقطت في أحضانها...

ملكة البستوني

ملكة البستوني تعني
الحقد الدفين
(كتاب كشف الطالع الحديث)

كانوا في الأيام الغائمة
غالباً
ما يجتمعون
وطرحوا- ليغفر لهم الرب!-
من خمسين
إلى المئة، وفازوا،
وسجلوا
بالطباشير.
هكذا كانوا في الأيام الغائمة
يمارسون
العمل.

حدث مرة أن مارس رهط من الرجال لعب الورق في بيت ناروموف الضابط في كتيبة الفرسان. وانقضت الليلة الشتوية الطويلة من دون أن تلاحظ، وجلسوا تناول العشاء في الساعة الخامسة صباحاً. وكان الراحون يأكلون بشهية كبيرة، أما الباقون الخاسرون فقد جلسوا شاردي الذهن أمام صحنوهم الفارغة. لكن عندما قدمت الشمبانيا، بدأ الحديث بحيوية، وشارك الجميع فيه.

سأل صاحب البيت: - ماذا فعلت، ياسورين؟

لقد خسرت كالعادة. ولا بد من الإعتراف بأن الحظ لا يحالفني:
أنا ألعب الميراندول، ولا أتهدج أبداً، ولا يوجد ما يحيرني، ومع ذلك
أخسر!

هل إنك لم تستسلم للإغراء أبداً؟ ولم تضع على الروتية ولو مرة
واحدة؟.. إن صمودك يدهشني.

وقال أحد الضيوف: وما حال غيرمان!- وأشار إلى مهندس شاب
- إنه لم يمسك ورق اللعب في حياته أبداً، ولم ينخرط في أي رهان في
حياته، بينما جلس معنا حتى الساعة الخامسة وراقب اللعب.

فقال غيرمان: إن اللعب يجذبني بقوة. لكنني لا أستطيع التضحية
بما هو ضروري أماً في كسب الفائض.

ولاحظ تومسكي:- إن غيرمان ألماني يحسب لكل شيء حسابه،
وهذا يجعل القضية كلها! وإذا كان هناك ما لا أفهمه فهي جدتي
الكونتيسة آنا فيدوتوفنا.

فصاح الضيوف:- كيف؟ وماذا؟

وتابع تومسكي قائلاً:- أنا لا أفهم كيف لا تتحداني جدتي في
اللعب!

وقال ناروموف:- ما العجب في أن العجوز البالغة سن الثمانين
لا تتحدى في اللعب!

هل إنك لا تعرف شيئاً عنها؟

كلا! حقاً، لا أعرف شيئاً!

اوه، إذن فاسمع.

لا بد من معرفة أن جدتي سافرت قبل ستين عاما مضت إلى باريس وكانت هناك في طليعة الموضة. وكان الناس يترაკضون ورائها لرؤية *la Ve'nus moscovite*^(٤٣). وغازلها ريشليو، وتؤكد جدتي أنه كاد أن يطلق النار على نفسه بسبب قسوتها تجاهه.

في تلك الأيام كانت السيدات تمارسن لعبة الورق «الفرعون». وحدث مرة في البلاط أن خسرت حسب قول دوق اورليان مبلغاً كبيراً جداً. ولدى عودة جدتي إلى البيت أزالتي عن وجهها الشامات الزائفة ونزعت هيكل الشبكة تحت ردايتها وأمرت بدفع مبلغ الخسارة.

وكان المرحوم جدي، كما أذكر، يقوم مقام كبير خديم جدتي. كان يخشاها خشيته من النار، لكنه حين سمع بمبلغ الخسارة الباهضة خرج عن طوره، وجلب لها الحسابات وأثبت لها أنهما خسرا خلال نصف عام نصف مليون، ولا توجد لديهما في ضواحي باريس ممتلكات قرية في ضواحي موسكو أو ساراتوف. ورفض الدفع بشكل قاطع. ووجهت جدتي صفة اليه، ورقدت في الفراش لوحدها تعبيراً عن عدم رضاها.

في اليوم التالي أمرت جدتي بدعوة زوجها أملاً في أن تكون العقوبة البيئية قد أثرت، لكنها وجدت أنه ثابت على رأيه. ولأول مرة في حياتها بلغ الأمر بها لحد مناقشته وإيضاح الأمور له، وأن الديون مختلفة عن بعضها البعض وأن هناك فرقا بين الأمير والحوذي. - لكن بلا جدوى! فقد تمرد الجد. كلا، فقط! ولم تعرف جدتي ما ينبغي عمله.

وكان يوجد لديها أحد الأشخاص الذين لديها معرفة عابرة

٤٣. فينوس الموسكوفية (بالفرنسية) - المترجم.

بهم، لكنه إنسان طيب. إنكم سمعتم بالكونت سان-جيرمين الذي تروى عنه أمور عجيبة كثيرة. وانتم تعرفون أنه أعلن بأنه « اليهودي الأبدي»، وأنه صنع أكسير الحياة وحجر الفلاسفة وهلمجرا. وكان الناس يسخرون منه ويعتبرونه محتالاً. وذكر كازانوفا في يومياته بأنه كان جاسوساً. إلا أن سان - جيرمين بالرغم من غموض شخصيته كان يتسم بالوقار ويسلك في المجتمع سلوكاً ودياً جداً. علما ان جدتي تحبه حتى الآن وتغتااض اذا ما تحدث احدا ما عنه بلا احترام. وكانت جدتي تعرف أن سان - جيرمين ربما يمتلك أموالاً طائلة. وقررت اللجوء اليه. فكتبت اليه رسالة راجية أن يأتي إليها فوراً.

فجاء العجوز الغريب الأطوار إليها حالاً فوجدها وقد روعتها المصيبة وهفا قلبها جزعاً. فحدثته بأبشع العبارات قتامة عن وحشية زوجها وفي نهاية المطاف قالت أنها تضع أملها كله على صداقته ولطفه.

وأمعن سان-جيرمين في التأمل. ثم قال:

« أنا أستطيع أن أعطيك هذا المبلغ. لكنني أعرف بأنك لن تهدأي حتى ترددين المبلغ إلي، وأنا لا أريد أن اسبب لك هموما جديدة. ثمة وسيلة أخرى: يمكنك أن تسترددي خسارتك».

فأجابت جدتي: « لكنني أقول لك أيها الكونت الطيب أننا لا نمتلك النقود البتة». وقاطعها سان - جيرمين بقوله: - لا حاجة للنقود، وأسمحي بالإصغاء إلي «. وعندئذ كشف لها سرا قد يدفع كل واحد منا ثمناً غالياً للحصول عليه...»

وضاعف اللاعبون الشباب اهتمامهم. وأخذ تومسكي يجر الأنفاس من غليونه فترة طويلة ثم واصل الكلام.

في مساء اليوم نفسه جاءت الجدة إلى قصر فرساي *au jeu de la Reine*^(٤٤). وكان دوق أورليان يوزع الورق. فأعترضت الجدة قليلاً لكونها لم تجلب مبلغ الدين المطلوب منها، وابتدعت لتبرير ذلك بقصة صغيرة ما وجلست مقابله لمنازلته. واختارت ثلاث أوراق رتبها الواحدة خلف الأخرى، ففازت الأوراق الثلاث لحساب صندوقها (سونيك)، وبهذا استردت الجدة خسارتها كاملة.

قال أحد الضيوف: هل أنها مصادفة؟

فلاحظ غير مان: حكاية!

واستطرد ثالث قائلاً: ربما أن الأوراق مزورة؟

وأجاب تومسكي بوقار: - لا أعتقد.

وقال ناروموف: - ما الأمر! لديك جدة تحزر ثلاث أوراق متتالية، بينما لم تحصل منها حتى الآن على أرقامها القبالية السحرية؟

فأجاب تومسكي: - هيهات! فقد كان لها أربعة أبناء أحدهم أبي، والأربعة جميعاً من لاعبي القمار المتهورين، لكنها لم تكشف سرها لأي واحد منهم، بالرغم من أن هذا كان قد يجلب المنفعة لهم وحتى إلي. وإليكم ما حدثني به عمي، الكونت ايفان ايليتش، وأكد ذلك بالقسم على شرفه. إن المرحوم تشابليتسكي وهو الذي مات في فقر مدقع بعد خسارته الملايين، خسر في شبابه - كما أذكر أمام زوريتش - حوالي ثلاثمئة ألف. وكان يائساً. فاشفقت جدتي على تشابليتسكي، رغم أنها كانت دوماً صارمة حيال أفاعيل الشباب. فسلمت إليه

٤٤ . للمشاركة في لعب الورق لدى الملكة - (الترجم).

الأوراق الثلاثة الواجب ترتيبها على التوالي، وأخذت منه كلمة شرف بأن لا يمارس بعد هذا لعب القمار أبداً. فجاء تشابليتسكي إلى خصمه الذي خسر أمامه وبدء اللعب. ووضع تشابليتسكي على الورقة الأولى خمسين ألفاً وفاز بالصندوق، وضاعف الرهان ففاز، وكسب المزيد...

لكن حان وقت النوم: إذ بلغت الساعة السادسة إلا ربعاً.

وفعلاً لقد انبلج نور الفجر: واحتسى الشباب أقداحهم ثم انصرفوا.

*-Il parait que monsieur
est de'cidé' ment pour les suivantes.*

-Que voulez-vous, madame? Elles sont plus fraîches.^(٤٥)

(من احاديث الصالونات الراقية)

كانت الكونتيسة العجوز جالسة أمام المرأة في غرفة الزينة. وأحاطت بها ثلاث فتيات. وأمسكت إحداهن بيدها علبة الحمرة، والأخرى أمسكت علبة الدبايس، بينما أمسكت الثالثة قلنسوة عالية ذات شرائط بلون ناري. ولم تكن الكونتيسة تصبو البتة إلى الحفاظ على الجمال الذي ذوى منذ وقت بعيد، إلا أنها حافظت على عادات أيام الشباب، والالتزام الصارم بموضة أعوام السبعينيات. كما كانت ترتدي ملابسها إبان فترة طويلة، وبكل حرص كحالها

٤٥ .. - انكم كما يبدو تفضلون بشكل قاطع الخادماات المختصات بالازياء
(بالفرنسية).

- ما العمل انهن اكثر نضارة. (بالفرنسية)

قبل ستين عاماً خلت. وجلست عند النافذة آنسة هي ربيبتها.

قال الضابط الشاب لدى دخوله: مرحباً، *grand'maman*^(٤٦)،
jour, mademoiselle Lise Bon، لذي رجاء اليك *grand'maman*.

ما هو يا *Paul* ؟

إسمحي لي بأن أقدم لك أحد أصدقائي وأن أدعوه اليك في حفلة
البالو يوم الجمعة.

أدعوه إلى الحفل مباشرة وقدمه لي هناك. هل كنت بالأمس عند ؟

طبعاً. كان الحفل مرحاً جداً، ورقصنا حتى الساعة الخامسة. ما
أحلى يليتسكايا !

هه، ياعزيزي ! أية حلاوة فيها؟ وهل كانت كذلك جدتها الأميرة
داريا بتروفنا؟.. بالمناسبة: انا أقول لك أنها هرمت جداً.. داريا بتروفنا؟

فأجاب تومسكي بذهول: كيف هرمت؟ إنها توفيت قبل سبعة
أعوام.

رفعت الآنسة رأسها وأعطت اشارة برأسها إلى الشاب. وتذكر بأنه
أخفي عن الكونتيسة العجوز نبأ وفاة قرينتها، فعرض على شفته. لكن
الكونتيسة سمعت النبأ الجديد بالنسبة لها، بلا مبالاة كبيرة. وقالت:

توفيت ! وأنا لم أعرف ! لقد اعتمدنا سوية لشغل ووظيفة وصيفة
القيصرة، وعندما قدمنا لها أخذت القيصرة...

٤٦. يا جدتي.. صباح الخير يا مدموازيل ليزا (بالفرنسية)

وروت لحفيدها للمرة المائة مزحة من تأليفها. ثم قالت:

هيا يا بول، ساعدني الآن على النهوض. ليزانكا، أين علبتني
للسعوط؟

ومضت الكونتيسة مع فتياتها لإكمال الزينة وراء البارفان. أما
تومسكي فقد بقي مع الآنسة. فسألته ليزافيتا ايفانوفنا بهمس:

من هذا الرجل الذي تريد تقديمه اليها؟

نعوموف. هل تعرفينه؟

كلا! هل هو عسكري أم مدني؟

عسكري.

مهندس؟

لا. من الفرسان. ولماذا ظننت انه مهندس؟

فضحكت الفتاة ولم ترد.

صاحت الكونتيسة من رواء البارفان: - بول! أرسل لي رواية ما
جديدة، لكن رجاء، فقط ألا تكون من روايات هذه الأيام.

ما معنى ذلك، *grand maman* (٤٧)؟

أي الرواية التي لا يخنق فيها البطل أبيه ولا أمه ولا توجد فيها
جثث غارقة. أنني أخاف جداً الغرقى!

لا توجد مثل هذه الروايات الآن. لكن ألا تريدين روايات روسية؟

٤٧. ياجدتي (بالفرنسية) - المترجم.

وهل توجد روايات روسية؟... أرسل لي يا بني أرسل لي، رجاء.

المعذرة يا *grand maman*: فأنا في عجلة من أمري.. المعذرة
ليزافيتا ايفانوفنا! لماذا ظننت أن نعوموف مهندس؟

غادر تومسكي غرفة الزينة.

وبقيت ليزافيتا ايفانوفنا لوحدها ووضعت أشغال الإبرة جانباً،
وأخذت تتطلع من النافذة. وسرعان ما ظهر في أحد جانبي الشارع
ضابط شاب. فاصطبغت وجنتيها بالحمرة. وانهمكت في أشغال
الإبرة مجدداً وأحنت رأسها على طوق قماش القنب. وفي هذه اللحظة
خرجت الكونتيسة مرتديةً ملابسها كاملة.

فقالت لها: أمري يا ليزانكا، بإعداد العربة، وسنذهب للنزهة.

نهضت ليزانكا من وراء طارة التطريز وأخذت تجمع مواد أشغالها.

فصاحت الكونتيسة: - مالك، يا أماه! هل أنت صماء؟ أمري
بسرعة بتهيئة العربة.

وأجابت الأنسة بهدوء: الآن! - وهرعت مهرولة إلى غرفة المدخل.

ودخل خادماً وسلم الكونتيسة كتباً أرسلها الأمير بافل
الكسندر وفيتش.

وقالت الكونتيسة: حسناً! شكراً! ليزانكا، ليزانكا! إلى أين
تذهبين؟

لإرتداء ملابسني.

مهلاً، ستجدين الفرصة لذلك. إجلسي هنا. إفتحي المجلد الأول،
إقرأي بصوت عال...

أخذت الأنسة الكتاب وقرأت عدة أسطر.

فقالته الكونتيسه: - بصوت أعلى! ماذا جرى لك يا أماه؟ هل
فقدت صوتك، أم ماذا؟.. مهلاً، قربي مني المصطبة، أقرب.. هيا!
قرأت ليزافيتا ايفانوفنا صفحتين أخريين. وثابته الكونتيسه،
وقالت:

أتركي هذا الكتاب جانباً. ما هذا السخف! أرسليه إلى الأمير بأفل
وأمرني بتقديم الشكر له.. والعربة ما حالها؟

قالت ليزافيتا ايفانوفنا وهي تتطلع إلى الشارع: العربة جاهزة.

ونبرت الكونتيسه: مالك لم ترتدي ملابسك؟ يجب علي انتظارك
دائماً! هذا يا أماه شيء لا يحتمل.

وهرولت ليزا إلى غرفتها. ولم تمض سوى دقيقتين وإذا بالكونتيسه
تقرع الجرس بكل قوة. فظهرت الفتيات الثلاث بسرعة في أحد
الأبواب بينما ظهر خادم القصر في باب آخر.

وقالت لهم الكونتيسه: مالي لا أستطيع دعوتكم؟ قولوا ليزافيتا
ايفانوفنا إنني إنتظرها.

أما ليزافيتا ايفانوفنا فقد دخلت مرتدية معطفا وقبعة.

فقالته الكونتيسه: وأخيرا جئت، يا أماه! ما هذه الملابس؟ من
تريدين

افتتانه؟.. ماهو حال الطقس؟ - أعتقد انه تهب الريح.

ونير خادم القصر: - كلا، ياسيادتكم! الجو هادئ جداً.

إنك دائماً تلقي الكلام إعتباطاً! افتحوا النافذة. وهو كذلك: ثمة رياح! وباردة! أجلسوا العربية. ليزانكا، سوف لا نذهب: ما كان الأمر يستحق إرتداء الملابس والتزين.

وجال في خاطر ليزافيتا ايفانوفنا: « هذه هي حياتي ».

فعلا كانت ليزافيتا ايفانوفنا مخلوقاً بائساً جداً. وكما يقول دانتي فإن خبز الغير مر وثقيلة درجات مدخل بيت الغير، ومن يعرف مرارة التبعية مثل الربيبية المسكينة لعجوز ثرية؟ طبعاً أن الكونتيسة لم تكن شريرة الطبع، لكنها كانت نزقة، وإمرأة مدللة في المجتمع الراقي وبخيلة وغارقة في الأنانية الباردة شأنها شأن جميع العجائز الذين ولى زمانهم وأصبحوا غرباء عن الزمن الحاضر. وكانت تشارك في جميع محافل المجتمع الراقي، وترتاد حفلات البالو، وينحني أمامها بإحترام شديد الضيوف من القادمين كما لو كان ذلك وفق طقوس سائدة، ومن ثم لا يلقي أحد بالأإليها. وكانت تستقبل في قصرها جميع أهالي المدينة، وتلتزم التزاماً صارماً بالإتيكيت من دون أن تعرف أي أحد منهم شخصياً. أما خدمها الكثيرون المترهلون الجالسون في غرفة المدخل وغرفة الفتيات فإنهم كانوا يفعلون كل ما يريدون، ويتنافسون في سرقة العجوز المشارفة على الموت. ويمكن القول أن ليزافيتا ايفانوفنا كانت شهيدة البيت. وكانت تصب الشاي وتلقى التوبيخ بسبب استهلاك السكر أكثر مما ينبغي، كما تقرأ الروايات بصوت عال وتكون مذنبية بسبب جميع أخطاء المؤلف. وكانت ترافق الكونتيسة في نزهاتها وتكون مسؤولة عن حالة الطقس وسوء الطريق. وقد حدد لها راتب لكنها لم تستلمه أبداً، بينما يطلب منها أن تتزيا مثل الجميع،

أي من القلائل جداً. وكان دورها في المجتمع الراقي بائساً للغاية. فقد كانت معروفة للجميع لكن لا يهتم بها أحد، سوى في حفلات البالو فقط حين يوجد نقص في ال $VIS-A'-VIS^{(٤٨)}$ لدى الراقصين. بينما كانت السيدات تتأبطن ذراعها لدى الذهاب إلى التواليت من أجل تعديل شيء في الملابس والزينة. وكانت شديدة الحساسية، وتحسس وضعها فتتظر إلى حوالها - وتتظر بفارغ الصبر ظهور المنقذ، لكن الشبان الحريصين في غرورهم الطائش لا يعيرون اهتماماً لها. علماً أن يلزافيتا ايفانوفنا أكثر حسناً بمئة مرة من الخطيبات الوقحات الباردات اللواتي يغازلونهن. وما أكثر المرات التي تترك فيها غرفة الجلوس المملة والفخمة بهدوء لكي تذرف الدموع في غرفتها المتواضعة ذات الستائر الحاجزة والجدران الملصقة بالورق وهناك كومود ومرآة وسرير مطلي بالصبغ وحيث تضيء شمعة شحمية بنور باهت في شمعدان نحاسي.

وحدث مرة - وكان ذلك بعد يومين من المساء الوارد ذكره في بداية هذه القصة ، وقبل أسبوع من المشهد الذي ذكرناه، إن رأت ليزافيتا ايفانوفنا بالصدفة لدى جلوسها عند النافذة وانهماكها بالعمل مع آلة الغزل مهندساً شاباً يتطلع بلا حراك إلى النافذة. فخفضت رأسها وواصلت العمل ، وبعد خمس دقائق تطلعت مرة أخرى فوجدت الضابط الشاب واقفاً في المكان نفسه. ولم تكن لديها عادة التغنج والدلع أمام المارة من الضباط. فكفت عن التطلع إلى الشارع وانهمكت بالتطريز طوال ساعتين تقريباً من دون أن ترفع رأسها. ثم نهضت وبدأت بجمع طارة التطريز فنظرت إلى الشارع صدفة ورأت الضابط مجدداً. وبدا هذا أمراً غريباً جداً لها. وبعد الغداء اقتربت من

٤٨. الثنائي في الرقص - (المترجم).

النافذة بشعور يشوبه نوع من القلق، فلم تر الضابط، - ونسيت أمره..

وبعد مضي يومين رآته مجدداً لدى الخروج مع الكونتيسة لركوب العربة. رآته واقفاً عند المدخل تماماً وقد غطى وجهه بياقة مصنوعة من فرو القندس: كانت عيناه السوداوان تتألقان تحت القبعة. فأرتعبت ليزافيتا ايفانوفنا، من دون أن تعرف السبب، وجلست في العربة وقد غمرتها رجفة مبهمة.

ولدى عودتها إلى البيت هرعت الى النافذة، - كان الضابط يقف في المكان السابق متطلعاً إليها بعينيه: فابتعدت، وقد اعتملت نفسها بعذاب الفضول وبشعور القلق الجديد بالنسبة إليها تماماً.

منذ ذلك الحين لم يكن يمر يوم لا يظهر فيها الشاب، في ساعة معينة، تحت نوافذ بيتهم. ونشأت بينه وبينها علاقات غير محددة. وكانت يجلسها في مكانها مشغولة بعملها تتحسس اقترابه، - فترفع رأسها وتنظر إليه بفترات تطول يوماً بعد يوم. وترائي أن الشاب كان ممتالها: وقد رأت بالنظرة الثاقبة للفتوة إحمرار وجنتيه في كل مرة تتلاقى فيها أنظارهما. وبعد أسبوع ابتسمت له...

عندما طلب تومسكي السماح بتقديم صديقه إلى الكونتيسة انتفض قلب الفتاة المسكينة. لكنها عندما علمت أن ناروموف ليس مهندساً بل من رجال الفرسان، وأسفت لكونها بسؤالها غير المتواضع قد كشفت سرها لتومسكي الطائش.

كان غيرمان ابن ألماني تروسن خلف له رأسماً صغيراً. ونظراً لقناعته الراسخة بوجوب تعزيز استقلاليتها فان غيرمان لم يمس فوائد إيداع المال وعاش براتبه فقط، ولم يسمح لنفسه بأي نزوة. علماً

أنه كان منظوياً على نفسه وطموحاً، وغالباً ما كان رفاقه يسخرون من حرصه الشديد على المال. وقد إتم بعواطف مشبوبة وبخيال ملتهب، لكن صلابته أنقذته من ضلالات الشباب المألوفة. فمثلاً كان في قرارة نفسه لاعب قمار لم يمسك بيديه ورق اللعب أبداً، لأنه كان يعتقد أن وضعه لا يساعد (حسب قوله) على التضحية بالضرورات أملاً في كسب الفائض عن الحاجة، - بينما كان يمضي ليالٍ بأكملها في مراقبة موائد القمار ومتابعة مختلف تطورات اللعب بارتعاشة محمومة.

لقد تركت المزحة حول أوراق اللعب الثلاث تأثيراً قوياً في خياله ولم تفارق رأسه طوال الليل. وفكر في مساء اليوم التالي في أثناء تجوله في بطرسبورغ: «ماذا لو.. ماذا لو تكشف له الكونتيسة العجوز أوراق اللعب الصحيحة الثلاث! ولم لا يجرب حظها؟.. ويقدم لها نفسه، ويتغني كسب الخطوة لديها، - بأن يصبح عشيقاً لها، - لكن هذا كله يتطلب الوقت - فيما هي في سن الثمانين، - ويمكن أن تموت بعد أسبوع، - أو بعد يومين!.. والمزحة نفسها؟ ربما يمكن تصديقها؟.. كلا! حساب العواقب والإعتدال وحب العمل هي أوراق الثلاث، وهذا ما يضاعف رأسمالي بمقدار الضعفين أو ثلاثة أضعاف، ويوفر لي الطمأنينة والإستقلال!«.

وفيما كان يفكر بهذه الصورة وجد نفسه في أحد الشوارع الرئيسية في بطرسبورغ، قبالة بيت ذي طراز عمارة قديم. كان الشارع ممتلئاً بالعربات، وكانت العربات تتوالى الواحد تلو الأخرى إلى المدخل المضيء. وكانت تظهر من العربات تارة ساق حسناء شابة وتارة جزمة ثقيلة ذات صليل، وتارة أخرى جورب مقلّم وحذاء دبلوماسي. وتألقت معاطف الفرو والمعاطف بمحاذاة البواب الضخم الجثة. توقف غيرمان.

وسأل الشرطي في الناصية:- بيت من هذا؟

فأجابه الشرطي:- إنه بيت الكونتيسة .

خفق قلب غيرمان. وترائت في خياله مجدداً المزحة المدهشة. وصار يدور حول البيت مفكراً بصاحبه وبقدرتها العجيبة. وعاد في وقت متأخر من الليل إلى مسكنه المتواضع، ولم يستطع النوم فترة طويلة، وعندما غلبه النعاس، رأى في الحلم أوراق اللعب والطاولة الخضراء وتلال اوراق البنكنوت وأكوام قطع النقود الذهبية. وكان يلقي الورقة تلو الورقة ويضاعف الرهان بحزم واصرار، فيكسب بلا توقف، ويكسب الذهب أمامه ويضع أوراق البنكنوت في جيبه. إستيقظ في وقت متأخر، وتحسر على فقدان ثورته الخيالية، ومضى يتسكع مجدداً في المدينة فوجد نفسه مجدداً أمام بيت الكونتيسة . وبدا أن قوة سحرية ما قادتته إليه. فتوقف وصار يتطلع في النوافذ. وشاهد في إحداها رأس إنسان منحنيّاً ربما لمطالعة كتاب أو لممارسة عمل ما. إرتفع الرأس وشاهد غيرمان وجهاً نظراً وعينين سوداوين. وهذه اللحظة قررت مصيره.

Vous m'e'crivez ,mon ange,

Des lettres de quatre pages plus

Vite que je ne puis les lire.⁽⁴⁹⁾

ما كادت ليزافيتا ايفانوفنا تخلع المعطف والقبعة حتى وجدت أن الكونتيسة قد أرسلت في طلبها وأمرت بتهيئة العربة مرة أخرى. وتوجهتا لركوبها. وفي اللحظة التي كان فيها خادمان يرفعان العجوز ويدخلانها في باب العربة رأت ليزافيتا ايفانوفنا مهندسها بالقرب من العجلة مباشرة. فأمسك بيديها، ولم تستطع أن تثوب إلى نفسها من الخوف، بينما اختفى الشاب: فيما بقيت في يدها رسالة. فاخفتها وراء القفاز وكانت طوال الطريق لا تسمع ولا ترى شيئاً. وكان من عادة الكونتيسة أن تطرح في كل لحظة أسئلة مثل: من هذا الذي قابلنا؟ - ما إسم هذا الجسر؟ - وما هو مكتوب على هذه اللافتة؟ أما ليزافيتا ايفانوفنا فكانت في هذه المرة تجيب كيفما اتفق وبشكل لا صلة له بالموضوع، مما أثار غيظ الكونتيسة.

٤٩. انك ياملاكي تكتبين لي رسالة من اربع صفحات بسرعة اكبر مما استطيع قراءتها(بالفرنسية)- المترجم. -..

ماذا جرى لك يا أماء؟ هل اصبت بالذهول، أم ماذا؟ هل أنك لا تسمعيني أو لا تفهميني؟.. الحمد لله، انني لا ألتغ ولم أصب بمس من الجنون!

لم تكن ليزافيتا ايفانوفنا تسمعها. ولدى العودة إلى البيت هرعت إلى غرفتها واخرجت الرسالة من القفاز، ولم تكن محتومة بالشمع. قرأتها ليزافيتا ايفانوفنا. كانت الرسالة تتضمن عبارات رقيقة وتنم عن الإحترام ومأخوذة كلمة فكلمة من رواية ألمانية. لكن ليزافيتا ايفانوفنا لم تكن تجيد الألمانية وكانت راضية جداً عنها.

بيد أن الرسالة التي استلمتها أثارت القلق البالغ لديها. إذ انها تقيم لأول مرة علاقات سرية وثيقة مع رجل شاب. وأثارت جرأته جزعها. ولامت نفسها على سلوكها غير الحذر ولم تعرف ما يجب عمله: هل تكف عن الجلوس عند النافذة وتخدم بعدم الإهتمام رغبة الضابط في ملاحظتها لاحقاً؟ - هل تبعث إليه برسالة؟ - هل تجيبه ببرود وبحزم؟ لم يكن لديها من تستشير في الأمر إذ لم تكن لديها صديقة أو مربية. وقررت ليزافيتا ايفانوفنا الرد على الرسالة.

وجلست إلى منضدة الكتابة وتناولت الريشة والورقة - واستغرقت في التفكير. وبدأت عدة مرات بكتابة رسالتها - ثم مزقتها: فتارة بدت لها التعابير متسامحة جداً او صارمة جداً. وفي نهاية المطافة أفلحت في كتابة عدة سطور رضيت بها. فكتبت: «أنا واثقة من أن لديك نوايا شريفة ولا تريد إهانتني بفعلة طائشة. لكن التعارف بيننا يجب ألا يتم بهذه الطريقة. أعيد اليك رسالتك وآمل الا تكون هناك لاحقاً أسباب تبرر عدم الإحترام غير المنصف».

في اليوم التالي قامت ليزافيتا ايفانوفنا من وراء طارات التطيرز لدى

رؤيتها غير مان قادماً وخرجت من الصلاة وفتحت النافذة ورمت الرسالة إلى الشارع أملاً في حذق الضابط الشاب. فجرى غير مان والتقطها وولج إلى دكان بيع الحلويات والمعجنات. ونزع الختم ووجد في الظروف رسالته وجواب ليزافيتا ايفانوفنا. وكان هذا ما ينتظره وتوجه عائداً الى بيته، وكان ذهنه مشغولاً بعلاقته الغرامية.

بعد مضي ثلاثة أيام من ذلك جاءت إلى ليزافيتا ايفانوفنا مدموازيل شابة بعينين براقين حاملة رسالة من محل بيع أزياء الموضة. وفتحتها ليزافيتا ايفانوفنا بقلق متوقعة أن تتضمن حسابات نقدية، وفجأة رأت خط يد غير مان.

فقلت:- إنك، ياروحي، قد اخطأت، فهذه الرسالة ليست لي.

وأجابت الفتاة الجريئة، من دون اخفاء إبتسامة ذات مغزى:

- كلا، إنها لك بالضبط ! إسمحي بقراءتها!

ألقت ليزافيتا ايفانوفنا نظرة سريعة على قصاصة الورق. يطلب غير مان موعداً معها.

هذا غير ممكن ! - قالت ليزافيتا ايفانوفنا ذلك وقد تملكها الخوف من العجلة في طلب اللقاء والوسيلة التي استخدمها. - إن هذه الرسالة ليست لي حقاً! - ومزقت الرسالة إرباً إرباً.

وقالت المدموازيل:- مادامت الرسالة ليست موجهة إليك فلماذا مزقتها. كنت سأعيدها إلى من أرسلها.

وقالت ليزافيتا ايفانوفنا وقد أغضبها القول:- أرجوك، ياعزيزتي!

لا تجلبي بعد ذلك قصاصة ما إلي. وأبلغني من أرسلك بأنه يجب أن
يخجل... .

لكن لم تثبط عزيمة غيرمان. وصارت ليزافيتا ايفانوفنا تتلقي الرسائل
منه في كل يوم، بهذه الوسيلة أو تلك. علماً أنها لم تكن مترجمة عن
اللغة الألمانية. وكان غيرمان يكتبها، بشوق ملهم، ويتحدث باللغة
المميزة له: فهي تجسد ثبات رغباته، واضطراب خياله الجامح. ولم
تعد ليزافيتا ايفانوفنا تفكر في إعادتها: وطفقت تشمت بها، وأخذت
تجيب عليها - وصارت قصاصاتها أطول وأرق أكثر فأكثر. وفي نهاية
المطاف أقلت من النافذة الرسالة التالية:

« ستقام اليوم حفلة بالو عند المبعوث ال. وستكون الكونتيسة
هناك. وسبقى فيها حتى ساعتين. وستسمح لديك الفرصة لرؤيتي
على انفراد. وحالما تغادر الكونتيسة سيتفرق خدمها في أغلب
الظن، وسيبقى البواب في صالة المدخل، لكنه يذهب عادة الى غرفته
الصغيرة. فتعال في الساعة الحادية عشرة والنصف. واصعد السلم
مباشرة. وإذا لقيت أحدا ما عند القاعة الأمامية فأسأله فيما إذا كانت
الكونتيسة موجودة. فسيقال لك أنها غير موجودة -عندئذ لا مفر من
العودة. وفي أغلب الظن أنك لن تلتقي أحداً. فالفتيات في مكانهن
حيث يسكن جميعاً في غرفة واحدة. وتوجه من السقيفة نحو اليسار
وواصل السير الى الأمام حتى غرفة نوم الكونتيسة. وسترى في غرفة
النوم وراء حاجزين(بارفانين) صغيرين بابين صغيرين يقود احدهما
من اليمين الى غرفة المكتب التي لا تدخل إليها الكونتيسة عادة،
وهناك سلم حلزوني ضيق يقود إلى غرفتي».

كان يرمان يرتجف كالنمر بانتظار وقت الميعاد. وفي الساعة العاشرة

مساءً وقف امام بيت الكونتيسة. وكان الطقس رديئاً: فقد عوت الرياح، وتساقط الثلج برذاذ مبلل، وكانت المصابيح تضيء بنور خاب والشوارع خاوية. وفي بعض الأحيان كان حوذي «فانكا» معفرسه الهزيل يترصد زبوناً ما في ذلك الوقت المتأخر. وأخيراً جاءت عربة الكونتيسة. وشاهد غيرمان كيف حمل الخدم على أيديهم العجوز المجددة الجسد الملفوفة في معطف من فرو السمور، وبدت خلفها رببتها في معطف خفيف وقد زينت رأسها بزهور نضرة. واصطفقت الأبواب. واندفعت العربة بثقل فوق الثلج الرخو. أغلق الباب الباب. وانطفأت الأنوار في النوافذ. وطفق غيرمان يتمشى بالقرب من البيت الذي بدا خاوياً: فاقرب من المصباح في الشارع وتطلع إلى الساعة وكانت الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة. وبقي تحت المصباح متابعاً بناظره عقارب الساعة بانتظار مرور بقية الدقائق. وفي الساعة الحادية عشرة والنصف تماماً صعد غيرمان مدخل واجهة بيت الكونتيسة، وولج السقيفة المضاءة بنور ساطع. لم يكن الباب موجوداً هناك. وصعد غيرمان السلم بسرعة وفتح باب القاعة الأمامية ورأى خادماً نائماً تحت المصباح فوق مقاعد عتيقة وسخة. وخطا غيرمان بمحاذاة بخطوات خفيفة وحازمة. كان الظلام يعم القاعة وصالة الضيوف. وأنارهما المصباح الخابي في القاعة الأمامية. وولج غيرمان غرفة النوم. وشاهد أمام خزانة مليئة بالأيقونات القديمة سراجاً ذهبياً. وصفت متماثلة عند الجدران المغطاة بأوراق صينية مقاعد منجدة بقماش حريري استحال لونه وكنبات ذوات وسائد من الزغب، وقد زال الطلاء الذهبي عنها. وعلقت على الجدار لوحتا بورترية رسمتها في باريس مدام ليرون. وصور في إحداها رجل في سن الأربعين أحمر السحنة وبدينا يرتدي بزة خضراء فاقعة وعليها نجمة، أما الأخرى فتصور شاباً وسيماً معقوف الأنف وقد مشط شعره

وراء الصدغين وثمة وردة في شعر رأسه المغطى بالبودرة. وانتصبت في جميع الزوايا راعيات من الخزف وساعات من صنع ليروا الشهير وعلب والروليتات والمراوح اليدوية وشتى أنواع اللعب النسائية التي ابتدعت في أواخر القرن الماضي سوية مع كرة منغولفير ومغناطيس ميسمير. وخطا غيرمان وراء البارفانين. فوجد ورائهما سريراً حديدياً صغيراً، ومن اليمين ثمة باب يقود إلى غرفة المكتب، ومن اليسار ثمة باب آخر يقود إلى الممر. ففتحه ورأى غيرمان السلم الحلزوني الضيق المؤدي إلى غرفة الرببة المسكينة.. لكنه استدار وولج غرفة المكتب المظلمة.

مضى الوقت بصورة بطيئة. وساد الهدوء في المكان. ودقت الساعة في صالة الضيوف معلنة الثانية عشرة ليلاً، كما دقت الساعات في جميع الغرف معلنة الثانية عشرة - ثم ساد الصمت مرة أخرى. وقف غيرمان مستنداً إلى الموقد البارد. وكان رابط الجأش، وقبله ينبض بانتظام كما لدى شخص قرر الإقدام على أمر خطير لكنه ضروري. ودقت الساعات معلنة الواحدة ثم الثانية بعد منتصف الليل. - وسمع صوت عربة من بعيد. وتملكه الإضطراب من دون إرادته. اقتربت العربة ثم توقفت. وسمع صرير إنزال منصة الهبوط فيها. وسادت الحركة في البيت. كان الأشخاص يتراكون، وسمعت أصوات ما، وانيرت المصابيح في البيت. واندفعت إلى داخل غرفة النوم ثلاث خادومات عجائز ودخلت الكونتيسة، بإعياء، وإنهارت فوق المقاعد الفولتيرية. ورأى غيرمان عبر الشق وقد مرت به ليزافيتا ايفانوفنا. وسمع غيرمان خطواتها المستعجلة فوق درجات سلمها. وشعر في قلبه بما يشبه وخز تأنيب الضمير ثم هدأ مرة أخرى. فقد تحجر.

بدأت الكونتيسة بخلع ملابسها أمام المرآة. فرفعت الطاقيّة المزينة

بالورود، ونزعت الباروكة المبودرة من رأسها ذي الشعر الأشيب والمقصوص بكثافة. وتساقطت الدبابيس كالمطر حولها. وسقط الرداء الأصفر الموشى بالفضة حولها. وشهد غير مان الأسرار المقززة لزيبتها. وفي نهاية المطاف أصبحت الكونتيسة برداء النوم والقلنسوة الليلية. وبدأت في هذا الزي الذي يناسب شيخوختها أقل بشاعة وقبحاً.

كانت الكونتيسة شأنها شأن جميع كبار السن عموماً تعاني من الأرق. وبعد نزع ملابسها جلست عند النافذة في المقعد الفولتيري وصرفت الخادومات. وأطفأت الشموع وبقيت الغرفة مضاءة بنور السراج وحده. جلست الكونتيسة شاحبة الوجه كلياً، وهي تدمدم بشيء ما في شفيتها المترعشتين، وتراوح رأسها يميناً ويساراً. وكانت عيناها خابيتين تعكسان غياب الفكر كلياً، ويمكن لدى النظر إليها الإعتقاد بأن مراوحة المرأة العجوز تتم بلا إرادتها، بل بتأثير تيار كهربائي خفي.

وفجأة تغير هذا الوجه الميت بشكل يصعب تفسيره. فكفت الشفتان عن الارتعاش، وتألقت الحيوية في العينين: فقد وقف أمام الكونتيسة رجل غريب.

وقال بصوت واضح وهادئ: لا تخافي، بحق الرب، لا تخافي! ليست لدي نوايا لا يذائك، لقد جئت إليك مستجدياً عطفك في أمر ما. تطلعت العجوز إليه صامته وبدأ كما لو أنها لم تسمعه. وأعتقد غير مان أنها ثقيلة السمع وكرر العبارة نفسها مقرباً من إذنها تماماً. لكن العجوز لزمّت الصمت كالسابق.

ومضى غير مان قائلاً: - يمكنك أن تهبي لي السعادة في حياتي، من دون أن يكلفك ذلك شيئاً: انني أعرف أنك تستطيعين حزر ثلاث أوراق لعب متتالية...

توقف غيرمان عن الكلام. وبدأ أن الكونتيسة أدركت ماذا يطلب منها، وأنها كانت تبحث عن الكلمات للإجابة.

وقالت في نهاية المطاف: - لقد كانت مزحة، وأقسم لك ذلك! لقد كانت مزحة!

فعارضها غيرمان غاضباً: لا يمكن المزاح في هذه الأمور. تذكرني تشابليتسكي الذي ساعدته في استعادة خسائره.

يبدو أن الكونتيسة قد أصابتها الحيرة والإرتباك. وتجمدت في سحنة وجهها سمات الإنفعال الشديد، إلا أنها سرعان ما أضحت في حالة الذهول السابق.

وتابع غيرمان قوله: - ربما تذكرني لي تلك الأوراق الصحيحة؟

لكن الكونتيسة بقيت صامتة. وواصل غيرمان:

من أجل من تحفظين هذا السر؟ من أجل الأحفاد؟ إنهم أثرياء أصلاً ولا يعرفون قيمة النقود. ولا تنفع الميزر أوراقك الثلاث. ومن لا يحسن صيانة ميراث الآباء سيموت مع هذا في فقر، بالرغم من جميع المساعي الشيطانية.. وأنا لست مبدراً: أنا أعرف قيمة النقود. ولن تضع أوراقك الثلاث لدي. هيا!..

توقف غيرمان عن الكلام وانتظر جوابها برجفة. لكن الكونتيسة لزمت الصمت. عندئذ رجع غيرمان أمامها وقال:

إذا ما عرف قلبك الحب في وقت ما، وإذا ما تذكرت مسراته، وإذا ما ابتسمت ولو مرة او حدة لدى بكاء الإبن الوليد، وإذا ما نبض شيء إنساني ما في صدرك في وقت ما، فإنني أتوسل اليك بمشاعر الزوجة والعشيقة والأم - وكل ما هو مقدس في الحياة - لا ترفضني تلبية طلبتي! - إكشفي لي سر! - ما حاجتك إليه؟.. ربما أنه يقترن بخطيئة فظيعة،

وبزوال الخير الأبدى، وبالتواطؤ مع الشيطان؟ فكري في الأمر: أنت عجوز، ولم يتبق لديك زمن طويل للعيش - أنا مستعد لأخذ خطيئتك لكي تتحمل وزرها روحي. إكشفي لي سرّك فقط. وفكري أن سعادة إنسان توجد في يدك، ولست أنا فقط بل وأولادي وأحفادي وأحفاد أحفادي سيباركون ذكراك وسيجلونها كشيء مقدس...

لم تجب العجوز ولو بكلمة واحدة.

فقام غيرمان، وقال صاراً بأسنانه:- أيتها العجوز الشمطاء، سأرغمك على الإجابة..

وأخرج مع هذه العبارة مسدسه من جيبه.

وعندما رأت الكونتيسة المسدس إحتدمت للمرة الثانية مشاعرها بعنف. فهزت رأسها ورفعت يدها لإلتقاء إطلاق النار.. ثم انهارت ساقطة على ظهرها.. وبقيت بلا حراك.

وقال غيرمان ماسكاً يدها: - كفى صبيانية. إنني أسألك آخر مرة: هل تريدان أن تذكري لي ورقاتك الثلاث؟ - نعم أم لا؟
لم تجب الكونتيسة. ورأى غيرمان أنها فارقت الحياة.

7 Mai 18

Homme sans moeurs et san

Religion!^(٥٠)

جلست ليزافيتا ايفانوفنا في غرفتها، وما زالت في زي حفلة البالو، وغرقت في التفكير العميق. ولدى رجوعها إلى البيت عاجلت في صرف الصبية النعسة التي تخدمها التي عرضت بلا رغبة خدماتها، - وقالت لها أنها ستخلع ملابسها بنفسها، وولجت غرفتها مرتجفة أملاً في أن تجد غيرمان هناك، ولو أنها لم ترغب في أن تجده فيها. ومنذ النظرة الأولى شعرت بالرضا لغيابه وشكرت القدر للعقبة التي حالت دون لقائهما. فجلست وخلعت ملابسها وبدأت بتذكر جميع الظروف، في هذا الوقت القصير وما أعقبها بزمن بعيد. فقد مضت ثلاثة أسابيع منذ أن رأت الشاب لأول مرة من النافذة، - ثم بدأت المراسلات معه، - واستطاع الحصول على موافقتها على اللقاء ليلاً! وقد عرفت إسمه لأنه وقع بإسمه بعض الرسائل. ولم تتحدث معه أبداً، ولم تسمع صوته، كما لم تسمع عنه شيئاً أبداً.. حتى ذلك المساء. أمر غريب! ففي ذلك المساء، في حفلة البالو أراد تومسكي، الذي

٥٠. مراسلات شخص يفتقر الى اي قواعد اخلاقية واي دين. (بالفرنسية) - المترجم

غضب من الأميرة الشابة بولينا لأنها بخلاف عاداتها تغنجت وتدلعت ليس معه بل مع آخر، أن ينتقم بإظهار اللامبالاة: فدعا ليزفيتا ايفانوفنا ورقص معها المازوركا بلا توقف. وكان طوال الوقت يمزح معها بشأن غرامها بالضابط المهندس، وأكد أنه يعرف أكثر كثيراً مما تعتقد، وكانت بعض مزحاته موفقة في التصويب لحد أن ليزافيتا ايفانوفنا اعتقدت عدة مرات بأنه يعرف سرها.

وسألته ضاحكة: - من أين لك أن تعرف هذا كله؟

فأجاب تومسكي: - من صديق شخص تعرفينه، وهو شخص رائع جداً!

ومن هذا الشخص الرائع؟

إسمه غير مان.

لم تجب ليزافيتا ايفانوفنا بشيء لكن البرودة سرت في ذراعيها وساقها...

ومضى تومسكي قائلاً: - إن غير مان هذا شخصية رومانسية حقاً: فمظهره من الجانب يشبه نابليون، وله روح مفيستوفيل. وأعتقد أنه اقترف ما لا يقل عن ثلاث أفعال شنيعة. بالشحوب وجهك!

- إن رأسي يؤلمني.. وماذا قال لك غير مان هذا، - أو ما إسمه؟

- غير مان غير راض عن صديقه، ويقول أنه لو كان مكانه لتصرف بشكل آخر.. وأنا حتى أعتقد ان غير مان معجب بك، وعلى أي حال فإنه يبدي اهتماماً شديداً للغاية بعبارات الإعجاب الغرامية لصديقه.

- لكن أين رأني؟

- في الكنيسة، وربما في أثناء النزهة!.. الله أعلم! ربما في غرفتك،

في أثناء نومك: كل شيء محتمل من جانبه..

قطع اقتراب ثلاث سيدات منه وطرحهن السؤال - *oublie ou regret*?^(٥١) - الحديث الذي أثار لدى ليزافيتا ايفانوفنا فضولاً موجعاً.

أما السيدة التي اختارها تومسكي فهي الاميرة نفسها. وقد أفلحت في التفاهم معه، بعد القيام بلفة إضافية بالدوران حول مقعدها. - أما تومسكي الذي عاد إلى مكانه فلم يعد يفكر بغير مان ولا بليزافيتا ايفانوفنا. وأرادت استئناف الحديث الذي انقطع، لكن المازوركا انتهت، وبعد ذلك بفترة قليلة غادرت الكونتيسة الحفل.

لم تكن أقوال تومسكي سوى ثرثرة في أثناء رقصة المازوركا، إلا أنها مست منابت روح الشابة الحاملة. ولوحة البورتريه التي رسمها تومسكي تشبه الصورة التي كونتها نفسها، وبفضل الروايات الحديثة، أصبح هذا الوجه المبتذل كعبع واسر خيالها. وجلست بذراعين متصلبتين، وأمالت رأسها على صدرها العاري، والذي ما زالت تزينه الزهور.. وفجأة فتح الباب، ودخل غير مان. فارتعبت...

وسألته بهمس يشوبه الخوف: - اين كنت؟

وأجاب غير مان: - كنت في غرفة نوم الكونتيسة العجوز، وانا الآن قادماً لتوي منها. لقد توفيت الكونتيسة.

يا إلهي!.. ماذا تقول؟

وتابع غير مان قوله: - أعتقد أنني السبب في وفاتها.

تطلعت ليزافيتا ايفانوفنا إليه، وترددت في دخيلتها أقوال تومسكي:

٥١. نسيان أم أسف (بالفرنسية) - المترجم.

اقترب هذا الشخص ما لا يقل عن ثلاث أفعال شنيعة! وجلس غيرمان على حافة النافذة بالقرب منها وروى لها كل شيء.

أصغت ليزافيتا ايفانوفنا إلى حديث غيرمان وقد تملكها الرعب. إذن إن جميع هذه الرسائل العاطفية، وهذه المطالب الملتهبة، وهذه الملاحظات الجسورة والعنيدة لها، لم تكن تعبيراً عن الحب! النقود - هذا ما كانت تصبو إليه ووجه بنهم! ولم تكن هي من يشبع رغباته ويسعده! ولم تكن الربيبة المسكينة سوى مساعدة عمياء لقاطع الطريق وقاتل ودية نعمتها!.. وبكت بحرقة توبتها المتأخرة والموجعة. ورنّا غيرمان إليها صامتاً: كان قلبه يتمزق أيضاً لكن لم تمس روحه القاسية لا دموع الفتاة المسكينة ولا الروعة المدهشة لحزنها. ولم يشعر بتأنيب الضمير لدى التفكير بالعجوز الميتة. وأثار جزعه فقط فقدان السر بلا رجعة، والذي كان ينتظر الإثراء منه.

وأخيراً قالت ليزافيتا ايفانوفنا: - إنك وحش!

فأجاب غيرمان: أنا لم أرغب بموتها. وكان مسدسي غير محشو. ولزما الصمت.

طلع الفجر. فأطفأت ليزافيتا ايفانوفنا الشمعة الموشكة على الإحتراق كلياً: وغمر الغرفة نور باهت. ومسحت عينيها الدامعتين ورفعتهما نحو غيرمان: كان يجلس على طرف النافذة مسبل الذراعين عبوساً بشكل رهيب. وفي هذا الوضع كان يشبه لحد كبير لوحة بورترية نابليون. وهذا التشابه أذهل حتى ليزافيتا ايفانوفنا.

وأخيراً قالت ليزافيتا ايفانوفنا: - كيف ستخرج من البيت؟ وكنت أفكر في إخراجك عبر السلاّم الخفية، لكن يجب المرور عبر غرفة النوم وأنا أخاف ذلك.

أخبريني كيف أجد هذه السلام الخفية، وانا سأخرج بنفسى.

نهضت ليزافيتا ايفانوفنا واخرجت مفتاحاً من الصوان وسلمته إلى غيرمان وأعطته شرحاً تفصيلياً لكيفية الخروج. وصافح غيرمان يدها الباردة الممتنعة، وقبل رأسها المائل وخرج.

نزل إلى الأسفل بواسطة السلم الحلزوني ودخل مجدداً غرفة نوم الكونتيسة. كانت العجوز الميتة جالسة بلا حراك، وبان على وجهها تعبير القلق البالغ. توقف غيرمان أمامها، وتطلع إليها فترة طويلة، كما لو كان يريد التأكد من الحقيقة الرهيبة. وفي نهاية المطاف ولج غرفة المكتب وطفق يهبط سلماً معتماً، وقد غمرته مشاعر غريبة أثارت قلقه. لربما تسلل بهذا السلم قبل ستين عاماً مضت، إلى غرفة النوم هذه، وفي مثل هذه الساعة، في قفطان موشى بالذهب وبتسريحة شعر ^(٥٢) *a' l'oiseau royal*، ضاغطاً قبعته الثلاثية الأركان إلى موضع قلبه، شاب سعيد، يرقد رفاته منذ زمن بعيد في القبر، بينما توقف عن الخفقان اليوم قلب عشيقته...

ووجد غيرمان تحت السلام باباً فتحه بالمفتاح ذاته، فوجد نفسه في ممر قاده إلى الشارع.

٥٢. الطير الملكي (بالفرنسية) - المترجم.

في تلك الليلة جاءت الي البارونة فون ف.

كانت كلها في حلة بيضاء وقالت لي:

« مرحباً أيها السيد المستشار! »

شفيدينبورغ

بعد ثلاثة أيام من تلك الليلة المشؤومة، وفي الساعة التاسعة صباحاً، توجه غيرمان الى دير حيث وجب أن تقام صلاة الميت على روح المرحومة الكونتيسة. علماً أنه لم يشعر بوجود التوبة لكن لم يستطع تماماً إخماد صوت الضمير، الذي يردد له: أنت قاتل العجوز! علماً أنه كان ضعيف الايمان الحقيقي لكنه كان يؤمن بكثير من الخرافات. وكان يؤمن أن الكونتيسة الميتة يمكن أن تمارس تأثيراً سيئاً في حياته، - وقد قرر المجيء إلى جنازتها بغية طلب عفوها.

كانت الكنيسة مزدحمة. وشق غيرمان طريقه بصعوبة وسط حشد الناس. ووضع التابوت على منصة فخمة تظللها خيمة من المخمل. كانت المتوفاة ترقد فيه وذراعاها على صدرها، وعلى رأسها قلنسوة من الدنتلا وترتدي فستاناً من الأطللس الأبيض. ووقف حولها أهل بيتها من الخدم بقفطانات سود مزينة بشرائط مطرزة بشعار الأسرة على اكتافهم وبأيديهم الشموع، ووقف من الأقارب

في حزن شديد- الأبناء والأحفاد وأبناء الأحفاد. لم يذرف الدموع أي أحد، فمن شأن الدموع أن تكون *une affectation*^(٥٣). وقد كانت الكونتيسة طاعنة في السن لذا ما كان موتها ليستثير جزع أي أحد وكان الأقارب ينظرون إليها منذ وقت بعيد باعتبارها راحلة. وألقى القس الشاب كلمة عند التابوت. وصور بعبارات بسيطة ومؤثرة الرقاد المسالم للمؤمنة، التي كانت خلال أعوام طويلة هادئة، وكأنه بمثابة تهيئة مثيرة للعواطف إلى الوفاة المسيحية. وقال المتكلم: «لقد أخذها ملاك الموت مكلفة بأفكار الخير وبانتظار خطيب صلاة الفجر». واختتمت الصلوات بوقار حزين. وتقدم الأقارب أولاً لتوديع الجثمان. ثم تقدم الضيوف الكثيرون الذين جاءوا للتكريم تلك التي كانت منذ وقت بعيد تشاركهم لهوهم ومرحهم. وأعقبهم جميع أهل البيت. وفي الختام اقتربت سيدة عجوز من حاشية الكونتيسة، وهي قرينة المتوفاة. وقادتها صبيتان من ذراعيها. ولم تكن قادرة على الانحناء حتى الأرض، - فذرفت عدة دموع، وقبلت اليد الباردة لسيدتها. وبعدها قرر غيرمان الإقتراب من التابوت. فانحنى حتى الأرض وبقي عدة دقائق راقداً على الأرض الباردة المكسوة بأغصان الشوح. وفي نهاية المطاف نهض شاحب الوجه كالفقيدة نفسها وصعد منصة التابوت وانحنى.. في هذه اللحظة ترائى له أن الميتة نظرت إليه بسخرية، وغمزت له بإحدى عينيها. وتراجع غيرمان بسرعة، فتعثر وسقط على الأرض على ظهره. فأنهضوه. وفي الوقت نفسه حملت يلزافيتا ايفانوفنا مغيماً عليها إلى طنف الكنيسة. وقد عكر هذا الحادث لعدة لحظات احتفالية الطقوس الحزينة. وسرت بين الزائرين همهمة مكتوبة وهمس الياور النحيف القوام، وهو من أقرباء المرحومة المقربين، في

٥٣. مصطنعة (بالفرنسية).

أذن إنكليزي كان يقف إلى جانبه قائلاً إن الضابط الشاب هو ابنها
غير الشرعي، فأجاب الإنكليزي ببرود: أوه؟

بقي غير مان معكر المزاج للغاية طوال اليوم. وتناول طعام الغداء
في حانة منعزلة وشرب كثيراً جداً على غير عادته أملاً في إخماد
الإضطراب في دخيلة نفسه. بيد أن النبيذ أثار الجزع أكثر في مخيلته.
ولدى عودته إلى البيت استلقى على الفراش من دون أن يخلع
ملابسه واستسلم الى النوم العميق.

وصحا من نومه ليلاً. كان القمر يضي الغرفة بنوره. وتطلع إلى
الساعة: كانت تشير إلى الثالثة إلا ربعاً. وعافه النوم. فجلس على
السرير وأخذ يفكر في جنازة الكونتيسة العجوز.

وفي هذا الوقت رنا إليه من النافذة في الشارع أحداً ما، ثم اختفى
فوراً. ولم يلق غير مان بالأ إليه. وبعد دقيقة سمع صوت فتح الباب
في غرفة المدخل. وفكر غير مان أن الجندي خادمه قد عاد مخموراً
كعادته من نزهته الليلية. لكن سمع صوت خطوات غير معروفة له:
كان أحد ما يمشي بجر جرا حذائه بهدوء. وفتح الباب ودخلت امرأة
برداء أبيض. وظن غير مان أنها مرضعته العجوز وأثار عجبه حول
ما يمكن ان يدعوها للمجيء في هذا الوقت. لكن المرأة ذات الرداء
الأبيض تعثرت واضحت فجأة أمامه - وعرف غير مان الكونتيسة!

وقالت بصوت حازم: - لقد جئت إليك ضد إرادتي، لكنني
تلقيت أمراً بتلبية طلبك. الأوراق هي الثلاثة والسبعة والجوكر
تكسب عندما تكون متتالية، - لكن بشرط أن لا تضع الأوراق
خلال يوم بعد هذا، وألا تمارس لعب القمار طوال حياتك بعد هذا.
أنا اغفر لك موتي، بغية أن تزوج ربييتي ليزافيتا ايفانوفنا...

وبعد هذا القول إستدارت بهدوء ومشت نحو الباب واختفت
بمجر جرة حذائها. وسمع غيرمان صوت انغلاق الباب عند المدخل،
ورأى احدهم يرنو إليه من النافذة مرة أخرى.

لم يستطع غيرمان أن يثوب إلى رشده خلال فترة طويلة. وخرج
إلى الغرفة الأخرى. كان الجندي خادمه نائماً على الأرض. وأيقظه
غيرمان عنوة. وكان الجندي مخموراً كعادته، ولم يكن ممكناً معرفة
أي شيء منه. وكان الباب في غرفة المدخل مغلقاً. وعاد غيرمان إلى
غرفته وأوقد شمعة ودون رؤيته.

- اتانده !

- كيف تجرأت على دعوتي باتانده؟

- يا صاحب السيادة انا قلت اتانده-

س !

لا يمكن أن توجد فكرتان ساكتتان سوية في الطبيعة الأخلاقية، كما لا يمكن أن يوجد جسمان في مكان واحد في العالم الفيزيقي. وسرعان ما سيطرت على خيال غيرمان صورة العجوز الميتة متجسدة بالأوراق الثلاثة والسبعة والجوكر. ولم تفارق رأسه أوراق الثلاثة والسبعة والجوكر كما ترددت هذه الكلمات على شفثيه. وحين ترائت له فتاة شابة قال: «يا لرشاقتها! يا لها من ورقة ثلاثية حقيقية ذات قلب أحمر وعندما كان يسأل: «كم الساعة»، يجيب: «سبعة إلا خمس دقائق». بينما كان كل رجل بدين يذكره بالجوكر. وبقيت أوراق الثلاثة والسبعة والجوكر تلاحقه في النوم، وتتخذ مختلف الأشكال المحتملة: فتألفت ورقة الثلاثة أمامه بهيئة زهرة الكوبية (غرانديفلور) المكتنزة، وبدت ورقة السبعة بهيئة بوابة غوطية، والجوكر بهيئة عنكبوت ضخمة. وتركزت جميع أفكاره في شيء واحد هو كيفية

الإستفادة من السر الذي كلفه غالياً. وبدأ يفكر في الإستقالة من منصبه والقيام برحلات. وأراد أن يرغم الحظ السحري على أن يتيح له كسب الرهان في بيوت القمار الباريسية المفتوحة. لكن حدث ما لم يكن في الحسبان.

كان يوجد في موسكو رهط من اللاعبين الأثرياء برئاسة تشيكالينسكي الذائع الصيت الذي قضى عمره كله في لعب القمار وكسب في وقت ما الملايين من الفوز بالأوراق المالية والخسارة بأوراق البنكنوت. وقد أكسبته خبرة الأعوام الطويلة ثقة رفاقه، وأكسبته احترام الجمهور داره الرحبة وطاهيه الماهر والمودة واللطف والمرح. وكان قد قدم من بطرسبورغ. وتدفق الشباب عليه، متناسين حفلات البالو من أجل لعب الورق ومفضلين مغريات لعبة « فرعون » على مغازلة الحسان. وقد اقتاد ناروموف غيرمان إليه.

ومرا بالعديد من الصالات الفخمة المملوءة بالنادل المهذبين. وكان عدة جنرات ومستشارين سريين يمارسون لعبة « فيست »، بينما استلقى الشباب فوق الأرائك المزخرفة وهم يتناولون الأيس كريم ويدخنون الغلايين. وجلس في صالة الإستقبال وراء مائدة طويلة عشرون لاعباً، كما جلس رب البيت ووزع الورق. كان في حوالي الستين من العمر وذا مظهر وقور للغاية، وخطط الشيب الفضي شعر رأسه، وسحته ممتلئة ونضرة تتم عن طيبة القلب. وعيناه تتألقان وتتمان عن الحيوية المقترنة بالإبتسامة الدائمة. وقدم ناروموف غيرمان إليه. وصافحه تشيكالينسكي بمودة، ورجاه أن يرفع الكلفة وواصل توزيع ورق اللعب.

واستمرت دورة اللعب فترة طويلة. وألقي فوق المائدة ما يربو على

ثلاثين ورقة لعب. وكان تشيكالينسكي يتوقف بعد كل توزيع للورق من أجل إعطاء اللاعبين الفرصة لترتيب أمورهم وتسجيل الخسائر والإصغاء إلى مطالبهم بلطف، بينما كان يعدل بلطف أكبر الركن الذي ثناه بالصدفة أحد ما بمرفق يده. وفي نهاية المطاف اختتمت دورة اللعب. فرتب تشيكالينسكي ورق اللعب واستعد لتوزيعه مرة أخرى.

فقال غير مان ماداً يده من رواء سيد بدين وشارك في الرهان توأً: -
إسمحوا لي بطرح ورقة لعب.

وابتسم تشيكالينسكي وانحنى له صامتاً تعبيراً عن موافقته طائعاً. بينما ضحك ناروموف مهتماً غير مان بإنهاء «الصوم» عن اللعب الذي دام طويلاً وتمنى له بداية موفقة.

وقال غير مان: - ممكن! - وكتب بالطباشير مبلغ الرهان لورقته.

فسأل موزع الورق، وقد خزر عينيه: - كم المبلغ؟ عفواً أنا لا أراه بوضوح.

وأجاب غير مان: - أربعة وسبعون ألفاً.

إستدارت على الفور جميع الرؤوس وتطلعت جميع الأعين نحو غير مان. وفكر ناروموف: - هل أصابه مس من الجنون!

وقال تشيكالينسكي بإبتسامته المعهودة: - إسمح لي بالقول لك أن لعبتك قوية: فلم يطرح أحد هنا حتى الآن أكثر من مائتين وسبعين.

فعارضه غير مان قائلاً: - اذن؟ هل ستراهن على ورقتي أم لا؟

وانحنى تشيكالينسكي له موافقاً بالطاعة نفسها. وقال: أود فقط أن أبلغك بأنه رغم ثقة الرفاق فإنني لا أستطيع توزيع الورق إلا على نقود خالصة. من جهتي طبعاً تكفيني كلمتك، لكن أرجو وفقاً لنظام اللعب والمحاسبة أن تضع النقود على ورقة اللعب.

فأخرج غيرمان من جيبه ورق بنكنوت وأعطاهما إلى تشيكالينسكي الذي ألقى نظرة سريعة عليها ثم وضعها على ورقة لعب غيرمان.

وبدأ بتوزيع ورق اللعب. كانت ملقاة من جهة اليمين ورقة تسعة ومن جهة اليمين ورقة ثلاثة.

قال غيرمان: ورقة رابحة! - وأظهر ورقته للعب.

وسرت همسات في أوساط اللاعبين. وقطب تشيكالينسكي جيبه، لكن سرعان ما عادت الإبتسامة إلى سحنة وجهه.

فسأل غيرمان: هل تسمحون لي بالإستلام؟

تفضل.

وأخرج تشيكالينسكي من جيبه عدة أوراق بنكنوت ودفع الحساب على الفور. فأخذ غيرمان نقوده وابتعد عن الطاولة. ولم يستطع ناروموف أن يثوب إلى نفسه. وتجرع غيرمان كأس الليموناده وانصرف إلى بيته.

في مساء اليوم التالي جاء إلى تشيكالينسكي مرة أخرى. وكان رب البيت يوزع الورق. فدنا غيرمان من الطاولة، فأفسح اللاعبون المجال له في المكان فوراً. وانحنى له تشيكالينسكي بلطف.

وانتظر غيرمان حلول دورة اللعب الجديدة، فطرح ورقته للعب ووضع فوقها السبعة وأربعين ألفاً وكذلك ما كسبه بالأمس.

فأخذ تشيكالينسكي يوزع أوراق اللعب. وأضحت ورقة الولد من جهة اليمين، وورقة سبعة من جهة اليسار.

ففتح غيرمان ورقة السبعة.

وتأوه الجميع. وبدأ على تشيكالينسكي الإضطراب. لكنه حسب مبلغ أربع وتسعين ألفاً وسلمه إلى غيرمان. فأخذها غيرمان ببرود وانصرف لتوه.

وفي مساء اليوم التالي جاء غيرمان إلى طاولة اللعب مجدداً. وكان الجميع بانتظاره. وترك الجنرالات والمستشارون السريون لعبة «الفيسٽ» من أجل مشاهدة هذا اللعب غير العادي للغاية. وقفز الضباط من الأرائك، وتجمهر كافة الضباط في صالة الاستقبال. واحتشد الجميع حول غيرمان. علماً أن بقية اللاعبين لم يطحوا أوراق لعبهم وهم ينتظرون بفارغ الصبر بما سيختتم اللعب. ووقف غيرمان أمام الطاولة مستعداً لكي ينازل لوحده تشيكالينسكي الشاحب الوجه، ولو أنه يواصل الإبتسام. وفك كل واحد منهما دسته ورق اللعب. وخلط تشيكالينسكي الورق. بينما سحب غيرمان ورقته وغطاها بكومة من أوراق البنكنوت. وبدا كما لو أن هذا نزالاً فيه مبارزة. وساد الصمت المطبق في كل مكان.

وظف تشيكالينسكي يوزع ورق اللعب ويدها ترتجفان. فوضعت من جهة اليمين الورقة الملكة ومن جهة اليسار الورقة الجوكر.

فقال غيرمان وقد فتح ورقته - فاز الجوكر !

بينما قال تشيكالينسكي بلطف:- ملكتك صريعة.

إنفرض غيرمان: فعلاً كانت بيده ورقة ملكة البستوني بدلاً من الجوكر. ولم يصدق عينيه، ولم يفهم كيف حدث أن إلتبس عليه الأمر.

وبدأ له في تلك اللحظة أن الملكة البستوني قد غمزت عينها وابتسمت بسخرية. وذهل لهذا التشابه العجيب.

فصرخ برعب:- العجوز !

سحب تشيكالينسكي إليه الأوراق التي فاز بها. بينما وقف غيرمان بلا حراك. وعندما ابتعد من الطاولة، تصاعدت الغممة الشديدة. وقال اللاعبون:- لقد أجاد التحدي في اللعب! - وخلط تشيكالينسكي أوراق اللعب مجدداً: وتواصل اللعب في مسيرته المعتادة.

خاتمة

أصاب غير مان مس من الجنون. ويرقد في مستشفى ابو خوفو في العنبر رقم ١٧، ولا يرد على أية اسئلة ويدمدم بسرعة غير عادية:»
ثلاثة، سبعة، جوكر ! ثلاثة، سبعة، ملكة!...».

لقد تزوجت ليزافيتا ايفانوفنا شاباً طيباً جداً، يعمل في مكان ما ولديه ثروة كبيرة: فهو ابن مدير الأعمال السابق للكونتيسة العجوز. وترعى ليزافيتا ايفانوفنا قرية فقيرة.

أما تو مسكي فقد ترقى إلى رتبة نقيب وتزوج الأميرة بولينا.

تاريخ قرية غوريوخينو

إذا اعطاني الرب القراء فلربما يمكن أن يتولد لديهم الفضول لمعرفة كيف قررت كتابة تاريخ قرية غوريوخينو. ويتعين علي لهذا الغرض إيراد بعض التفاصيل الأولية.

إنني ولدت من والدين شريفيين ونبيلين بقرية غوريوخينو في ١ ابريل عام ١٨٠١، وتلقيت التعليم الابتدائي على يد القندلفت في كنيستنا. وأنا مدين إلى هذا الرجل الوقور بتنمية الرغبة لدي لاحقاً في المطالعة وعموماً في الدراسة الأدبية. وبالرغم من أن نجاحاتي كانت بطيئة، لكنها مترعة بالثقة، فحين بلغت العاشرة من العمر كنت أعرف تقريباً كل ما بقني في ذاكرتي الآن. علماً إنها ضعيفة أصلاً، ولم تسمح لي في إرهاق نفسي أكثر مما ينبغي، بسبب ضعف صحتي.

وكانت تسمية الأديب دائماً منشودة جداً لدي. أما والداي فهما من الناس المحترمين لكنهما من البسطاء وتلقيا التربية على الطراز القديم، ولم يطالعا أي شيء أبداً، ولذا لم توجد في البيت كله أية كتب باستثناء كتاب «الألفباء» الذي تم شراؤه من أجلي، وكذلك كراس تعليم كتابة الرسائل الحديث. وكانت قراءة كراس تعليم كتابة الرسائل التمرين المحبب لدي خلال فترة طويلة. وقد حفظته عن ظهر قلب، وبالرغم من كل شيء كنت أجد فيه في كل يوم بدائع جديدة لم ألاحظها سابقاً. وكنت أعتبر مؤلفه كورغانوف رجلاً عظيماً بعد

الجنرال بليميانيكوف الذي كان والدي ياوره في زمان ما. وقد سألت الجميع عن كورغانوف لكن، وبالأسف، لم يستطع أي أحد إرضاء فضولي، ولم يعرفه أي أحد شخصياً، وكانوا يجيبون عن كافة أسئلتني بالقول فقط أن كورغانوف مؤلف كراس تعليم كتابة الرسائل، وهو ما كنت أعرفه بيقين أصلاً سابقاً. وقد أحاطت بشخصه عتمة المجهول وكأنه أحد أنصاف الأرباب القدماء. وأحياناً كنت حتى أشك بوجوده. وبدأت لي مفتعلة حتى الخرافة الفارغة عنه التي تنتظر نيور^(٥٤) جديداً لفك رموزها. ومع ذلك كان مع هذا يلاحق خيالي، وكنت أصبو إلى أن أكسب هذه الشخصية الغامضة صورة ما، وفي نهاية المطاف قررت إنه يشبه محلف محكمة الإقليم كوريوتشكين، وهو عجوز صغير الحجم ذو أنف أحمر وعينين برأقتين.

في عام ١٨١٢ نقلت إلى موسكو وألحقوني للتعليم في بنسيون كارل ايفانوفيتش ميئر - حيث أمضيت هناك فترة لا تربو على ثلاثة اشهر، وبعدها صرفونا إلى أهالينا بسبب زحف العدو - فرجعت إلى القرية. وبعد طرد الغزاة من أبناء مختلف الشعوب من بلادنا أرادوا إعادتي إلى موسكو مجدداً لرؤية فيما إذا رجع كارل ايفانوفيتش إلى منباه السابق، وبعكس الحال قد يتم إلحاقني بمدرسة أخرى. لكنني توصلت إلى أمي أن تبقيني في القرية، لأن صحتي لم تكن تسمح لي بالنهوض من الفراش في الساعة السابعة صباحاً كما هي العادة في جميع البنسيونات. وهكذا مضت الأيام حتى بلغت سن السادسة عشرة، وبقيت في مستوى تعليمي الابتدائي، وكنت أمارس لعبة ضرب الأوتاد المصفوفة (لابتا) مع أقراني، وهو العلم الوحيد الذي حصلت عليه بقدر كاف منذ أيام وجودي في البنسيون.

٥٤. بارتولد نيور مؤرخ ألماني شهر مختص بدراسة التاريخ القديم (المترجم).

وفي هذه الفترة تم إلحاقني في فوج المشاة كمتدرب (يونكر) وبقيت فيه حتى عام ١٨ الماضي. وقد ترك وجودي في الفوج انطباعات طيبة قليلة لدي، باستثناء منحي رتبة ضابط وكسب مبلغ ٢٤٥ روبلا في الوقت الذي لم يتبق في جيبي سوى ٦ هريفينات. وأرغمتمني وفاة والدي العزيزين على تقديم استقالتي والمجيء إلى ضيعتي.

كانت هذه الفترة من حياتي ذات أهمية بالنسبة لي، لذا فأني أنوي الإسهاب في الحديث عنها، راجياً الاعتذار مسبقاً من القارئ الودود، إذا ما كنت أسئ استغلال تسامحه في الإصغاء لي.

كان اليوم خريفاً وغائماً. وعندما وصلت إلى المحطة التي وجب علي التوجه منها إلى غوريوخينو، إستأجرت خيولاً من الأهالي وانطلقت في الطريق الترابي. وبالرغم من طبعي الهادئ فإنني كنت أنتظر بصبر نافد أن أرى مجدداً الأماكن التي أمضيت فيها خيرة أعوامي، وقد تسلطت هذه الرغبة علي بشدة، مما جعلني في كل لحظة أطلب من حوذي عربي الإسراع، وطفقت أعده تارة بالفودكا، وتارة أخرى أهده بالضرب، وكنت أجد مريحاً أكثر بالنسبة لي أن اخزه بظهره من اخراج حافظة النقود وفتحها أمامه، واعترف بأنني ضربته ثلاث مرات، وهو ما لم افعله من قبل أبداً، لأنني كنت أكن المسودة من دون أن أعرف السبب إلى فئة الحوذيين. وانطلق الحوذي بعربته الترويكا (عربة تجرها ثلاثة خيول - المترجم)، لكن ترائي لي أنه على عادة الحوذيين يشد الأغنة، بالرغم من حثه الخيول والتلويح بالسوط. وفي نهاية المطاف لاح لناظري حرج غوريوخينو، وبعد ١٠ دقائق ولجت فناء الضيعة. وشعرت بوجيف قلبي الشديد - وأخذت أتطلع حوالي بقلق لا يوصف. فأنا لم أر غوريوخينو خلال فترة ثمانية أعوام. وقد نمت أشجار البتولا التي غرست عند السياج، وأصبحت

الآن فارعة ومتفرعة الأغصان. أما الباحة التي كانت تزينها ثلاثة أصص أزهار مستقيمة ويمر بينها طريق رملي عريض فقد تحولت الآن إلى روضة لم تحصد أعشابها وترعى فيها الأبقار. توقفت عربتي أمام المدخل الأمامي للبيت. وتوجه خادمي لفتح الباب، لكنه كان مغلقاً بلوائح خشبية مسمرة فيه، ولو أن درفات النوافذ كانت مفتوحة مما يعني أن البيت كان مسكوناً. وخرجت امرأة من كوخ الخدم وسألت ماذا أريد. وبعد أن عرفت أن سيد الضيعة قد جاء هرعت إلى الكوخ مجدداً، وسرعان ما أحاط بي جميع الخدم. وقد تأثرت بالغ التأثير لرؤية الوجوه المعروفة وغير المعروفة لدي - وتبادلت معهم جميعاً القبل بمودة: فقد أصبح أقراني السابقين من الصبيان رجالاً، أما الفتيات الصغيرات اللواتي كن يجلسن على الأرض في زمان ما بانتظار من يكلفهن بأمر ما، فقد أصبحن نساء متزوجات. وذرف الرجال الدموع. وقلت للنساء بلا أية كلفة: «لكم أصبحتن عجائز» - بينما رددن: «لكم أصبحت قبيحا يا باتيوشكا». واقتادوني إلى الجناح الخلفي فخرجت مرضعتي لإستقبالي واحتضنتني في بكاء وعويل، كما استقبل اوديسيوس^(٥٥) بعد رحلات العذاب. وانطلقوا لإعداد الحمام. بينما استدعي الطباخ، الذي بقي منذ فترة طويلة بلا عمل وأطلق لحيته، من أجل أن يعد لي وجبة الغداء أو العشاء - فقد زحفت الظلمة. وجرى على الفور تنظيف الغرف من أجلي والتي سكنت فيها المرضعة مع الفتيات خادمت المرحومة أمي، ووجدت نفسي في بيت أبي المتواضع الهادئ، وغفوت في غرفتي نفسها التي ولدت فيها قبل ٢٣ عاماً خلت.

أمضيت فترة ثلاثة أسابيع في أداء مختلف الأعمال - فتعاملت

٥٥. بطل ملحمة هوميروس اليونانية - المترجم.

مع ممثلي الأهالي ورؤساء الدوائر والموظفين في المحافظة. وأخيراً استلمت الميراث وأصبحت مالك ضيعة أبي. واستسلمت إلى الدعة والطمأنينة، لكن سرعان ما عذبني الضجر بسبب العطالة. ولم أتعرف بعد على جاري الطيب والمحترم. علماً أن مشاغل إدارة الضيعة كانت غريبة بالنسبة لي. وكانت أحاديث مرضعتي التي ائتمنتها على المفاتيح وشؤون الإدارة تقتصر على رواية ١٥ فكاها بيتية، اتسمت بالطرافة البالغة بالنسبة لي، لكنها كانت ترويه دائماً بالصيغة نفسها، ولذا أصبحت بالنسبة لي بمثابة كراس آخر لتعليم كتابة الرسائل الحديث، الذي كنت أعرف أين اجد الكلمة المطلوبة في أي سطر فيه. وقد وجدت الكراس الأصلي العتيدي في وضع بائس في حجرة المخزن، وسط شتى أنواع سقط المتاع. فأخرجته إلى النور وكنت أود قرائته لكن المؤلف كورغانوف فقد روعته السابقة، فطالعه مرة أخرى ثم لم أفتحه بعد ذلك.

ولا بد أنه طرأت لي في هذه المفارقات فكرة أن أجرب نفسي بتأليف شيء ما؟ والقارئ الكريم يعرف بأنتي نشأت في اجواء الفاقة، ولم تسنح لي الفرصة للحصول بصورة ذاتية على ما ضاع مرة، فقد كنت حتى سن السادسة عشرة ألعب مع صبيان الضيعة، وبعد ذلك لدى الانتقال من محافظة إلى أخرى، ومن شقة إلى أخرى، كنت ألعب على طالوات بليارد مهترنة وأمضي سائراً بمشية عسكرية في الأوحال.

زد على ذلك فقد بدا لي أيامذاك شيئاً صعب التحقيق أن أصبح مؤلفاً، وشيئاً بعيد المنال بالنسبة لنا نحن غير المتورين، لدرجة أن التفكير في إمساك القلم كانت تخيفني في البداية. فهل يمكن أن أتجرأ على الأمل في أن أصبح في وقت ما في عداد الكتاب والمؤلفين، في

الوقت الذي لم تتحقق رغبتني القوية في أن ألتقي أحداً منهم؟ وهذا يذكرني بحادث أنوي روايته لإثبات رغبتني المشبوبة دوماً في التعامل مع الأدب الوطني.

فقد حدث في عام ١٨٢٠ حين كنت عسكرياً متدرباً (يونكر) أن أرسلت بمهمة إلى بطرسبورغ. وعشت هناك فترة قصيرة، وبالرغم من أنه لم يكن لدي أي أحد من المعارف فيها، فقد أمضيت الوقت بمرح بالغ: في كل يوم كنت أرتاد المسرح بهدوء، وأجلس في الكاليري في الطابق الرابع. وعرفت جميع الممثلين بالإسم ووقعت بغرام التي كانت تؤدي بفن رفيع في أحد أيام الأحد دور أماليا في دراما «الحقد على البشر والغفران». وفي الصباح حين عدت من دائرة الأركان العامة ولجت كعادتي دكان بيع الحلويات وأخذت أطلع المجلات الأدبية وأنا أتناول قدح الشوكولاتة. وبينما كنت جالساً وغارقاً في مطالعة مقالة نقدية بقلم المدعو «بلاغو ناميريني» دنا مني شخص يرتدي معطفاً بلون أصفر ضارب إلى الخضرة وسحب من تحت كراستي ورقة من «الصحيفة الهامبورغية». وكنت مشغولاً في القراءة إلى درجة أنني لم أرفع عيني نحوه. وطلب الشخص المجهول لنفسه طبق بفتيك وجلس قبالي. بينما واصلت القراءة ولم أعر له انتباهاً، أما هو فقد انهمك في تناول فطوره، وشم الصبي غاضباً لتهاونه في الخدمة، كما شرب نصف قينة نبيذ ثم خرج. وكان هناك شابان يتناولان الفطور في المكان. وقال أحدهما للآخر: «أتعرف من كان هذا؟.. إنه المؤلف (ب)». وهتفت بلا إرادة مني: «مؤلف». فتركت الصحيفة من دون أن أتم قرائتها والقدح الذي لم أكمل شربه، وعاجلت في دفع ثمن الفاتورة، وهرولت إلى الشارع من دون انتظار استلام باقي النقود. وتطلعت

في كافة الأنحاء ورأيت بعيدا المعطف الأصفر الضارب إلى الخضرة وانطلقت نحوه في شارع نيفسكي ولكن فقط بدون هرولة. وبعد أن مشيت عدة خطوات شعرت بغتة أن أحداً ما يوقفني، - فالتفت ورائي ووجدت ضابطاً من الحرس الذي قال أنه كان يجب علي ألا أدفعه من الرصيف، والأجدر بي أن أتوقف واعتدل في القامة تحية له. وبعد هذا التوبيخ صرت أكثر حذراً، ولسوء حظي كنت في كل لحظة أقابل ضباطاً، فأتوقف أمامهم، أما المؤلف فكان يتعد ماضياً إلى الأمام. ولم يكن معطفي العسكري كجندي يسبب لي سابقاً مثل هذا الضيق أبداً، كما لم تبدو لي كتابيات الرتب العسكرية أبداً شيئاً مرغوباً فيه بهذا القدر. وأخيراً لحقت بالمعطف الأصفر المائل للإخضراراً عند جسر انيتشكين. وقلت وأنا ارفع يدي على صدغي: «إسمحو لي بالسؤال هل أنتم السيد (ب) التي سعدت بقراءة مقالاته الرائعة في صحيفة «سوريفنافاتل بروسفيشينييه»؟». فأجابني: «كلا البتة، أنا لست مؤلفاً بل كاتب عدل، إلا أنني أعرف السيد جدا، والتقيته قبل ربع ساعة عند جسر الشرطة». وهكذا كلفني احترامي للأدب الروسي ٣٠ كوبيكا من باقي المبلغ، والتوبيخ في مكان الخدمة العسكرية، وكدت أدخل السجن - وكل هذا كان عبثاً.

وبالرغم من جميع اعتراضات عقلي، فإن الفكرة الجسورة في أن أصبح كاتباً كانت تدور في رأسي في كل لحظة. وفي الختام، بعد أن عجزت عن مقاومة إرادة الطبيعة أكثر، قمت بخياطة دفتر سميك وعقدت النية الراسخة على ملئ صفحاته مهما كان الأمر. وقد تعاملت مع جميع أصناف الشعر (حيث أنني لم أفكر بعد بكتابة النثر الطبع) وقيمتها، وعقدت العزم بثبات على نظم قصيدة

ملحمية مستوحاة من تاريخ وطني. ولم أبحث طويلاً عن البطل.
ووقع اختياري على روريك^(٥٦) - وانهمكت في العمل.

لقد اكتسبت مهارة ما في نظم الشعر لدى استنساخ الدفاتر التي
كان يتداولها ضباطنا وهي: «الجار الخطر» و«نقد فيولفار موسكو»
و«عند برك بريسنيا» وهلمجرا. وبالرغم من أن نظم قصيدتي جرى
ببطئ فإنني تركتها عند المقطع الثالث. وفكرت بأن النوع الملحمي لا
يناسبني، وبدأت بكتابة مأساة روريك. بيد أن كتابة المأساة تعثرت.
وجربت أن أحولها إلى أنشودة غنائية (بالادا)، لكن قلبي عجز عن
تطويعها، فبدأت وانتهيت بنجاح نظم تعليق على بورترية روريك.

وبالرغم من أن تعليقي لم يكن يستحق الإهتمام البتة، بالأخص
لكونه أول عمل لشاعر شاب، لكنني احسست بأنني لم أولد كشاعر،
ولذا فأنني اكتفيت بالتجربة الأولى هذه. بيد أن محاولاتي الإبداعية قد
ربطتني بشدة بالأعمال الأدبية، ولهذا لم أستطع التخلي عن الكراس
والمحبرة. وأردت الإنصراف إلى النشر. وفي الحالة الأولى، ونظراً لعدم
رغبتني في الدراسة الإبتدائية، ووضع الخطة، وربط الأجزاء وهلمجرا،
فقد نويت كتابة أفكار متفرقة، بلا رابطة، وبلا أي انتظام، وبالشكل
الذي ترائي لي. ولسوء الحظ لم تخطر الأفكار في رأسي، وواصلت
التفكير خلال يومين كاملين في كتابة الملاحظة التالية فقط:

إن الشخص الذي لا يطيع قوانين العقل ويعتاد على النقياد إلى
النزوات والشهوات، غالباً ما يضل الدرب ويعرض نفسه إلى التوبة
متأخراً.

٥٦. امير نوفغورود الاسكندنافي الاصل، ويعتبر أحد مؤسسي الدولة الروسية -
المترجم

طبعاً إن هذه الفكرة صحيحة لكنها ليست جديدة. فتركت
الفكرة وانهمكت في كتابة رواية قصيرة، لكن بما أنني لم أقدر لأنه
لم يكن من عاداتي ان أروي الحدث المختلق، لذا وقع اختياري على
النكات الممتازة التي سمعتها في وقت ما من مختلف الأشخاص،
وسعت إلى تزويق الحقيقة بحيوية السرد، وأحياناً «بالزهور» المنبثقة
في خيالي نفسي. ولدى كتابة هذه الروايات بدأت شيئاً فشيئاً في
صياغة أسلوب و تعلمت كيفية التعبير عن نفسي بشكل صحيح وممتع
وبحرية. لكن سرعان ما نضب احتياطي وأخذت أبحث مجدداً عن
مادة لنشاطي الأدبي.

لقد كانت تشغل خاطري منذ وقت بعيد الفكرة حول التخلي
عن النكات المبتذلة والمشوهة والتفرغ إلى تصوير الأحداث الواقعية
والكبرى. وبدأ لي أن هدفي في أن أصبح قاضياً ومراقباً ونبياً للعصور
والشعوب يعتبر أسمى درجة يصل إليها الكاتب. لكن ما هي القصة
التي أستطيع كتابتها بتعليمي البائس، وحيث لم أجد توجيهات التحذير
من جهابذة العلم والرجال النزيهين؟ وأي صنف من التاريخ لم يتناولوه
بالدرس والتمحيص؟ وهل أستطيع كتابة التاريخ العالمي - لكن يوجد
فعلاً العمل الخالد للأب ميلوت؟ وهل أتناول تاريخ وطني؟ لكن ماذا
سأقول بعد المؤرخين تاتيشيف وبولتين وغوليوكوف؟ وهل بوسعي
تقليب ونبش الأسفار وبلوغ الفكرة المنشودة باللغة البائسة، بينما
عجزت عن تعلم الأرقام السلافية؟ وفكرت بكتابة تاريخ أقل حجماً
مثل تاريخ مدينتنا الريفية، لكن انبجست أمامي على التوقعات كثيرة
لا يمكنني اجتيازها! كالسفر إلى المدينة والقيام بزيارات إلى المحافظ
والأسقف وطلب السماح بالإطلاع على الأرشيف ومستودعات
الأديرة وغير ذلك. إلا أن تاريخ مدينتنا وكانت قضاءً ستكون مريحة

أكثر بالنسبة لي، بيد أنها لم تكن تثير اهتمام الفيلسوف ولا البراغماتي ولا توفر غذاء دسماً لممارسة البلاغة اللفظية: لقد تم تغيير إسم إلى مدينة في عام ١٧، والحدث الهام الوحيد فيها والباقي في الأسفار التاريخية هو الحريق الفظيع الذي حدث قبل عشرة أعوام وإلتهم لهيبه السوق ومباني المرافق العامة.

ووقع بالصدفة حادث بدد حيرتي. إذ أن الغسالة التي كانت تنشر الغسيل في علية البيت عثرت على سلة قديمة مملوءة بالجدادات والزبالة والكتب. وكان البيت كله يعرف ولعي بالمطالعة. ولحظتئذ جاءت مدبرة البيت، حين كنت عاكفاً على دفثري، وأنا أقضم الريشة وأفكر بخبرة الوعاظ الريفيين، وجرجرت السلة مسرورة وصاحت بابتهاج: «كتب! كتب!» - فكررت «كتب!» واندفعت فرحاً نحو السلة. ورأيت فعلاً كومة من الكتب المجلدة بورق أخضر وأزرق. وكانت مجموعة من التقاويم القديمة. وقد برد هذا الإكتشاف حماسي وبهجتي، ومع ذلك كنت مسروراً باللقية التي وقعت بالصدفة، فهي مع ذلك كتب، وأكرمت بسخاء الغسالة على همتها ونقدتها قطعة نقود فضية من فئة نصف روبل. وحينما بقيت وحيداً أخذت اتفحص تقاويمي، وسرعان ما جذبت اهتمامي الشديد بها. وكانت تشكل سلسلة متصلة من عام ١٧٤٤ إلى عام ١٧٩٩، أي بالضبط ٥٥ عاماً. ودونت على الورق الأزرق الذي لفت به التقاويم كتابات قديمة. وعندما ألقيت نظرة على هذه السطور دهشت حين رأيت أنها تتضمن ليس فقط الملاحظات حول حالة الطقس والحسابات المنزلية بل كذلك الأخبار التاريخية القصيرة المتعلقة بقرية غوريو خينو. وشرعت فوراً بتفحص المدونات الثمينة وسرعان ما وجدت أنها تمثل قصة كاملة لقريتي خلال نصف قرن كامل تقريباً بترتيب تاريخي

صارم. زد على ذلك أنها تضمنت احتياطياً لا ينضب من المعلومات الإقتصادية والحسابية ومدونات حول حالة الطقس وغير ذلك من الملاحظات العلمية الأخرى. ومنذ ذلك الحين شغلت بالي حصراً دراسة هذه الكتابات، لأنني وجدت فيها الفرصة لكي استنبط منها سرداً روائياً يتسم بالتنسيق والطرافة والموعظة. وبعد اطلاعي على هذه اللقيات الثمينة جداً طفت أبحث عن مصادر جديدة لتاريخ قرية غوريوخينو. وسرعان ما بهت من وفرتها. وأمضيت فترة ستة أشهر كاملة في الدراسة الأولية، وفي نهاية الأمر شرعت بالعمل المنشود الواجب إنجازُه منذ وقت بعيد، واتممت بمعونة الرب هذا العمل في ٣ نوفمبر عام ١٨٢٧.

والآن، أفعل كما فعل مؤرخ مثلي، لا يحضرنى إسمه، لدى اختتام اجتراح مآثرته، فأضع الريشة جانباً وأمضي بحزن إلى حديقتي حيث استغرق في التفكير في ما أنجزته. واعتقد أنني بكتابتي تاريخ غوريوخينو قد أدت واجبي، ولم أعد بحاجة إلى العالم، انني أدت واجبي وحان الحين لكي أخلد للنوم.

أورد هنا قائمة بالمصادر التي استخدمتها في كتابة تاريخ غوريوخينو:

مجموعة التقاويم القديمة. ٥٤ جزءاً. إستنسخت الأجزاء ال ٢٠ الأولى منها بخط قديم الأسلوب وبعلامات اختصار. وسجل هذه المخطوطة جدي الأكبر اندريه ستيانوفيتش بيلكين. علماً أنها تتميز بالوضوح والإيجاز، وعلى سبيل المثال: ٤ مايو. ثلوج. جلد تريشكا بسبب وقاحتها. ٦ - البقرة السمراء نفقت. جلد سينكا بسبب العرودة وشرب الخمر. ٨ - الجوصاح. ثلج عليه آثار الحيوانات. فنصت ثلاثة

ارانب، وهلمجرا، بدون أي تفكير... أما الأجزاء ال ٣٥ الباقية فقد دوت بخطوط متباينة، وأغلبها ما يسمى بخط أصحاب الدكاكين مع علامات اختصار أو بدونها. وعموماً هي كثيرة وغير مترابطة وبدون الإلتزام بقواعد الخط. ولوحظت في بعض الأماكن يد امرأة. وفي هذا القسم ترد مدونات جدي ايفان اندريفتش بيلكين وجدتي، وكذلك زوجته يفبراكسيا الكسييفنا، وكذلك مدونات وكيل إدارة أعمال الضيعة غاربوفيتسكي.

مخطوطة شماس غوريوخينو. وعثرت على هذه المخطوطة المثيرة للإهتمام لدى قسيسنا زوج كاتب المدونة. وقد مزقت الصفحات الأولى واستخدمها أولاد القسيس في صنع ما يسمى بالطيارات الورقية. وسقطت واحدة منها في وسط فناء بيتي. فرفعتها وأردت إعادتها إلى الأطفال، لكنني لاحظت ان عليها كتابات. ورأيت منذ مطالعة السطور الأولى أن الطيارة الورقية صنعت من أوراق المخطوطة، ولحسن الحظ لحقت في انقاذ البقية الباقية. وتتميز هذه المخطوطة التي حصلت عليها مقابل ربع مكيال من الشوفان، بكونها عميقة التفكير وذات تزويق لفظي غير عادي.

الأحاديث المسموعة - انني لم أهمل أية معلومات. وأنا مدين على الأخص إلى اغرافينا تريفونوفاو الدة أفدي عمدة القرية التي كانت كما يزعم البعض عشيقة الوكيل غاربوفيتسكي.

الحكايات الريفيزسكية(وثائق إحصاء النفوس) المتضمنة ملاحظات العمداء السابقين(دفاتر الحسابات والمصروفات) بشأن أخلاقيات الفلاحين وأحوالهم.

تبلغ مساحة الإقليم الذي يحمل إسم عاصمته غوريوخينو ما لا يزيد عن ٢٤٠ ديسياتينا^(٥٧) من مساحة الكرة الأرضية. ويصل عدد نفوسه إلى ٦٣ نسمة. وتحاذيه من الشمال القرستان ديريوخوفو وبيركوخوفو، وأهاليهما فقراء ونحيلون وقصير والقامة، أما الأسياد المتكبرون فهم مشغولون بممارسة أعمال مقحامة هي صيد الأرانب. ومن الجنوب يفصلها نهر سيفكا عن ممتلكات القرشايين من زارعي الحبوب الأحرار - وهم جيران يسيبون المشاكل، وذاع صيتهم بكون أخلاقهم تنسم بالقسوة الفظة. وتحاذيها من الغرب حقول زاخار المزهرة، التي تزدهر تحت سلطة أصحاب أطيان حكماء ومتورين. وتسدح من جهة الشرق أماكن مقفرة موحشة، والمستنقعات الوعرة، حيث تنبت ثمار عنب الدب فقط، وحيث يسمع فقط نقيق الضفادع الريب، و تقول الخرافات أنه يقطن هناك شيطان ما.

ملاحظة. تسمى هذه المستنقعات بالشيطنانية. وزعم أن راعية شبه مجنونة كانت ترعى الخنازير في مكان منعزل قريب منه. فحملت ولم تستطع أبداً تفسير هذه الواقعة. واتهم الناس شيطان المستنقعات بارتكاب المعصية، بيد أن هذه الحكاية لا تليق باهتمام المؤرخ، وبعد نيور لا يغفر لأحد تصديق ذلك.

إشتهرت غوريوخينو منذ قديم الزمان بخصوصية أرضها وبمناخها الرائق الطيب. وينمو في حقولها الجودار والشوفان والشعير والحنطة السوداء. ويزود حرج أشجار البتولا وغابة اشجار الشوح أهالي القرية بالأخشاب والأغصان المتساقطة من أجل بناء وتدفئة البيوت. وثمة وفرة في الجوز وثمار عنب الدب وعنب البقر والآس الأسود. وينمو

٥٧. ديسياتينا تعادل ١,٠٩ هكتار - المترجم.

الفطر بكميات غير عادية، ويقدم بعد قليه مع السميتانا كطبق لذيق ولو أنه غير صحي. والبركة مليئة بأسماك الشبوط، بينما توجد في النهر أسماك الكراكي والقد.

إن غالبية أهالي غوريوخينو يتسمون بكونهم ربعة وصلبي العود وشديدي البئس، وعيونهم رمادية، وشعرهم أصهب أو أحمر. أما النساء فيتميزن بأنوفهن المنتصبة إلى الأعلى قليلاً، وبالوجنات المنتفخة وبالبدانة. ملاحظة: المرأة بدينة، غالباً ما يرد هذا التعبير في ملاحظات العمدا المدونة في وثائق إحصاء النفوس (الحكايات الريفيزسكية). والرجال ذو سلوك طيب ومحبون للعمل (بالأخص في حقولهم) وجسورون ولهم روح مقدامة: ينطلق كثيرون منها على إنفراد لصيد الدببة وذاع صيتهم في حلبات المصارعة. وعموماً إنهم يتلذذون كل التلذذ بمقارعة الخمر. وتقاسم النساء الرجال بالإضافة إلى أعمالهن المنزلية قسماً كبيراً من أعمالهم. علماً أنهن لا يتخلفن عنهم في الجرأة، وقلما يخشين بلوغ سن الشيخوخة. إنهن الحرس القوي للمجتمع، الذي يسهر بيقظة في فناء ضيعة المالك، وتطلق عليهن تسمية الراحات (نسبة إلى كلمة الرمح). والواجب الرئيسي للراحات هو الدق في أكثر الأوقات بالحجر على لوح من الحديد الزهر وبهذا يرهبن قوى الشر. إنهن عفيفات وحسنات بالقدر ذاته، ويردن على التحرش بحزم وبفصاحة.

يمارس أهالي غوريوخينو منذ وقت بعيد وبوفرة تجارة الأياف اللبية والسلال والأحذية المصنوعة من الجبال والحصر. ويساعد على ذلك نهر سيفكا الذي يمحرون عبابه في الزوارق بالمكاكيك، كما كان يفعل الإسكندنافيون القدامى، وفي فصول السنة الأخرى يخوضون النهر بعد رفع أطراف سراويلهم.

أما لغة غوريو خينو فهي إحدى لهجات اللغة السلافية لكنها بعيدة عنه كالروسية. إنها مترعة بالمجازيات والمحذوفات، كما أن بعض الحروف قد أُلغيت تماماً أو تم تحريفها إلى أخرى. ولكن ساكن روسيا الكبرى يفهم بيسر كلام ساكن غوريو خينو، والعكس بالعكس.

كان الرجال يتزوجون في سن ١٣ عاماً والنساء في سن ٢٠ عاماً. وكانت الزوجات يضربن أزواجهن في غضون أربعة أو خمسة أعوام الأولى من الزواج. وبعد ذلك يبدأ الأزواج بضرب زوجاتهم. وبهذا تتوفر لدى كلا الجنسين الفرصة للتمتع بالسلطة، ويتم تحقيق التوازن.

كانت مراسم وطقوس الجنائز تجري كالآتي: ينقل جثمان الفقيد في يوم وفاته إلى المقبرة بغية ألا يشغل مكاناً زائداً في البيت بلا فائدة. وكان يحدث أن يعطس الفقيد أو يتثائب في اللحظة نفسها التي كان ينقل فيها التابوت إلى خارج سياج القرية. وتستغرق النساء في البكاء على فقدان أزواجهن، فيطلقن العويل وترديد: «يا نور عيني يا رجلي المقدم! لمن تتركني؟ ومن سيخلفك في ذاكرتي؟». وبعد العودة من المقبرة تبدأ مآدبة العزاء تكرماً للفقيد، ويوم لم يقصف الأقارب والأصدقاء خلال يومين أو ثلاثة وحتى أسبوع، وفقاً لجدتهم وتمسكهم بذكراه. وقد بقيت هذه الطقوس والمراسم حتى أيامنا هذه.

كانت أزياء أبناء غوريو خينو تتألف من رداء يلبس فوق سروال، تعبيراً عن الانتماء إلى الأقوام السلافية. وفي الشتاء كانوا يرتدون معاطف من فرو الضأن، بيد أنهم في غالب الأحيان ولغرض التجميل وليس للحاجة فعلاً كانوا عادة يضعون المعطف على كتف واحدة ثم يلقونه لدى القيام بأي عمل يتطلب الحركة.

ومنذ القدم كانت العلوم والفنون وصنوف الشعر مزدهرة جداً في غوريو خينو. وكانت تنشر فيها المعارف دائماً إلى جانب عمل

القسيس والشماسين الصغار. ويشار في المخطوطة إلى تيرنتيا من المجلس المحلي الذي عاش في حوالي عام ١٧٦٧ وكان يجيد الكتابة باليد اليمنى وكذلك باليد اليسرى. وذاع صيت هذا الرجل النابغة في المنطقة لكتابته شتى أصناف الرسائل والعرائض والهويات الشخصية وغيرها. وقد عانى أكثر من مرة بسبب مهارته الفنية ومثابرتة في الخدمة والمشاركة في مختلف الأحداث المشهودة، فتوفي حين بلغ من العمر أزدله ، في الوقت الذي بدأ فيه بتعلم الكتابة بالقدم اليمنى، لكن أسلوب الكتابة باليدين بات معروفاً جداً. وقد مارس، كما سيرى القارئ لاحقاً، دوراً هاماً في تاريخ غوريو خينو.

كانت الموسيقى دائماً من الفنون المحبوبة لدى أهالي غوريو خينو. فآلات البالايكا ومزمار القربة التي تمتع القلب بأنغامها، لا تزال حتى اليوم تنطب الأسماع في البيوت، وبالأخص في المبنى العمومي القديم المزين بشجرة حور وبصورة نسر ذي رأسين.

أما الشعر فقد ازدهر في غوريو خينو القديمة في زمن من الأزمان. وبقيت في ذاكرة الأحفاد أشعار ارخيب - ليسي.

إنها من حيث الرقة لا تقل أهمية عن أناشيد الرعاة للشاعر الشهير فرجيل^(٥٨)، ومن حيث جمال الصورة الخيالية تتفوق كثيراً على الأناشيد الريفية للسيد سوماروكوف. وبالرغم من أنها تتخلف عن أعمال شعرائنا المحدثين من حيث التزييق الكلامي فإنها تعادلها من حيث الابتكار والظرافة.

ونورد على سبيل المثال هذه القصيدة الساخرة:

٥٨. فرجيل شاعر روماني قديم - المترجم.

يمضي الى بيت النبيل مالك الأطيان

مختار القرية انطون

حاملاً في عبه حسابات الأثمان

فيتطلع النبيل فيه بامعان

ولم يفهم شيئاً مما تراه العيون وراء الأجفان

آه، أيها المختار انطون

لقد نهبت في كل مكان أصحاب الأطيان

وحكمت على القرية بالادقاع والهوان

بينما أنت لزوجتك ندي البنان.

بعد أن اطلعت القارئ على الوضع الإثنوغرافي والإحصائي

لغوريوخينو وأخلاق وعادات أهلها. دعنا الآن نبدأ الرواية نفسها.

أزمان خيالية

العمدة تريفون

لقد تغيرت صورة الإدارة في غوريوخينو مرات عديدة.

فتعاقبت فيها سلطة العمدة الذين ينتخبهم الناس، والوكلاء في إدارة

الضياح الذين يعينهم أصحاب الأطيان، وأخيراً كانت تحت إشراف

أصحاب الأطيان مباشرة. وسأتابع في سياق سردي منافع وأضرار

هذه الصور المتباينة.

ولا يعرف كيف تم تأسيس غوريوخينو وسكانها الأوائل. وترد

في الأسفار روايات غامضة مفادها أن غوريوخيتو كانت قرية غنية

وواسعة وأن جميع سكانها كانوا أثرياء ذوي نعمة، وكانت جباية الضرائب الزراعية تتم مرة واحدة في العام وترسل إلى جهة مجهولة في عدة عربات. وفي ذلك الزمان كانت كل حاجة تشتري بثمان زهيد، بينما كانت السلع تباع بثمان غال. ولم يوجد وكلاء لإدارة الضياع، ولم يلحق العمدة الأذى بأي أحد، ولم يعمل الأهالي كثيراً، وعاشوا في بحبوحة. وكان الرعاة يقصون صوف القطيع لابسين الجزم. لكن يجب علينا ألا ننقاد إلى الأوهام التي يولدها جمال هذه الصورة. إذ إن جميع الشعوب تقع تحت تأثير الفكرة حول العصر الذهبي، والبرهنة على أن الناس لا يرضون أبداً عن الزمن الحاضر، وحسب الخبرة فهناك حين لا يوجد أمل كبير في المستقبل، يتم تزيين الماضي الذي لا عودة له بأزهار تنبت من الخيال. وإليك الخبر اليقين:

كانت قرية غوريوخينو تابعة منذ زمن بعيد إلى أسرة بيلكين المعروفة. لكن أسلاف الذين امتلكوا الكثير من الضياع الأخرى لم يهتموا بهذا الأقليم المنعزل. وواصلت غوريوخينو دفع القليل من الضرائب الزراعية ويتولى إدارتها الوكلاء الذين ينتخبهم (الفيتشو) أو ما يسمى الإجتماع العام للأهالي.

لكن بمرور الزمن تبعثت أملاك أسرة بيلكين وتدهورت أحوالها. ولم يستطع الأحفاد الذين أصابهم الأدقاع إقناع جدهم بأن يتخلى عن عاداته المترفة، وطالبوا باستعادة الدخل السابق كاملاً من الضيعة والذي تقلص بعشرة أمثال. وتوالت الأوامر والتوجيهات الواردة منهم الواحدة تلو الأخرى. وتلاها العمدة في اجتماع الفيتشو. فاطنّب المخاتير في الكلام المنمق، وهاج جمع الناس، أما السادة اصحاب الأطيان فبدلاً من الحصول على الديون المؤجلة مضاعفة،

حصلوا على وعود ماكرة وشكاوى وادعة كتبت على ورقة وسخة
وختمت بقطعة نقود من فئة القرش.

خيمنت سحابة قائمة فوق غوريو خينو، ولم يهتم بها أي أحد. وفي
العام الأخير لسلطة تريفون، آخر عمدة، الذي انتخبه الناس في عيد
قديس الكنيسة المحلية، حينما كان الأهالي يحتشدون بصخب حول
مبنى اللهو (يطلق عليه الناس تسمية الحانة) أم يتجولون في الشوارع
وقد احتضن بعضهم البعض، وهم يرفعون عقيرتهم بالأغاني من
نظم ارخيب - ليسي بصوت عال، ولجت القرية عربية ذات غطاء
مظفور، يجرها حصانان بجهد جهيد. وجلس على مقعد الخودي
يهودي بأسمال بالية، وانجس منها رأس يعتمر قبة ذات حافة
امامية، وبدا انه كان يتطلع بفضول الى الناس المرحين. واستقبل
الأهالي العربية بالضحك والسخرية الفظة (ملاحظة. كان المحمقون
يوجهون الإهانات إلى الخودي اليهودي وهم يلفون أطراف أثوابهم
ويصيحون بسخرية « يهودي، يهودي، كل أذن الخنزير!...»، من
مدونة شماس غوريو خينو). لكنهم عجبوا للغاية عندما توقفت
العربة في وسط القرية وقفز منها القادم وأمر باستدعاء العمدة تريفون.
وكان هذا الحظ في مبنى اللهو، واقتاده إثنان من الشيوخ من ذراعيه
باحترام إلى الساحة. ونظر القادم الغريب إليه شزراً وسلمه رسالة
وأمره بقرائتها فوراً. وكان من عادة العمدة في غوريو خينو ألا يقرأوا
الرسائل بأنفسهم. والعمدة أمي لا يحسن القراءة والكتابة. فاستدعوا
أفديسف الموظف المحلي. ووجدوه نائماً تحت الجدار في زقاق في
مكان قريب. واقتادوه إلى الشخص الغريب. بيد أنه لم يتمكن، ربما
بسبب اقتياده عنوة أو الخوف المفاجئ أو الشعور الداخلي بالحزن، من
فك رموز الكلمات المكتوبة بخط واضح. فأرسل الرجل الغريب كلا

من العمدة تريفون وافدي الموظف المحلي للنوم مرفقا ذلك باللغات
الفضة، وأجل قراءة الرسالة إلى يوم غد وتوجهه الى بيت وكيل إدارة
الضيعة وتبعه اليهودي حاملا حقيبة صغيرة.

تطلع أهالي غوروخينو بصمت يشوبه العجب إلى هذا الحادث غير
العادي، لكن سرعان مانسيت العربية واليهودي والغريب. واختتم
اليوم بصخب ومرح ونامت غوريوخينو من دون التنبؤ بما ينتظرها.

إستيقظ الناس عند طلوع الشمس في الصباح على صوت دقات
على النوافذ والدعوة الى الاجتماع العام. وجاء المواطنون الواحد
تلو الآخر إلى فناء بيت وكيل إدارة الضيعة الذي تحول إلى مكان
للإجتماع. وكانت عيونهم زائغة كدرة وحمراء ووجوههم منتفخة.
وظفقوا يتطلعون، بتشاؤب وبتسوية تصفيفة الشعر، إلى الرجل ذي
القبعة والقفطان الأزرق العتيق الواقف بمهابة عند مدخل بيت الوكيل،
ساعين إلى تذكر سمات وجهه التي رأوها في وقت ما. ووقف إلى
جانبه العمدة تريفون والموظف المحلي افدي حاسري الرأس ويدل
مظهرهما على الذل والبؤس. وسأل الغريب: «هل الجميع هنا؟»
فكرر العمدة: «هل الجميع هنا؟» فأجابه المواطنون - الجميع المئة
بالمئة. وعندئذ أعلن العمدة أنه تلقى من السيد صاحب الأطيان رسالة
وأمر الموظف بقراءتها بصوت عال امام الحشد. فتقدم أفدي وقرأ
بصوت عال ما يلي. (ملاحظة: «عثرت على الوثيقة التي تروى
الحادث محفوظة لدى العمدة تريفون في خزانة حفظ الأيقونات مع
الوثائق الأخرى المتعلقة بسيادته على غوريوخينو». ولم أستطع العثور
على الرسالة التي تثير الفضول).

إلى تريفون إيفانوف !

إن حامل هذه الرسالة هو وكيلتي الذي يتوجه إلى قريتي غوريوخينو لكي يتولى مهام إدارتها. يجب أن يعقد فوراً بناء على طلبه اجتماع الرجال الموجيك وإبلاغهم بأرادتي السيدة، وهي أنه يجب على الفلاحين الموجيك الإمثال لأوامر وكيلتي كما لو أنها أوامري. ويجب أن تنفذ جميع طلباته بلا حيد، وإلا فإنه سيعاملهم بكل حزم. إن ما دعاني إلى ذلك هي عدم طاعتهم الخالية من النزاهة، وسلوكك الفاسد الخبيث ياتريفون إيفانوف. التوقيع (ن.ن)

عندئذ وقف الغريب مفرجاً ساقه بهيئة حرف يوشرع بتنفيذ نهجه السياسي وألقى بعد أن تشبه بالحرف الكلمة القصيرة والمعبرة التالية: «أنظروا لي ولا تماحكوا، وأنا أعرف بأنكم شعب مدلل وفاسد، لكنني ساجتث الفساد من رؤوسكم بشكل أسرع من زوال نشوة السكر». لكن لم تكن في أي رأس نشوة سكر يوم أمس. ورفع أهل غوريوخينو أنوفهم كما لو ضربتهم صاعقة وانصرفوا إلى بيوتهم برعب.

إدارة الوكيل

تولى الوكيل قيادة الإدارة وشرع بتنفيذ نهجه السياسي. وهو يتطلب بحثاً خاصاً.

يتلخص مبداه الرئيسي في البديهية التالية: كلما كان الموجيك أكثر ثراءً يصبح مدلاً أكثر، وكلما كان أكثر فقراً يصبح مطيعاً أكثر. وفي الحصييلة سعى الوكيل إلى فرض الطاعة على الضيعة، باعتبار

الطاعة الفضيلة الرئيسية للفلاح. وطلب تسجيل الفلاحين في قائمة، وقسمهم إلى إغنياء وفقراء. (١) فرضت الضريبة المتأخرة على الفلاحين الأغنياء وتمت جبايتها منهم بكل صرامة ممكنة. (٢) تم إرسال المقصرين في الدفع وهواة التسلية في الأعياد للعمل في الحقول، وإذا ما كان عملهم غير كاف لتسوية لحساباتهم، فإنه كان يحولهم إلى عمال مأجورين لدى الفلاحين الآخرين، ممن يدفعون له الدية طوعاً، كما يتمتع الفلاحون المأجورون بالحق في التعويض عن ديونهم بدفع أكثر من ضعف الضريبة الزراعية في العام. وتقع جريرة أية افعال عدم الطاعة في المجتمع على عاتق الفلاحين الموجهين الأغنياء. أما تجنيد المجندين فقد كان ذا نفع للوكيل الجشع، فبواسطته كان يعفى من التجنيد جميع الفلاحين الموجهين الأغنياء حتى يقع الإختيار في نهاية المطاف على شقي او مفلس (١). وألغيت الإجتماعات العامة. وصارت الضرائب الزراعية تجبى بكميات قليلة شيئاً فشيئاً وطوال العام. زد على ذلك فرضت ضرائب إضافية غير مقررة. فقد تبين أن الفلاحين الموجهين دفعوا ليس أكثر من السابق بقدر كبير، فانهم لم يستطيعوا كسب وجمع النقود الكافية. وهكذا ساد الأدقاع في غوريوخينو خلال ثلاثة أعوام.

خيمت الكآبة على غوريوخينو، وخلت السوق من الناس، ولم تعد تسمع أغاني ارخيبي - ليسي. وأخذ الصبيان يتسولون. وكان نصف الفلاحين الموجهين يعملون في الحقول والنصف الآخر يعملون كأجراء. وحسب تعبير كاتب الأسفار فان عيد القديس راعي كنيسة القرية لم يصبح يوم بهجة وفرح بل يتم فيه أحياء الذكرى السنوية للحزن والعزاء بجزع.....

(١) وضع الوكيل اللعين الفلاح انطون في السجن مقيدا بالحديد،

بينما افتدى العجوز تيموفي ابنه بمبلغ ١٠٠ روبل. كما زج الوكيل بتروشكا يريميف بالسجن وافتداه ابوه مقابل ٦٨ روبلا، و اراد اللعين ان يسجن ليخا تاراسوف لكن هذا هرب الى الغابة، فثارت ثائرة الوكيل وغضب واطلق الشتائم والسباب، بينما نقل السكر فانكا الى المدينة وسلم الى مركز التجنيد (من اقوال الفلاحين الموجيك في غوريوخينو).

(ملاحظة ا.س. بوشكين)

الفهرست

المقدمة	٥
عدة كلمات حول بوشكين	١١
رحلة الى ارضروم في زمن الحملة العسكرية لعام ١٨٢٩	١٩
العربي ريبب بطرس الأكبر	٨٥
ليال مصرية	١٣٥
كيرجالي	١٥٨
روسلافليوف	١٦٧
ملكة البستوني	١٨٣
تاريخ قرية غوريوخينو	٢٢٦

بوشكين .. شمس الشعر الروسي النيرة !

لقي الشاعر الروسي الكسندر بوشكين مصرعه في 29 يناير عام 1837 في مبارزة مع المبعوث الهولندي دانتييس الضابط في سلاح الفرسان الذي ابدى وقاحة في مغازلة زوجة الشاعر ناتاليا مما اضطره الى دعوته للمبارزة. ويقال ان الحادث كله كان مؤامرة مدبرة يقف وراءها بلاط القيصر للتخلص من بوشكين ذي الافكار اللبرالية التنويرية التي كان يبشر بها في ابداعه الشعري والنثري. ويومذاك كتبت احدى الصحف قائلة: « غابت شمس شعرنا ». وقد اثار هذا سخط السلطات ودعي رئيس التحرير الى احد المسؤولين في الرقابة الذي وبخه قائلاً: « ما هذا الكلام ؟ اي شمس للشعر ! وما مكانته في ملاكات الدولة ؟ وهل كان قائدا عسكريا او زيرا او رجل دولة ؟ ».

لكن بوشكين رحل وذاع صيته في روسيا والعالم بصفته امير شعراء روسيا وترجمت اعماله الى مختلف لغات العالم ، بينما نسي القادة ورجال الدولة. واطلق اسمه على الميادين والشوارع في روسيا وبلدان اخرى ، منها العاصمة الاثيوبية حيث يوجد ميدان ونصب له باعتبار اثيوبيا وطن جده الاكبر ابراهيم هانيبال.

كان بوشكين سليل اسرة من النبلاء ولقي تعليمه في مدرسة اريد لها ان تعد كبار الموظفين في ادارة الدولة القيصرية. ورغم انه تعلم الفرنسية منذ نعومة اظفاره ، اذ انها كانت لغة النبلاء الروس ، وحتى نظم اولى قصائده في سن 13 عاما بالفرنسية بالذات ، فانه تأثر في المدرسة بكبار ادباء عصره الروس بالاضافة الى الحكايات الشعبية مربيته ارينا روديونوفا التي اصدرها لاحقا بأسلوبه الشعري الرشيق.

ISBN 978-2843090127



9 782843 090127